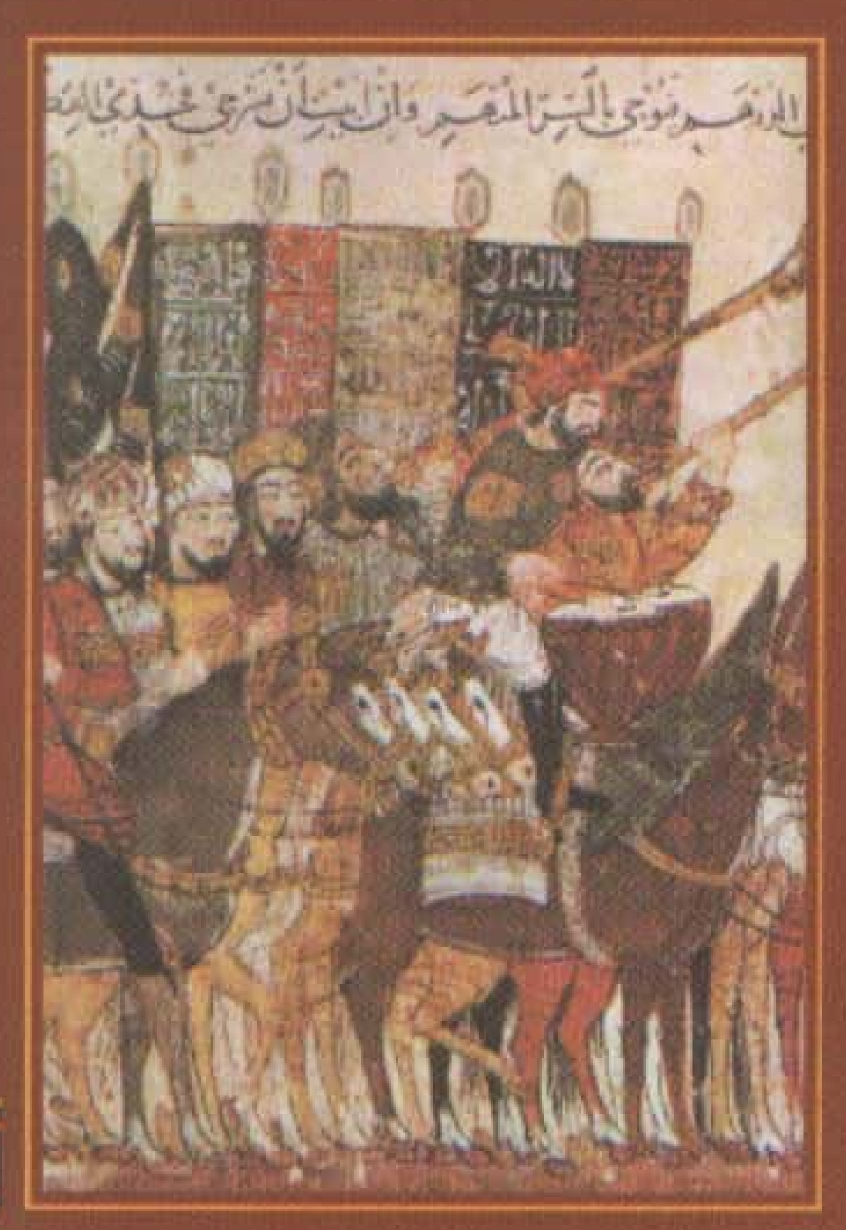
د. خولة شخاترة

الخَبَر عند المحسِّن التنوخي

بين القص والتأريخ





الخبر عند المحسّن التنوخي

بين القص والتأريخ

الخبر عند المحسّن التنوخي

بين القص والتأريخ

د. خولــة شخاتــرة

الطبعة الاولى

٢٠٠٤



٨١٩,٥

شخا شخاترة ، خولة خليل

الخبر عند المحسن التنوخي: بين القص و التأريخ / خولة خليل

شخاترة.ـ عمان : المؤلف ، ٢٠٠١

(.......) ص

ر. إ. : (٢٠٠١/١٢/٢٥٥٠)

الواصفات : الادب العربي/ النقد الادبي / النثر العربي / العصر العباسي

* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الاولية من قبل دائر المكتبة الوطنية

مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع

ص . ب ١٥٢٧ عمان ١١٩٥٣ الاردن / تلفاكس ٥٣٣٧٧٩٨

البريد الالكتروني e - mail : halwaraq@hotmail.com

الإهـــداء

إلى سلطان ودلال

و حمزة ومحمد

شكر خاص

إلى أ. د يوسف بكار

إلى أ. د خليل أبو رحمة

المحتـــــويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــــــة

تواليف المحسِّن التنوخي من الأعمال المهمة في تاريخ الأدب العربي، التي تندرج في ما يسمى بالمصنفات الجامعة التي تتضمن مختلف أجناس الكلام العربي وأنواعه وأنماطه كما سيتضح فيما بعد؛ سواء أكانت هذه المصنفات جامعة عامة مثل "النشوار" أم جامعة خاصة مثل "الفرج بعد الشدة" و "المستجاد من فعلات الأجواد". بكل ما تحمله هذه المصنفات من مضامين مختلفة، مما يصعب الإحاطة به.

عُنيت الدراسة بالوحدات السردية "الأخبار". والخبر ذو صلة لا تنكر بالمعارف المتداولة بين العرب؛ فله وشائج تشده إلى التاريخ والأنساب والآداب[١]. فالتأريخ يسمى علم الخبر[٢]، لأنه اتخذ شكلاً محدداً من السرد هو الخبر، وهو الشكل الأصلي للتأريخ العربي، الذي يقوم على رواية لحدثٍ مفرد عبر سلسلة رواة تناقلوا الخبر ابتداءً ممن شهده أو زعم ذلك،طبقاً لمنهج اختصت به العلوم الدينية، هو منهج الإسناد[٣].

اللافت أن كثيراً من الأخبار الواردة في كتب التنوخي تتشابه إذا ما درست منفصلة عن سياقاتها مع الأخبار التي أوردتها كتب التأريخ والتراجم؛ من حيث الالتزام بالسرد المتسلسل الذي يخلو من تدخل الراوي أو المؤرخ، فضلاً عن تشابه الحوادث المروية. إلا أن المحسِّن التنوخي لا يكتب تأريخاً، فالتأريخ في اللغة "الإعلام بالوقت"، وفي الاصطلاح "التأريخ العام"؛ أي تسجيل أهم حوادث الأمم، والحوليات؛ أي تدوين الحوادث عاماً عاماً، وبمعنى تحديد زمن وقوع الأحداث تحديداً دقيقاً[٤].

إنّ كتب المحسِّن أبعد ما تكون عن الحوليات أو الكتب المؤرخة حسب العصور،أما توقفه عند تسجيل بعض الحوادث المهمة، وإخباره عنها بما يتشابه

مـــع ما رواه المؤرخون فلا يعد كتابة تأريخية لأن دلالة الخبر لا تكتمل إلا من خلال دخوله في السياق الأعم والأشمل[٥] مما يجعله مستقلاً وتابعاً في آن[٦].

غـــير أن حضور سمات القص ومظاهره في نسيج هذه الأخبار، جعلني أمـــيل إلـــى تناولها بالمفهوم الذي حدده ستيفن ليدر للأخبار (Stefan Leder) "بأنهـــا وحدات سردية مكتفية بذاتها وهذه النصوص تختلف عن بعضها اختلافاً كبـــيراً من حيث الموضوع والبنية، وتمتد من خبر أو كلام بسيطين إلى قصص معقـــدة"[٧]. هـــذا التعريف يسمح بأن يدخل فيه الخبر والحكاية والنادرة والمنام والمناظرة التي وردت في إطار سردي سواء أكانت تحيل على حوادث تاريخية أم متخـــيلة؛ الأمـــر الذي شجعني على دراسة الخبر عند المحسِّن التنوخي بين القص والتأريخ.

حظـــى المحسِّـــن التنوخـــي بدراسات متعددة، إلا أنه لم يحظ بالدراسة الأكاديمية العلمية الكافية التي تكشف عن إسهامه في مسيرة النثر العربي ودوره المهم فيها. فثمة من تجاهله ولم يصنفه في تقسيماته لكتاب النثر العربي أو يشر إلـــيه مـــثل شوقي ضيف في "الفن ومذاهبه في النثر العربي"؛ وهناك منْ درس جانـــباً واحـــداً من أحد كتبه وأغفل الجوانب الأخرى من مثل شكري فيصل في مقالـــة "رحلـــة كتاب : نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد" الذي قصره علـــى تحقـــيق الكتاب دون أن يقترب من نصوصه، ومن مثل فلشتينسكي في " المحاضـــرة للتنوخـــي كنموذج للحكاية العربية"، ومحمد حسن عبدالله في كتابه "الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي : دراسة فنية تحليلية"، والبشير الوسلاتي في "القص في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي".

وثمـــة نفـــر من الدارسين اعتمد على تحقيق الشالجي للنشوار وتجميعه للأجـــزاء الضائعة دون تمحيص، فدرس نصوصاً وردت في النسوار على أنها للمحسِّـــن في حين أنها ليست له، ومن هؤلاء محسن جاسم الموسوي في الفصل الأول من كتابه "سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط"، و سلوى عبدالفتاح عـــثمان فـــي أطروحـــتها للماجستير "المحسِّن بن علي التنوخي، حياته ودراسة

تحليلية لآثارة". وكان الشالجي قد عمد إلى تتّبع الأجزاء الضائعة من النشوار في الكتـــب المتأخرة وجمعها في أربعة أجزاء، أضيفت للأجزاء الأصلية الأربعة، مما أحدث خلطاً للباحثين. لأن الأخبار في الأجزاء المجموعة تروى في مجملها عن ابنه علي بن المحسّن، الأمر الذي حملني على أن استبعد هذه الأجزاء. وقد قـــوّت ظاهرة الاقتصار على كتاب واحد أو موضوع من كتاب من عزمي على اختيار موضوع الدراسة والتصدي له.

ولقد أفاد هذا البحث من دراسات عدة، لعل من أهمها : دراسة ستيفن ليدر :

Authorship and Transmission in Unauthored Literature
The Akhbar Attributed to Al-Haytham Ibn-Adi.

"والخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون" لعلي أومليل، و "الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، مقدمة في أصول التأريخ العربي"، لعزيز العظمة، "والقـــص فـــي أخـــبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي"، للبشير الوسلاتي، و "الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية" لمحمد القاضي.

الهوامـــش

١- الخبر في الأدب العربي، ص ٨٤.

٢- رســالة فــي مراتب العلوم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحســان عبــاس، ٤ : ٧٩.

٣- الخطــاب التاريخــي، علــي أومليل، ص ١٣-١٤؛ وانظر أيضاً: مفهوم التاريخ، عبدالله العروي، ص ٩٩.

٤- دائــرة المعــارف الإسلامية، مادة تأريخ، لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التأريخ، انظر: مفهوم التاريخ، ص ٢٦٠-٢٦١.

٥- الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال، ص ١٤٤.

٦- الخبر في الأدب العربي، ص ٤١٢.

7- Authorship and Transmission in Unauthoured Literature, The Akhabar Attributed to Al-Haytham Ibn-Adi, Stefan Leader، Orients، Vol: 31، 1981, P. 67.

التمهيـــــد

جهود المعاصرين في المحسّن التنوخي

١- تحقيق الأعمـــال :

بـدأ الاهـتمام بتحقيق كتب المحسّن التنوخي ونشرها منذ بدايات القرن العشرين، حين نشر كتابه "الفرج بعد الشدة"، أول مرة في جزئين عام ١٩٠٣[١] عـن دار الهلال بمصر. ثم ظهر كتاب "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" – الـذي وصل إلينا منه ثلاثة أجزاء فقط–منجماً، إذ نشر مرّجليوث الجزء الأول مـنه عـام ١٩٢١، في مطبعة أمين هندية بمصر، وترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٢١[٢] بعنوان :

The Table Talk of A Mesopotamian Judge

ونشـر المجمع العلمي العربي بدمشق الجزء الثاني في مجلته[٣]، وترجم إلى الإنجليزية بالعنوان السابق نفسه[٤]، وأعيد نشره بحيدر آباد عام ١٩٣٤[٥]، ثـم نشر المجمع العلمي العربي بدمشق الجزء الثامن في مجلته[٦]، وأعيد نشره كـتاباً فـي مطبعة المفيد بدمشق، عام ١٩٣٠ بعنوان "جامع التواريخ أو نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، وترجـم في مجلــة[٧].

Islamic Culture. Vol. V(1931) and Vol. V1 (1932)

وعاد الكتاب للظهور من جديد بتحقيق عبود الشالجي، وصدر منه طبعتان الأولـى بيـن ١٩٧١ و ١٩٧٣م، والأخـرى عام ١٩٩٥م، وكلتاهما عن دار صادر.

وعنـي محمـد كرد علي بكتاب المحسّن التنوخي "المستجاد من فعلات الأجـواد"، ونشـره بمطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٤٦[٨]، ثم طبع مرة أخرى بتحقيق يوسف البستاني عام ١٩٨٤م، عن دار العرب، القاهرة[٩].

لقـد أثـار تحقـيق عبود الشالجي لكتاب النشوار ملاحظات غير باحث وتعقيـباتهم كما سيرد في البحث. ثم إنه جدّ في البحث عن مخطوطات الكتاب علّه يجده فينشره كاملاً[10]، لأن الكتاب لم يصل إلينا كاملاً.

بـدأ الشـالجي عملـه بجمـع النسخ المخطوطة ووصفها، فقاده البحث والتقصـيّ إلـى مخطوطـة الجـزء الأول من المكتبة الوطنية بباريس، وإلى مخطوطـة مجلـد يشـتمل علـى الجزئين الأول والثاني من مكتبة "ملا مراد" باسـتنبول، وفلـم مخطوطة يشتمل على أحد الأجزاء من مكتبة العلامة "أحمد تيمور" بالقاهرة، وفلم مخطوطة يشتمل على الجزء الثامن من النشوار من مكتبة المـتحف البريطانـي بلـندن، ثـم إنه قال بعد موازنته بين مخطوطة باريس ومخطوطـة استنبول ؛ "ولما كان الجزء الثاني من النشوار قد تعيّن بظهوره في مخطوطة استنبول، فقد اعتبرت جزءاً ثالثاً من النشوار، المخطوطة التي اشتملت عليها المكتبة التيمورية، وهي المخطوطة التي سبق أن طبعت بدمشق، باعتبارها جـزءاً ثانياً، ونشرت في أجزاء مجلة المجمع العلمي العربي"[11]. وظل المحقق يبحث عن أجزاء النشوار الأخرى الضائعة دون جدوى، بيد أنه لجأ إلى طريقة أخرى؛ تتبع فيها الأخبار الواردة عن التنوخي– سواء أكان المروي عنه التنوخي الأب أم التنوخـي الابـن[12] – في المؤلفات اللاحقة له، فاقتطعها من سياقاتها وضـمها إلى بعضها في أجزاء أربعة، وعدها الضائع من النشوار، يقول ؛ "ثم حاولـت مـن بعد ذلك، أن أتتبع الفقرات الضائعة من النشوار، في ثنايا الكتب، فأعـيد جمعهـا، وكـان ذلك بدء عمل مضنٍ، بذلت فيه وقتاً وجهداً، وصبراً، وراجعت مؤلفات ابن الجوزي ؛ المنتظم، والأذكياء، وأخبار الحمقى والمغفلين، وذم الهـوى ... وغيرها من الكتب، فوجدت فيها ينبوعاً ثراً، من القصص التي تروى عن مؤلف النشوار، غير أنها وردت بأسماء مختلفة[13]، ووجدت أن قسماً من تلك القصص، قد أثبت في الأجزاء المنشورة فتأيد لي من ذلك، أن القصص التـي وردت مـروية عـن أصحاب تلك الأسماء، إنما هي مروية عن صاحب

النشوار، وأنها قد اقتطعت من ذلك الكتاب، فاستللتها من مواضعها، وضممتها إلى بعضها، واعتبرتها من الفقرات الضائعة من النشوار"[١٤].

وحين ظهر تحقيق الشالجي للنشوار وتجميعه للأجزاء الضائعة منه، تناوله بعض الباحثين بالمراجعة[١٥] والنقد. ولعل من أبرز النقود التي وجهت إلى تحقيقه -في حدود علمي- نقود شكري فيصل، محمد عبدالغني حسن؛ فكتب الأول مقالة بعنوان "رحلة كتاب ؛نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد"[١٦]، تتبع في قسمها الأول وهو بعنوان "النشوار مع مرّجليوث" صور الاهتمام بكتاب النشوار منذ أن نشر المستشرق الإنجليزي مرّجليوث جزءه الأول عام ١٩٢١م. فتبدّى هذا الاهتمام في صور مختلفة ؛ الاهتمام بالجزء الأول والتعليق عليه من مثل ؛ سلسلة المقالات التي تناول فيها كل من أحمد تيمور[١٧]وعبدالقادر المغربي[١٨] الألفاظ العباسية في الكتاب[١٩]. ومنها محاولة العثور على الأجزاء الأخرى من الكتاب ونشرها من مثل محاولات مرّجليوث وأحمد تيمور[٢٠]، وترجمة الكتاب إلى الإنجليزية[٢١].

أما في قسمها الآخر وهو بعنوان "النشوار مع عبود الشالجي"، فقد تناول فيه تحقيق الشالجي للكتاب. وأول ما يلحظه شكري فيصل على التحقيق، أن المحقق "لم يقع على أجزاء جديدة من الكتاب لم تكن قد نشرت، ولا على مخطوطات منه لم تكن قد عرفت"[٢٢]. ويزيد هذا الأمر توضيحاً حين يستعرض المخطوطات التي جعلها الشالجي أصلاً للتحقيق، فيجد أن الذي اهتدى إليه المحقق هو نسخة استنبول التي قال عنها ؛ " إنها تضم الجزء الأول والثاني، فكانت نقطة الانطلاق عنده وجعلها مفتاح عمله. وهو بهذا الاهتداء خرج عن التجزئة السابقة التي سار عليها مرّجليوث"[٢٣].

ويقف شكري فيصل أمام تجزئة المحقق وقفة متأنية. فقد لحظ أن الورقة الأولى التي صدّر بها المحقق بداية الجزئين ونهايتهما، تشير إلى أننا أمام

جزئين، يضمان تبعاً لصنيع الشالجي ؛ مقدمة الكتاب والأخـــبار من (١-١٩٠) من الـــجزء الأول، والأخبـــار من (١-١٨٣) من الجزء الثاني، مع الإشارة إلى أن الورقـــة الأخيرة من الجزء الثاني لا تشير إلى خاتمة الجزء الثاني[٢٤]. هنا يتســـاءل شـــكري فيصـــل ؛ ما الذي دفع مرّجليوث إلى تسمية ما نشره بالجزء الأول، في حين يقول هو نفسه في خاتمة الخاتمة التي وضعها للكتاب في وصف المخطوطـــة "وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة ؟" وما الذي يدفـــع الشـــالجي إذا كان قد اعتمد تجزئة نسخة استنبول أن يضيف إلى الجزء الثاني الأخبار مـــن (١٨٤-١٩٤)، وهي ليست في نسخة استنبول؟ ألا يبدو أنه يـــرفض تجزئة مرّجليـــوث في جانـــب منهـــا ويتبعهـــا في جانـــب، في آن واحد ؟ [٢٥].

ويعود في محاولة للإجابة -يعترف أنها لن تنتهي إلى يقين- إلى صور مخطوطـــة باريس في مقدمة الجزء الأول، فيرى أنها لاتحمل أية إشارة إلى أنه جـــزء كذا ولا أنه يتلو جزء كذا، وحين يصل الجزء الثالث من تحقيق الشالجي (الثاني من تحقيق مرّجليوث) يجد قبل البسملة ما نصه الجزء الثاني من اختيار المذاكرة، ونشوار المطالعة، وابتكار المحاضرة للتنوخي"[٢٦]. وهذا النص الذي تثبته مجلة المجمع في مقدمة نشرها للجزء الثاني، غاب عن الصورة التي قدمها الشالجي لهذا الجزء[٢٧].

ويخلـــص إلـــى مناقشـــة صنيع المحقق في تتبع الفقرات الضائعة من النشـــوار وإعـــادة جمعها. فيتوقف عند قول المحقق "تتبعت الفقرات الضائعة"، والضـــائع من النشوار ليس فقرات وإنما هو أجزاء من الكتاب هي فوق ما وجد مـــنه[٢٨]. وينتهـــي إلى تسمية المحقق لما رواه المؤلفون عن التنوخي اقتطاعاً، وهـــو يريد أن يرد إلى الكتاب ما اقتطع منه[٢٩]، وأن عمله لا يجاوز أن يكون استلالاً لهذه الفقرات وضم بعضها إلى بعض ليكّون من ذلك كله هذه الأجـــزاء

الضــــائعة"[٣٠]. ويتساءل شكري فيصل؛ هل هنالك ما يسمح لنا علمياً أن نوافق الشـــالجي على صنيعه ؟ [٣١]. ويجيب "إن الأعراف العلمية لا تتيح لي بحال أن أســـند شيئاً إلى غير صاحبه إلا على بينة ودليل ... وهي أحرى أن لا تتيح لي بأيـــة حـــال أن أجعل من بعض القصص أياً كانت صلتها بصاحبها هي الكتاب المفقود الذي أعده هو على هذا النحو أو ذاك"[٣٢].

ومـــع أنـــه لا يـــنكر الجهد الكبير المضني الذي بذله الشالجي في تتبع المؤلفـــات والوقـــوف عـــند كل خبر منها، ولا ينكر الفائدة التي قدمها الشالجي للمـــثقف العربي وللثقافة العربية، "ولكن منطق الفائدة شيء، ومنطق أن أقول ؛ "هذا كتاب النشوار، شيء آخر"[٣٣].

وكتب محمد عبدالغني حسن مقالة قصرها على الحديث عن صنيع محقق النشـــوار في تتبع الأجزاء الضائعة منه وجمعها، ويتفق فيها مع الملاحظات أو النقود التي أبداها شكري فيصل دون أن يشير إليه. واللافت للانتباه أن صاحب المقالـــة يتســـاءل ؛ كيف جاز لمحققنا الفاضل أن يجمع هذه الأخبار الشتى من مصـــادر مـــتفرقة، ثم يؤلف من كل طائفة منها جزءاً يسميه الجزء الرابع، أو الخـــامس، أو السادس من النشوار؟ ويجيب فهي جمعه وتنسيقه وتقسيمه هو لا جمـــع المؤلـــف ولا تنسيقه ولا تقسيمه[٣٤]. لكنه على الرغم من هذا، يدعو إلى تقبل هذا الصنيع قائلاً ؛ "فلنقبل هذه الحصيلة الفخمة من أخبار القاضي التنوخي فـــي هذه الطبعة الرائعة التي أصدرها الأستاذ الشالجي، ولنغض النظر- ونحن مســـتمتعون بأطيب ما فيها من طرائف- على أنها هي نشوار المحاضرة كاملاً غـــير منقوص، ولا مزيد[٣٥]؛ لقيمة هذه القصص والمرويات والأخبار الطريفة العجيـــبة؛ التي تدخل في باب تصوير المجتمع العربي الإسلامي[٣٦]، ثم يقول ؛ "ولأن دافعاً نبيلاً وباعثاً عظيماً حمل المحقق على أن يسلك هذا الطريق الوعر، ليرد الاعتبار والوجود إلى كتاب ضائع أغلبه"[٣٧].

إن مــرجع ذيــنك الباحثيــن في نقودهما لصنيع المحقق هي الأعراف العلمية التي لا تتيح بأي حال أن تسند شيئاً إلى غير صاحبه إلا على بينه ودليل ... فلــيس الــتراث -كما يقول شكري فيصل- "ملكاً لنا نصنعــه نحــن على هوانــا"[٣٨]. وإذا كان "للكتاب أخباره وترتيبه وأجزاؤه. فهل هذه التي وقع عليها الأســتاذ الشالجي هي أخباره؟ وهل هذا هو ترتيبها؟ هل هذه هي تجزئتها؟"[٣٩]. لا يجــوز أن يُساوى كتاب نشوار المحاضرة المفقود بعض أجزائه -كما يقول محمد عبدالغني حسن- ببضعة أجزاء استلها المحقق من كتب أخرى متوهماً أنها من النشوار - دون سند صحيح أو بينة قوية- وليس لها من سند إلا أنها وردت فــي طائفــة من المؤلفات نسبتها إلى التنوخي، فجزم محققنا الفاضل بأنها من نشــواره [٤٠].

ترتيــــب النصــوص :

إن للتنوخي طرائقه الخاصة في إيراد الأخبار وترتيبها، بحيث تقوم على التداعــي كمــا هــو آتٍ في البحث، الأمر الذي يتجاهله المحقق، فينقل الأخبار المروية عن التنوخي بالتتابع حسب ورودها في صفحات المؤلفات المنقول عنها. حــتى إنــه يصــعب في كثير من الأحيان معرفة مصدر الترابط بينها كما في المثالين الآتيين ؛

١- يــبدأ بــنقل الأخــبار المروية عن التنوخي عن الجزء الأول من معجم الأدبــاء، ويســتمر في النقل إلى أن ينتهي الجزء، ثم يأخذ في النقل عن الأجــزاء الأخــرى إلــى أن ينتهي من النقل وهكذا، ما دام الخبر يذكر التنوخــي في سلسلة الرواة[٤١]، ويسير على هذا النهج وكذا في النقل عن المصادر الأخرى.

٢- ينقل ما ورد من أخبار عن الشخصية الواحدة في كتاب من كتب التراجم إلى أن تنتهي أخبارها المروية عن التنوخي، من مثل ما نقله من أخبار تتعلق بحسان ابن سنان التنوخي الأنباري (٦٠-١٨٠هـ)، من كتاب "تاريخ بغداد"، مروية عن "علي بن أبي علي المعدّل"[٤٢].

تجاهل كتب المحسِّن التنوخي الأخرى :

تجاهل المحقق كتابي المحسِّن التنوخي "الفرج بعد الشدة" و "المستجاد من فعلات الأجواد"، في بحثه المضني عن نصوص النشوار الضائعة، في المؤلفات المتأخرة، فالأول كان قد طبع غير مرة حين صدرت الأجزاء المجموعة من النشوار، لعل أشهرها طبعة دار الهلال، والطبعة التي أصدرتها مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٥٥م، ومكتبة المثنى ببغداد، والآخر صدر عام ١٩٤٥م، من تحقيق محمد كرد علي.

ألم يكن أولى وأفضل أن ينقل المحقق عن كتب المؤلف نفسه، لاسيما أن النص الواحد -في كثير من الأحيان- يتكرر في غير كتاب من كتب التنوخي؟! لقد نتج عن ذلك تجزئة للنصوص أساءت إلى وحدتها وشوهتها. وأبرز مثال على هذا أنه نقل أخباراً ثلاثة عن كتاب "ذم الهوى" لابن الجوزي وجعل لكل خبر رقماً خاصاً به وعنواناً [٤٣] مستهلاً الخبر بذكر السند.

فالخبر رقم (٥٩) عنونه بـ "حلف بالطلاق لا يحضر دعوة أبداً"، واستهله بالإسناد الآتي : "أنبأنا أبو بكر محمد بن عبدالباقي، قال : أنبأنا أبو القاسم علي بن المحسِّن التنوخي، عن أبيه، قال : حدثني الشريف أبو أحمد الحسين ابن موسى العلوي، النقيب، قال ..."[٤٤]. والخبر رقم (٦١) جعل عنوانه "ولكم في القصاص حياة"، واستهله بهذا الإسناد : "أنبأنا أبو بكر محمد بن

عبد الباقي، قال: أنبأنا علي بن المحسن التنوخي، عن أبيه، قال : حدثني عبدالله بن محمد، قال : حدثني شيخ كان يخدمني، وقد تجارينا أحاديث، قال..." [٤٥].

والخــبر رقــم (٦٣) وضع عنوانه "حلف بالطلاق لا يشيع جنازة أبداً"، واســتهله بمــا يأتــي "أنبأنا محمد بن عبدالباقي، قال : أنبأنا علي بن المحسن التنوخـــي، عــن أبيه، قال : حدثني عبدالله بن محمد، قال : حدثني الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى العلوي النقيب، قال..." [٤٦].

واللافــت للانتباه أن الأخبار الثلاثة المنقولة عن "ذم الهوى"، ليست في حقــيقة الأمر أخباراً منفصلة، بل هي حكاية واحدة وردت في كتاب "الفرج بعد الشــدة"[٤٧]، وتدور أحداثها على رجل بصري سافر إلى بغداد؛ فتعرض لسلسلة مــن المصاعب والمحن، فهو ما أن يخرج من محنة حتى يتعرض لأخرى أشد إلــى أن يفــرج عنه الفرج الذي يبتغيه، فيحلف بالطلاق "ألا يحضر دعوة، ولا يشيع جنازة، ولا يــودع وديعــة"[٤٨].. فأحداث الحكاية متتابعة ومترابطة برباط سببــي وآخر منطقي، ولا تحتمل التجزئة، فالرجل يلجأ إلى أتون حمام لم يوقد فـــي الليل، خوفاً من اتهامه بجريمة قتل حدثت أمامه، وليس من شاهد عليها إلا هـــو، لكن ملجأه الأخير لم يعصمه من مشاهدة جريمة أخرى حدثت أمامه وهي مقتل فتاة على يد عشيقها؛ وكان سبباً في معرفة القاتل وقتله؛ إذ شاءت الظروف أن يكون ضيفاً على شقيق الفتاة القتيل، فعمل معه على الإيقاع بالقاتل وقتله، مما دفعــه إلــى الإســراع في القدوم إلى بغداد. وما أن وصل إلى بغداد حتى اتهم بجريمة قتل، وهو يظن أنه يفعل خيراً، لكن شاءت الأقدار في النهاية أن تتكشف الحقيقة وتبرأ ساحته، فحلف اليمين الذي حلف"[٤٩].

ولما كان المحقق ينقل عن كتاب "ذم الهوى" بالتتابع، وبمعزل عن كتب المحسِّن التنوخي، غاب عنه أنه يجزئ نصاً متكاملاً ويفتته إلى مجموعة أخبار منفصلة؛ لأنه لم يعد إلى كتاب المؤلف نفسه "الفرج بعد الشدة" واكتفى بالأخذ عن "ذم الهوى" الذي أورد الخبر في ثلاثة أبواب منفصلة(٥٠).

يضاف إلى هذا كله أن التنوخي يصرح بأنه يغير ويبدل في الأخبار التي تلقاها بالسماع أو القراءة كما سأشير فيما بعد؛ على الرغم من أنه يحتفظ بالإسناد في مستهل كل خبر؛ فهو لا ينكر أن نواة الأخبار وردت في مؤلفات سبقته أو وردت كما هي في سياقات مغايرة للسياق الذي أوردها فيه، إلا أنه يفعل ذلك بهدف إكساب تلك الكتابات المصداقية اللازمة لتقبلها ثقافياً(٥١). وهذه المصداقية تمنحه الفرصة لكي يضمّن أخباره ما يريد من آراء أو مواقف تشير إلى موقفه من أحداث عصره، على الرغم من ادعائه الحياد فيما يروي. "فالأسانيد تضطلع غالباً بدور تبرئة الذمة، فيجهد الراوي للإقناع بأنه مجرد ناقل للخبر، فإن كان صحيحاً فذاك وإن كان موضوعاً فإنه لا يتحمل تبعته"(٥٢). وتوظف الأسانيد فضلاً عما سلف "لترسيخ الخبر في الواقع التاريخي فإن لم يكن ذلك للإقناع بوقوع الأعمال، فإنه للبرهنة على "وقوع" الأقوال"(٥٣).

إن التنوخي لا ينقل الأخبار من أفواه الرجال أو بطون الكتب ليجعل من كتابه خزّاناً للنصوص حسب، إنما يفعل ذلك ليعيد كتابة الأخبار ويوزعها على أبواب كتبه بما يتوافق مع المنهج الذي وضعه لنفسه في تدوين المروي، وبما يتوافق مع الهدف الذي يتغياه من التأليف عموماً؛ يقول –مثلاً– بعد الانتهاء من رواية خبر بروايتين مختلفتين عن خروج سليمان بن وهب (ت ٢٨٨هـ) من الحبس، وما قيل فيه من شعر ؛ "قال وقد ذكر محمد بن داود، في كتابه المسمى "كتاب الوزراء"(٥٤)، عن خروج سليمان بن وهب من حبس الواثق غير هذا، قال في كتابه ؛ حدثني أبو القاسم عبيدالله بن سليمان، واقتص محمد بن عبدوس،

قصة طويلة، ليس فيها ذكر منام، فذكرتها أنا في كتابي هذا، في باب من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال، ورويتها عن علي بن عيسى، عن عبيدالله بن سليمان، بألفاظ قوية، أقوى من الألفاظ التي أوردها ابن عبدوس، ولم أذكرها ها هنا، لأن هذا الخبر مختص بالمنامات، فجعلته في بابه، وأوردت تلك القصة في الباب المفرد لأمثالها"(٥٥).

من ينعم النظر في كتب المحسّن التنوخي يجد أن الخبر الواحد تختلف روايته زيادة ونقصاناً باختلاف الكتاب الذي ورد فيه وتبعاً لسياقه. ففي كتاب "النشوار" مثلاً سلسلة من الأخبار الطويلة أو الحكايات عن مظاهر عبث الشباب في القرن الرابع الهجري وتبذيرهم للأموال الطائلة، التي آلت إليهم فجأة، بالميراث، دون عناء في تحصيلها. منها حكاية شاب ورث مالاً كثيراً، فأسرع في إتلافه، وبقي منه خمسة آلاف دينار، وأراد أن تفنى بسرعة مهما كانت الوسيلة، فاقترح عليه بعض أصحابه وسيلة في غاية العبث والتهور، ليس لها من هدف إلا إفناء المال. ويطيل الراوي في وصف تفصيلات الاقتراح فقال له بعض أصحابه ؛ تبتاع زجاجاً مخروطاً بالمال كلّه، إلا خمسمائة دينار، وتعبّيه بحذائك، ويكون في نهاية الحسن، وتنفق الخمسمائة دينار في يوم واحد في جذور المغنيات، والفاكهة، والطيب، والشراب، والثلج والطعام، فإذا قارب الشراب أن يفنى، أطلقت فارتين في الزجاج، فيتكسر جميعه، وينهب الباقي"(٥٦). ونفّذ الاقتراح السابق فعلاً، وهو يضحك، ثم يكمل الراوي حكاية الشاب وما وصل إليه من فقر وبؤس حال وعزلة إلى أن تاب وصلحت حاله، بعد أن ورث مالاً جديداً، فعمل على تحسين حاله، واستثمار المال في ضياع تغل عليه مقدار نفقته في كل عام(٥٧).

وروي الخبر ذاته في كتاب الفرج، لكن في سياق الدلالة على حدوث الفرج مهما طال الزمن، فيبدأ من حيث افتقر الشاب، ولا تعنيه الكيفية، إلا من إشارة مقتضبه من الراوي تبيّن أنه أتلف ماله في القيان. فيفرد حيزاً واسعاً لوصف حالة الشاب التي تثير الشفقة على لسان بعض من كان يعاشره، وانقطع عنه بعد افتقاره، في حين جاء وصف حالته في هذا الخبر على لسان صاحب المشورة بالزجاج والفأر والسنّور. وبعدها يكمل الراوي حكاية الشاب إلى أن يصل إلى فرجه بصلاح حاله واستقرارها واستثمار أمواله، والاقتصاد في إنفاقه، بما يتلاءم وموضوع كتاب الفرج [٥٨] فغاب عن الخبر وصف مظاهر عبث الشاب وتبذيره، وحل محلها في النهاية الاعتبار والعظة من المحنة، الأمر الذي جعله يتخلى عن الماضي وكل ما يمت إليه بصلة من أصدقاء السوء.

يضاف إلى هذا، التباين في النواحي الشكلية من حيث ذكر الإسناد في خبر الفرج "حدثني عبيدالله بن محمد الصرويّ، عن أبيه، قال"[٥٩]، وإغفال ذكره في النشوار.

فإذا كانت هذه حال الخبر الواحد عند المؤلف نفسه، فكيف ستكون حاله حين ينتقل إلى مؤلف آخر، وفي مرحلة زمنية متأخرة ؟ هل يمكن إذاً، أن نطمئن ضرورة إلى تجميع أجزاء من كتاب النشوار من نصوص مؤلفات متأخرة ذُكر اسم التنوخي في سندها ؟!.

ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى خبر واحد ورد عند الجاحظ[٦٠]، وابن قتيبة[٦١] رواية عن أبي عبيدة، يتحدث عن وفاء كلب ودوره في إنقاذ صاحبه من موت محقق؛ فمن يقرأ الخبرين يجد فرقاً هائلاً بينهما، وسبب ذلك أن الجاحظ يتجاوز في نصه مجرد الإخبار إلى إنشاء نص جديد يتلاءم مع النسق الذي وضعه لنفسه في إيراد النصوص الحكائية وسردها، ويتلاءم مع هدفه من تأليف كتاب الحيوان، وهو هدف كلامي يبغى من خلاله بيان فكرة

الاســتدلال بــالخلق على الخالق. في حين التزم ابن قتيبة في حدود الخبر الذي يأتي خادماً للشعر ومفسراً لــه بالاتكاء على الأخبار المروية المصاحبة للشعر. ولــو أردنــا أن نتّبع منهج محقق النشوار لأصبح لزاماً علينا أن ننسب النصين السابقين إلى أبي عبيدة الذي رواهما. وهذا مالا نوافق عليه، فقد أصبح للإسناد فيما بعد "وظيفة تشبه إلى حد بعيد الطقوس الأولية التي توجد في حالات التعبد أو الســحر، إذ هــي مدخــل لاحتواء "المريد" وإحاطته بضروب من القيود لا يستطيع منه فكاكاً. وبهذا يكون الإسناد أداة لإيجاد "حالة فنية" تستفز في القارئ حساســيته الجمالية وتجعله مستعداً للاندراج في فتنة النص وما ينشئه من عوالم وأخيلة"(٦٢).

٢- الدراســات : عــرض ونقــد :

تعــددت آراء المعاصــرين في التنوخي وأعماله وتنوعت، كما تنوعت طرائق النظر إليها ودراستها. وقد تراوحت هذه الآراء بين دراسة مؤلفاته على أنها أعمال تاريخية صرفة من مثل ما كتبه قاسم السامرائي في مقالته "هل كتب التنوخي كتاباً في التاريخ"(٦٣)، أو التعريف السريع بواحد من كتبه من مثل مقالة صلاح جرار "المستجاد من فعلات الأجواد"(٦٤)، أو الدراسات الجادة التي تناولت بالتحلــيل كتاباً بعينه أو جانباً من كتاب من كتبه وأغفلت الجوانب الأخرى، أو تناولــت حــياة التنوخــي ومؤلفاته مجتمعة. ويمكن في هذا الإطار التمييز بين دراسات عامة تُعنى بدراسة التنوخي ضمن اهتمامها بالسرد العربي، ودراسات متخصصة تُعنى بدراسة مؤلفات التنوخي، وهي على النحو الآتي :

الدراسات العامة :

تقسم هذه الدراسات قسمين ؛ يدرس الأول الأخبار في مؤلفات التنوخي في إطـــار التأصيل للأشكال السردية التي ظهرت فيما بعد، لاسيما المقامة. ويتناول القسم الآخر التعريف بمؤلفات التنوخي ومحاولة تحليل الأخبار فيها.

لقـــد جاء الحديث عن مؤلفات التنوخي، لاسيما "الفرج بعد الشدة" تحديداً فـــي ســـياق اهـــتمام الباحثيـــن بالتأصيل للمقامة وتتبع نشأتها. فقد بيّن أ.ف.ل بيســـتون في مقالتـــه The Genesis of the Maqamat Genre :[٦٥] أن المقامـــات مرت بمراحل مختلفة إلى أن وصلت إلى ما هي عليه، وأن الهمذاني اســـتوحى مـــادة مقاماتـــه من مخزون الحكايات والنوادر التي كانـــت شائعـــة آنـــذاك[٦٦]، وأنـــه خضـــع لمؤثرات مختلفة في نطاق الأدب العربي والمجتمع العربي[٦٧].

فعلـــى سبيل المثال ؛ إن موضوعة الشخص المعدم، الذي يرتدي أسمالاً بالية، وينطوي على قدرات أدبية هائلة مدفونة، ويُكتشف في النهاية، أنه معجزة في الفصاحة والبلاغة ظهرت عند التنوخي في كتاب الفرج، كما في قصة "حائك الكـــلام"، التـــي تـــدور حول شخص معدم لاتنبيء ملامحه الخارجية، وملابسه الرثة، وفقره المدقع؛ نتيجة تعطله عن العمل، وتوالي المحن عليه، عن قدراتـــه الأدبـــيـــة[٦٨]. ومـــا أن يبدأ حديثه مع الراوي "عمرو بن مسعدة"، حتى يكتشف الأخـــير بعـــد سلســـلة مـــن الأســـئلة والأجوبة أن الفقير ليس إلا أحد الكتاب المشـــهورين، إلا أنه تعرض لظروف قاسية، فخرج يطلب تصرفاً لتأمين قوته وقـــوت عـــياله، وزاد الطيـــن بلة، أنه تعرض لقطاع الطرق، فتُرك هائماً على وجهـــه إلى أن التقاه عمرو بن مسعده مصادفة. ويمكن لدارس المقامات أن يجد أصـــداء قصـــص التنوخي فيها، من مثل ؛ التركيز على الجوانب الاجتماعية،

لاسيما السيء منها التي أفرزتها التعقيدات الاجتماعية في المدن العباسية الكبرى.

والملاحظ أن بيستون توصل إلى رأي -وهو يسعى لتأصيل المقامة- لم يسبق إليه، مفاداه أن الهمذاني استوحي قصص "الفرج بعد الشدة" للمحسّن التنوخي. وقد تكوّن لديه الرأي السابق بعد أن اهتدى إلى قصة "حائك الكلام"[٦٩]، وفصلها عن مجموع أخبار الفرج وعدّها مقامة في طور التكون. وعلى الرغم من مظاهر التشابه بين بطلي "حائك الكلام"، و "المقامة" من حيث المظهر الخارجي -الخادع- الدال على الفقر والمسكنة الذي يُخفي معجزة أدبية، إلا أن صاحب المقالة -لأنه قصر مقالته على نص واحد- لم يشر إلى أن كتاب "الفرج يقوم على تنوع الحدث واتحاد المغزى أو الهدف وهو زوال الشدة ومجيء الفرج، وهذه الثيمة تغاير ثيمة المقامات عموماً. أما عن وصف الحائك[٧٠] بصفات شبيهه بصفات بطل المقامة، فإن الراوي كان يريد من وراء ذلك بيان الحالة السيئة التي وصل إليها الكتاب في عصره، حين تحل بهم المحن؛ لأن الحائك كان يعاني فعلاً من البؤس والمسغبة، أما عن مقدرته الأدبية؛ فلأنه كان في واقعه ينتمي إلى فئة الكتّاب. أما بطل المقامة فهو يتمظهر بمظاهر مختلفة، يدّعي كل مرة وقوع الظلم عليه، وليس له من هدف إلا الكدية غاية نهائية. في النهاية لابد من أن نقّر للهمذاني بفضل النجاح في خلق شخصيتين رئيسيتين لهما دوران محددان، وخاصة في خلق بطل هو رمز لفئة اجتماعية كاملة، وذلك بفضل مجهود تأليفي جديد بالإطراء[٧١].

وقد استبعد بيستون في مقالته أصل المقامات[٧٢] ؛ The Genesis of the Maqamat Genere، ما ذكره زكي مبارك من أن "ابن دريد" المبدع الأول للمقامات. مُتابعاً في ذلك ما ذكره الرافعي، ولكي يؤكد رأيه السابق ورداً على الزوبعة التي آثارها زكي مبارك على صفحات المقتطف[٧٣]، فقد أثبت نص

"حائك الكلام" كاملاً من "الفرج بعد الشدة" وبيّن وجوه التشابه بينه وبين مقامات الهمذاني "وعلى الرغم من وجاهة بعض ما ذهب إليه بيستون، إلا أنه يصعب قبول مقولته الأخيرة؛ إذ يمكن أن نجد بعض أصول للمقامات، في أعمال مؤلفين عاشوا قبل التنوخي بزمن غير قليل، ومن ذلك، مثلاً، حكاية أبي زبيد الطائي عن الأسد التي يذكر ابن سلام (ت٢٣٢هـ) أن أبا زبيد حكاها للخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ولا حوار فيها، بل هي سرد يغلب عليه السجع، وهذه الحكاية ترد، مع بعض اختلاف، في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ. وتنتهي هناك بقطعة شعرية في أربعة أبيات"[٧٤].

وكانت فدوى مالطي دوجلاس قد عرضت رأي بيستون هذا الذي ورد في مقالته أصل المقامات، في الفصل الخامس من كتابها "بناء النص التراثي، دراسات في الأدب والتراجم". وترى أن حجة بيستون تعد مقنعة لأن القصة التي قام بتفحصها ربما كانت تحمل من جوانب التشابه بنمط المقامة الأكثر شيوعاً من أي قصة أخرى[٧٥]. كما ترى أنه ليس ثمة شك في أن بديع الزمان الهمذاني كان على وعي عميق بالكتابة في إطار تقليد أدبي عربي على درجة عالية من التطور، لاسيما ذلك الجزء من التقليد الذي يوصف بمادة الأدب، فقام بالتقاط المادة التي أخذها من كثير من السوابق الأدبية وأعاد صياغتها[٧٦]. وعلى الرغم من أنها لاتنكر تأثر الهمذاني بمن سبقه، إلا أنها تبين أن ما يميز المقامات عن الأشكال الأدبية السابقة عليها، هو الاستخدام الثابت للسجع، والتماثل الدقيق بين خطابها الأدبي وخطاب الرواية الخيالية؛ وتقوم على وصف المغامرة المستمرة للشخصيتين ذاتيهما. إضافة لكون المقامات تشكل في مجموعها كياناً متكاملاً[٧٧].

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدراسات ما ذكرته عزة غنّام من ظهور بذور القصص الفلسفي في أخبار "النشوار" وأخبار "الفرج". فعلى الرغم من انتماء هذه الأخـــبار إلـــى قصص العبرة والموعظة، إلا أنها تشير إلى نظرات فلسفية في الحياة، تطورت فيما بعد في نماذج من القصص الفلسفي(٧٨). أخيراً يمكن أن نعد فـــي هذا الإطار ما ذكره عبدالله إبراهيم، في كتابه "السردية العربية، بحث في البنـــية الســـردية للمـــوروث الحكائـــي العربي" عن الأثر الذي تركته الأخبار والحكايـــات الكثيرة التي صنفها التنوخي في الأخبار القصصية التي ظهرت بعد ذلك"(٧٩). وأسهمت في إشاعة مناخ قصصي جديد، تمثل بنماذج مهمة؛ لأنه قدم نمطاً متكرراً من الأخبار والحكايات التي خرجت عن البنية التقليدية للخبر التي شاعت قبله(٨٠). أما النوع الآخر من الدراسات العامة فيختلف عن النوع الأول، لأنـــه ينطلق من محاولة تحليل الخبر عند المحسِّن التنوخي ودراسته بوجه عام، دون محاولة تصنيفه وفق الأجناس الأدبية المعروفة. ومن أقدم الدراسات في هذا المجـــال ما ذكره "زكي مبارك" في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" مـــن تعـــريف بالكـــتاب وبأهم القضايا فيه، لاسيما ما جاء في مقدمة المحسِّن التنوخـــي للنشوار، ثم تناول فيه طريقته في تأليف الكتاب الذي سلك فيها مسلك الاستطراد الذي يعمل على تشويق القارئ، وينقله من حال إلى حال، بين الجد والهـــزل، والحلو والمر، وبعدها توقف عند أسلوب التنوخي في الكتابة، فأشار إلـــى مرونته في الكلام وتصرفه فيه، وإلى استخدامه للتعابير العامية، التي تعد وســـيلة لاثـــراء اللغـــة(٨١). وإلى جانب هذه نشير إلى ما ورد في كتاب "النثر الفنـــي وأثـــر الجـــاحظ فيه"، تأثر التنوخي بالجاحظ من حيث الوضع والتوليد والعناية بالموضوعات التي عالجها الجاحظ، ومن حيث العناية بالاستطراد وخلط الجد بالهزل والواقعية(٨٢).

أمـا كـتاب "سـرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط" لمحسن جاسم الموسوي، ففيه محاولة لدراسة كتاب النشوار في إطار السياق الثقافي الحضاري الـذي ظهر فيه، ومن خلال تفاعله مع المؤلفات، التي ظهرت في ذلك العصر، فقد احتفى كتاب القرن الرابع الهجري بتدوين المسموع والمنقول والمروي[٨٣]، ومـن بيـنهم المحسِّـن التنوخي، فعرض في نشواره لمختلف الأجناس، وبيّن الموسوي أهمية الخبر عنده وميزته في الخروج عن السنن المألوفة في صياغة الخبر، فالمرويات عنده لا تكتفي بالإخبار "وإنما تتعدى ذلك إلى تكوين فاعليين وأفعـال محتمليـن يـتحركون بيسر ما بين المدّون والمحكي وبين الواقع"[٨٤]. فحكايـة "النباشـة" مثلاً فيها طاقة سردية كامنة يمكن أن تتمدد سردياً مادامت تحتضن في داخلها أماكن مدنية مختلفة مثل القباب والمقابر ومنزل القاضي[٨٥]. ومـع هذا فإن الأخبار عنده تبقى جزءاً من كل، على الرغم من سعة مكوناتها وطاقاتهـا المخـتزلة "ليظهر لنا داخل (كلام حسن) هو بغية النشوار، ومبتغى صـاحبه"[٨٦]. هذه الأخبار أصبحت فيما بعد جزءاً من ألف ليلة وليلة، فجاءت مخـتلفة عن الأصل لتتوافق مع التوظيف الجديد لها من مثل حكاية الشاب الذي بـاع جاريته اضطراراً عند إفلاسه، فوجد نفسه مشغولاً بذكرها، باحثاً عنها في كـل مكـان، فـتطورت فيما بعد إلى حكاية شمس النهار وعلي بن بكـار في الليالي[٨٧].

وثمـة كتاب محمد القاضي "الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربـية"، الـذي تتـبع المراحل التي قطعها الخبر إلى منتصف القرن الرابع الهجري، واتخذ من الكتب التي عدها ابن خلدون في مقدمته "أصول الأدب" مادة للدراسـة وهي "البيان والتبيين" للجاحظ، و "أدب الكاتب"، لابن قتيبة، و"الكامل" للمبرد، و"النوادر" للقالي، وأضاف إليها كتاب الأغاني الذي جعله ميداناً للتطبيق، لأنـه كما يقول أكبر مدونة للأخبار في الأدب العربي[٨٨]، وقد ألفه صاحبه في

الـــربع الثاني من القرن الرابع الهجري، ولقد مدّ القاضي أسباب بحثه إلى كتب التنوخي التي صنفت بعد هذا التاريخ، بهدف التثبت من النتائج التي توصل إليها.

ودرس "القاضي" الخبر من ناحيتن ؛ تاريخية وإنشائية. في الأولى درس الخــبر فـــي السياق التاريخي الذي وجد فيه، وتتبع المراحل التي قطعها منذ أن كـــان الخـــبر يجـــري على الألسنة إلى أن دوّن فتناول ظروف نشأته، وقضايا الإسناد في طورها البدائي ثم تطورها إلى أن أصبح فيه الإسناد أداة فنية يتلاعب بها الإخباريون. فأشار مثلاً، إلى وظيفة الإسناد عند التنوخي وأهميته. وبين فيه تأرجح التنوخي بين إثبات الأسانيد وضبطها أو إهمالها وبالتصريح بأنه نسيها أو أغفل ذكرها(٨٩). ويرجّح محمد القاضي أن المحسِّن التنوخي كان يسقط الإسناد حين يكون الخبر شائعاً بين الناس، متداولاً في الكتب، ويهتم بالإسناد حين يكون الخــبر غريــباً، فيحــتاج إلـــى دعمه بالتعريف بالرواة، أو ذكر مكان السماع وتاريخه، أو تقديم معلومات تدل على سعة اطلاعه وطول باعه في العـــلم(٩٠).

وإذا كـــان المؤلف قد انتهى في الناحية الأولى إلى أن الإسناد أصبح أداة فنية يتلاعب بها الإخباريون، فإن هذا الأمر قاده إلى دراسة نسيج الأخبار ذاتها في الناحية الثانية. فدرس خصائص البنية السردية، انطلاقاً من العلاقات اللغوية التـــي يقـــوم علـــيها الـــنص، وبعدها درس المنطق الذي يحكم تسلسل الأخبار وتوالدهـــا. ودرس فـــي هذا السياق بنية الخبر فأشار إلى بنية الخبر في كتاب "الفـــرج بعد الشدة"، القائمة على ثنائية الطلب والتحقق، التي تبدأ عادة بتصوير الشدة التي يعاني منها شخص ما، وتنتهي بحصوله على مرغوبة، فهو يتعرض لامـــتحان ويـــؤول أمره إلى النجاح في تجاوز العقبات. وبذلك فإن هذه الأخبار تـــنطلق جميعاً من وضع أولي يتجسم في الانفصال بين الذات والموضوع، أي بيـــن الشخصـــية وبين المال، أو العقار، أو الصحة أو المجد، وتنتهي باتصال بينهما من جديد(٩١).

وعلـــى الرغم من جدة هذه الدراسة وشموليتها، فإن اختزال الحديث عن "الفـــرج بعد الشدة" إلى حديثٍ عن البنية التي ذكرها فيه إغفال للجوانب الأخرى التـــي تـــتوافر في أخبار الفرج. وكان المؤلف قد ذكر في بداية حديثه عن هذه البنية في كتب تراثية أخرى مثل "الكامل" للمبرد، و "البيان والتبيين" للجاحظ أن الأحـــداث السابقة على الطلب يمكن الاستغناء عنها، وأنها ثانوية(٩٢). ولو كان الأمـــر كذلـــك لتماثلـــت النصـــوص جميعها من حيث الطول والقصر، وذكر التفصـــيلات الدقيقة في الوصف والحوار، وذكر أسماء الشخصيات أو إغفالها، وانمحـــت الفـــوارق بين النصوص وبين المؤلفين أيضاً. ويمكن القول إن بنية الطلـــب والـــتحقق ليست البنية الوحيدة في أخبار الفرج، إذ يمكن للمرء أن يجد البنـــيات الأخرى فيه من مثل بنية اللغز(٩٣)، وبنية التحويل(٩٤)، اللتين تندرجان فيما يُسمى بالبنى البسيطة.

ويضـــاف إلـــى هذه البنيات حضور البنى المركبة التي لا تقتصر على التأليف بين النبى البسيطة، إنما القائمة على التضمين كما هو الحال في قصص "ألف ليلة وليلة" وهي تعني احتواء القصة قصة أخرى تمثل الأولى إطاراً للقصة الثانـــية، أو بمـــا يســـمى توالد النصوص، فتذكر قصة للبرهنة على سابقتها أو للبرهنة على فكرة وردت في قصة سابقة، من مثل؛ حكاية الشيخ الخياط وآذانه فـــي غير وقت الآذان(٩٥)، وحكاية "أسره الروم في أيام معاوية وأطلقوه في أيام عبدالملك"(٩٦).

الدراســـات المتخصصـــة :

لعـــل أهـــم مـــا يلحظ على هذه الدراسات، مدى التباين في المناهج التي طبقتها على مؤلفات التنوخي، وتقسم قسمين :

الأول: دراسة مؤلفات متعددة:

وهي أطروحة جامعية لنيل درجة الماجستير لم تنشر بعنوان "المحسّن بن علي التنوخي، حياته ودراسة تحليلية لأثاره". تناولت فيها المؤلفة بالدراسة فضلاً عـــن حياة المؤلف، كتبه الثلاثة؛ وهي دراسة مضمونية في الأول والأخير. ففي دراســـتها لكـــتاب النشوار مثلاً، توقفت عند تسعة مضامين تناولها المحسّن في كتابه تتعلق بطبائع البشر وأخلاقهم وسلوكهم من مثل؛ حديثه عن مكارم الأخلاق المـــتعددة مـــن كـــرم ووفـــاء وسخاء، وعن أضداد هذه المكارم من بخل وشح وخيانة...الخ(٩٧). ثم بدأت بتفصيل القول في كل مضمون على حدة، وكذلك كان شأنها مع مؤلفات التنوخي الأخرى. والملاحظ أنها تساوي بين نصوص النشوار المجموعـــة والنصوص الثابتة صحتها للمحسّن التنوخي؛ فتدرس الأجزاء التي جمعهـــا المحقق من بطون الكتب على قدم المساواة مع الأجزاء الثابت صحتها للتنوخـــي، ولاتعير اهتماماً لمآخذ الباحثين والنقاد على عمل المدقق. ولا تكتفي عند هذا الحد وإنما تبني عليه أحكاماً عامة وتقويل النصوص مالم تقل من مثل الخـــبر الـــذي يـــدور حول القرية الفضية لدى المقتدر؛ وتضم كل ما يكون في القرى من بقر وغنم وجمال وجواميس وأشجار ونبات ومساحٍ وناس مصنـــوع من فضة(٩٨). فتتخذ من هذا الصنيع الدال على الترف دليلاً على ضعف المقتدر وتســـلط الأتـــراك، وعلـــى رغبته في تأييد من الشعب والرعية فتقول ؛ ولعل المقـــتدر طلـــب صنع مثل هذه القرية؛ لأنه كان كالمحبوس بين جدران قصره بســـبب سيطرة الأتراك، ولعله أراد أيضاً أن يشير إلى رغبة الخليفة في التأييد مـــن الشعب والرعية"(٩٩). ويمكن أن نشير إلى مثال آخر من تقويلها للنصوص

مالم تقل وهو حديثها عن قسوة المعتضد في معاقبته للخصوم، وتجاوزه بالعقاب الذي لا يقره الدين وهو حرق الناس أحياء مما أدى إلى خراب المدينة أي بغداد -كما تقول- وضعف الحكم فيها[١٠٠]، وتحتج لهذا الرأي بقول التنوخي"ثم تبع ذلك بسنين خراب المدينة أولاً بأول، حتى بلغت ما هي عليه"[١٠١]. إن النص الذي أشارت إليه لا يحمّل المعتضد مسؤولية حرق المدينة ولا خرابها، فالخبر يتحدث عن تعذيب أحد الخصوم بالحرق بتهمة التآمر على الخلافة، فأراد المعتضد أن يهدم سور المدينة، فلم يهدم إلا جزءاً يسيراً، ولكن السور تعرض إلى هدم كامل في عهد المقتدر كما أشار الخبر في النهاية[١٠٢]. ويضاف إلى ما سبق الخلط في المصطلحات وعدم وضوح دلالتها من مثل حديثها عن كتب المحسّن التنوخي التي تنتمي إلى الأدب الشعبي، فتقول "إن كتب التنوخي في المقام الأول، كتب أدب شعبي، حتى ما جاء فيها مما يتعلق بالخلفاء والوزراء، إنما وقع بينهم وبين أحد أفراد الشعب واحتوت كتب التنوخي على عدد كبير من القصص التي تكشف عن أحوال الشعب العربي منذ جاهليته حتى وقته"[١٠٣]. وليس هذا هو المفهوم الوحيد للأدب الشعبي[١٠٤]. يضاف إلى ما سلف أن مفهوم الشعب العربي لم يكن معروفاً آنذاك. أما عن أسلوب التنوخي فتقول مثلاً إن القاضي المحسّن متمكن من اللغة قابض بقلمه على ناصيتها، يطوع مفرداتها وألفاظها لأفكاره وآرائه، ويتناولها بيسر وسهولة بقلم سيال[١٠٥]، وتورد مثالاً على ذلك من كتاب تهنئة لأبي تغلب. والملاحظ أن ما أوردته من كتاب تهنئة ليس للمحسّن التنوخي إنما لأبي محمد علي بن محمد بن فهد في تهنئته لأبي تغلب[١٠٦]. وتقول في موضع آخر عن لغة المحسّن إن لغته سهلة منقادة وعباراته بسيطة وقوية ومؤثرة[١٠٧]، فكيف يمكن أن نقيس قوة هذه العبارات أو ضعفها، وما معنى سهولة اللغة وانقيادها، حين يوصف به الأسلوب.

الآخر : دراسة عمل مفرد :

أقـدم هذه الدراسات، دراسة بدري محمد فهد "القاضي التنوخي وكتاب النشـوار"[١٠٨]. وهدفهـا الـتعريف بالمؤلف والكتاب وظروف تأليفه والإشارة باقتضـاب إلـى مظاهر الحياة الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإدارية، والسياسـية ووضـع فهـارس عامة للنشوار في نهاية الكتاب، أولها : فهرس للأعـلام من الخاصة، ويضم : الخلفاء، والوزراء، والقضاة، وثانيهما : فهرس للأمـم والقـبائل والنحل، وثالثهما : فهرس للأماكن والبلدان، ورابعهما: لألفاظ الحضـارة، وهـو أطولها. وأخيراً : فهرس للأشعار. ويمكن القول إن دراسة البدري أقرب إلى التأليف في تاريخ الأدب وتحقيقه منها إلى التحليل.

ثـم دراسـة فلشتينسـكي "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" للتنوخي كـنموذج للحكايـة العربية في القرون الوسطى[١٠٩]. التي أشار فيها إلى أهمية الكتاب في تاريخ النثر العربي؛ لأنه "خلاصة وزبدة لأفكار معاصريه وأحاديثهم، وما كان مدعاة أفراحهم وأتراحهم"[١١٠]. بعدها تناول طريقة التنوخي في ترتيب المـرويات ويـرى صاحب المقالة أن الكتاب "عبارة عن تيار غير منتظم من الحكايـات غـير الموصولة بنظام على أية حال لا من حيث الموضوع ولا من حيـث خاتمـتها الأخلاقية أو عبرتها وعظتها"[١١١]. ويضيف أنه يمكن العثور أحياناً على عناصر من الترتيب والتبويب، إلا أنها "حصيلة تداعي التفكير وليس نتـيجة محاولـة واعية لتبويب المواد في نظـام ترتيـبي"[١١٢]. وسيتولى هذا البحث تقصّي هذه الظاهرة فيما بعد. أما عن أسلوب المحسّن التنوخي فيرى أنه اتسـم بالبساطة؛ فهو يولي اهتماماً بالأحداث ولا يتملكه شغف خاص بالكلمة أو العبارة كما هي الحال لدى معاصريه من أمثال : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديـع الـزمان الهمذانـي[١١٣]؛ لأنـه كـان يحرص على البعد التعليمـي الأخـلاقي[١١٤]. فاستطاع أن يرسم لنا المجتمع العربي-الإسلامي في القرون

الوسـطى ومعيشـته وسلوكه وبنيته الاجتماعية وسيكولوجيته[١١٥]. وليس هذا فحسـب وإنما أتاح الفرصة والإمكانية لفهم دائرة تصورات المسلم المتعلم لذلك الزمـن[١١٦].

ثـم دراسـة مـي يوسـف "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخـي[١١٧]. التـي حاولـت فيها استعراض مادة الكتاب لفهم موقف المؤلف السياسـي والفكـري والاجتماعي من أبناء عصره، ثم التعرض للمادة الحكائية فـيها... وتحليلها لكشف منهجه والتعرف على شخصيته التي يمكن استقراؤها وتلمس ملامحها النفسية"[١١٨]. وخلصت الباحثة على أهمية المال والجاه والسلطة عـند التنوخي وهذه الاهتمامات لا تتعدى -عادة- طبقة الأغنياء أو طبقة علية القـوم في مجتمع تلك الحقبة. فكان القاضي "أرستقراطي الطبقة والفكر والميل والسـلوك فـي كتابه موضوع الدراسة"[١١٩]. وحجتها فيما ذهبت إليه أنه أورد أخـباراً تـتحدث عن الكرم لاسيما كرم البرامكة في مفتتح النشوار، وأنه ألف كـتاب المسـتجاد الذي يدور على المال والسلطة والجاه، وكذا الأمر في كتاب الفرج حيث يؤدي المال دوره في التخفيف من الأزمات والشدائد. مع أن حديث المحسّـن -كمـا أظـن- عن الكرم في النشوار جاء في معرض الموازنة بين الماضـي والحاضر ليدل من خلاله على غياب الكرم في عصره[١٢٠]. أما عن أهمـية دور المال في التخفيف من الأزمات -كما أظهرته الأخبار- فإن السبب يعود إلى أنه عاش في عصر عانى الكثير من الثورات بسبب الفقر والضرائب والمصـادرات، فكانـت هذه الأسباب كافية لإعلاء دور المال وأهميته. ويتضح حسـه الأرستقراطي -كما تشير الباحثة- في فصله الواضح بين الطبقات ليس علـى سبيل التعامل الفوقي مع الطبقات الدنيا، اجتماعياً وثقافياً ووظيفياً فحسب، بـل حـتى فـي الإسـناد[١٢١]. فنلحظ "احتقاره للعوام والمتخلفين (حضاريا)، وخاصـة الأميـين ... فكأني به، وهو لا يأتي على ذكر الحروب على الثغور، كان يقصد حرباً ضد الجهل وغير المثقفين"[١٢٢]. ويترفع عن ذكر الرواة لبعض

مروياته، ممن امتهن مهناً حقيرة[١٢٣]. وتحيل على بعض الأخبار. والملاحظ أن الأخبار المشار إليها[١٢٤] جاءت على سبيل الظرف والتندر؛ قد لا تتطلب إسناداً موثقاً للإيحاء بصدق ما يرويه[١٢٥]، لا سيما "أن المحسِّن كان يسقط الإسناد حين يكــون الخــبر شائعاً بين الناس، متداولاً في الكتب، ويهتم بالإسناد حين يكون الخبر غريباً، فيحتاج إلى دعمه بالرواة، أو ذكر مكان السماع وتاريخه"[١٢٦]، أما عــن احــتقار المحسِّن العوام، المشار إليه في بحثها، فلا أظن أن ما ذكرته يعد احتقاراً؛ لأنه كان يشير إلى بعض من معتقدات العامة وعاداتهم[١٢٧].

ولعــل ما ذكرته وداد القاضي عن نظرة التوحيدي إلى العامة ،يفسر لنا نظــرته إلــيها، تقــول : "إن ثقافة أبي حيان قد رفعته من صفوف العامة إلى صــفوف العلماء، فإذا تصدى لذكر العامة أنحى عليهم بالجهل، وهو في هذا لا يشذ عن بقية رفاقه من المثقفين والعلماء... وهذا لا يمنع أبا حيان من الاهتمام الاجتماعي بهم، فهو يسجل معتقداتهم، وما يسمعه من أمثالهم، ويحاول أن ينقل شيئاً من حياة السوق كما تبدو في حوارهــــم"[١٢٨].

وثمــة دراستان لكتاب الفرج بعد الشدة الأولى "الفرج بعد الشدة للقاضي أبــي علي المحسِّن علي التنوخي"[١٢٩] لمحمد حسن عبدالله، وهي دراسة مطولة للكتاب، اتبع فيه المؤلف المنهج التاريخي في دراسة نصوص الفرج دونما إغفال الجانب الفني. فتحدث عن المحسِّن التنوخي وظروف نشأته، وتأثير العصر عليه وعلــى الكــتاب. وبعدهــا انتقل للحديث عن كيفية توارد النصوص في الفرج، وتحدث عن البناء الفني للقصة التراثية. وذيل كتابه بمختارات من قصص كتاب الفــرج وأخــباره وصنّفها في قصص فنية وقصص اجتماعية وقصص شعبية، وقصــص سياســية، وقصــص وعظــية، دون بيان للأساس الذي اعتمده في التصــنيف. فما معيار الفن الذي ارتضاه، حين يقول ؛ قصة فنية ؟ ألا يمكن أن يحــدث تداخلاً بين تصنيفين؟ ألا يمكن أن تكون القصة اجتماعية وفنية في آن؟

وكــذا الأمــر بالنسبة للعنوانات التي وضعها للقصص حين وضع عنواناً واحداً لخبريــن مختلفيــن من مثل سيكولوجية المواجهة(١٣٠)! وعلى الرغم من أهمية الجوانــب التي توقف عندها، إلا أن إلحاحه على تطبيق معايير القصة القصيرة على نصوص المحسِّن أوقعه في الخلط والتناقض. فالتنوخي كان فناناً وحسب، كما يقول صاحب الدراسة، ولم يكن فقيهاً يبحث في الحلال والحرام، وما يجوز وما لا يجوز، وكانت الحاسة الفنية هي الموجهة لــه في التقاط الحوادث النادرة وتســجيل الحــوار واصطياد الحل المفاجئ غير المتوقع، دون أن يشغل نفسه بإصــدار الأحكــام الأخلاقــية"(١٣١). وعلى الرغم من إلحاحه السابق على فنية الأخبار ودور الفنان المؤلف، إلا أنه يطالبه في موضع آخر بالصدق والاحتكام إلــى المبادئ الدينية وتحري الصدق في وسيلة الخلاص من المحنة التي وقعت على صاحب القصة، وهكذا(١٣٢).

والأخــرى "القــص فــي أخبار الفرج بعد الشدة" لبشير الوسلاتي(١٣٣). وتخــتلف هذه الدراسة عما سبقها من دراسات، لأن صاحبها، كما يقول، حاول الاستفادة من نظريات النقد القصصي الحديث في حدود ما يتسع له النص ذاته، دون تناسٍ لطبيعة الخطاب النثري القديم. لقد درس في البداية منهج المؤلف وما يتســم به كتابه من سمات القص وجماليات السرد. فدفعته هذه السمة إلى تحليل الأخبار دون محاولة لتصنيفها وفق جنس أدبي محدد. فدرس تجليات الأشخاص فــيه، لأن الخــبر فــي مجمــل الكتاب يتأسس على الأشخاص المبتلين بمحن يفــتــرض مآلهــا إلــى انفراج(١٣٤)، وتجليات الأحداث، وخصوصية البناء الداخلي، لتقصي جمالية الظاهرة القصصية في كتاب المحسِّن التنوخي، مع بيان حضور الكاتب فيما كتب. وقد نجح المؤلف في مسعاه، دون أن يقع في التطبيق الجاهز لنظريات القصــــة الحديثة. وخلص في نهاية المقال إلى "أن المحسِّن

التنوخي ساهم مساهمة جلية في إثراء فن الخبر في عصره. والكتاب بهذه البنية المخصوصـــة يعتبر إضافة لا يمكن إهمالها ونموذجاً واضحاً لهذا الفن المتأصل والعـــريق في الثقافة العربية، وخير دليل على مدى اهتمام العرب به وإنشغالهم بتدوينه"(١٣٥).

الهوامش

١-أعيد طبعه غير مرة، وأشهر الطبعات الطبعة المحققة التي أنجزها عبود الشالجي عام ١٩٧٨م، عن دار صادر، بيروت،ثم ظهرت ثانية عام ١٩٩٢م، عن دار النشر نفسها.

٢- القاضي التنوخي وكتاب النشوار بدري محمد فهد، ص ٤٣، ورحلة كتاب: نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد، شكري فيصل، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٤٨/ج١٩٧٣/٢، ص ٢٨١؛ ونشوار المحاضرة، المحسِّن التنوخي، (تح ؛ عبود الشالجي، مقدمة المحقق، ١:٦-٥، هامش (٧)).

٣- مجلة المجمع العلمي بدمشق، (مج ١٢، ١٣، ١٧) عام ١٩٣٢ و ١٩٤٢

٤- (١٩٣٢)، Islamic Culture ،Vol،111 (1929) and Vol ،V1

والقاضي التنوخي وكتاب النشوار ص ٤٣.

٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة ؛ عبدالحليم النجار، ١٤٧:٣

٦- مج١/ ١٩٣٠.

٧- القاضي التنوخي وكتاب النشوار ص ٤٣، و "رحلة كتاب ؛ نشوار المحاضرة...". مرجع سابق، مج٤٨/ج١٩٧٣/٢، ص ٢٨٢.

٨- أعادت دار صادر اللبنانية نشره ، بإذن من المجمع العلمي بدمشق،١٩٩١م.

٩- كان جاهزاً للطبع عام ١٩٥٢، إلا أنه نُشر بعد مرور ٨٥ سنة على إنشاء دار العرب. ونسبه المحقق إلى أبي القاسم علي بن المحسِّن التنوخي.

١٠-النشوار مقدمة المحقق ١: ٦-٧.

١١- نفسه مقدمة المحقق ١:٨.

١٢-جاء في مقدمة المحقق : "أورد الناقلون اسم المؤلف على أشكال مختلفة؛"التنوخي، المحسّن، أبو علي التنوخي، المحسّن بن علي التنوخي، أبو علي البصري، وفي بعضها كانت الرواية عن : علي بن المحسّن عن أبيه، كما أن كثيراً من القصص نقلت عن الابن، أبي القاسم، وأغفل ذكر اسم الأب، وقد ورد اسم الابن بأشكال مختلفة : أبو القاسم، أبو القاسم التنوخي، أبو القاسم بن المحسّن، علي بن المحسّن، علي بن المحسّن التنوخي، علي بن المحسّن القاضي ،علي ابن أبي علي، علي بن أبي علي البصري، علي بن أبي علي البغدادي، علي بن أبي علي القاضي علي بن أبي المعدل، علي بن أبي علي التنوخي"، هامش ١١، ص ٩.

١٣-من المهم أن يشار إلى أن المحقق نفسه أخذ على محمد كرد علي محقق "المستجاد"، أنه أورد بعض الأخبار على لسان التنوخي الابن (النشوار مقدمة المحقق ١: ٣٢).

١٤-نفسه ١: ٨-١٠.

١٥-من مثل "نظرات في نشوار المحاضرة"، إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج٣١/ج٤/١٩٨٠، ص ٣٩٥-٤٢٧. و "مع كتاب الفرج بعد الشدة"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، (ع ٩-١٠، ١٩٨٠، ص ١٩٤-٢٢٠).

١٦-مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٤٨/ج٢/١٩٧٣، ص ٢٨١.

١٧-تفسير الألفاظ العباسية، مجلة المجمع العلمي العربي (مج٢/١٩٢٢، ص ٢٨٩-٢٩٦، ٣٢١-٣٢٨).

١٨-طاقة أزهار من كتاب النشوار مجلة المجمع العلمي العربي (مج٤/١٩٢٤، ص ٢٧-٣١، ٦٠-٦٣، ١١٧-١٢١).

١٩-رحلة كتاب ؛نشوار المحاضرة.. مرجع سابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

٢٠-نفسه ص ٢٧٩-٢٨١.

٢١-نفسه ص ٢٨١-٢٨٢.

٢٢-نفسه ص ٢٨٥.

٢٣-نفسه، ص ٢٨٥-٢٨٦.

٢٤-نفسه، ص ٢٨٨-٢٩٠.

٢٥-نفسه، ص ٢٨٧-٢٨٩.

٢٦-نفسه، ص ٢٨٩.

٢٧-مج١٢/ج٥، ٦/١٩٣٢، هامش رقم (١)، ص ٣٦٧. وأشار شكري فيصل في مقالته السابقة إلى النص السابق، ص ٢٩١-٢٩٢.

٢٨-رحلة كتاب ؛ نشوار المحاضرة، مرجع سابق، ص ٢٩٤-٢٩٥.

٢٩-نفسه، ص ٢٩٥.

٣٠-نفسه، ص ٢٨٦.

٣١- نفسه، ص ٢٩٦.

٣٢- نفسه ، ص ٢٩٤-٢٩٥

٣٣-نفسه، ص ٢٩٦-٢٩٧.

٣٤-نشــوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي أبي علي المحسِّن التنوخي، تحقيق؛ عبود الشالجي، تعريف ونقد ؛ محمد عبدالغني حسن، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٣٨/١٩٧٦، ص ١٥٢.

٣٥-نشوار المحاضرة، مرجع سابق، ص ١٥٣.

٣٦-نفسه، ص ١٥٣.

٣٧- نشــوار المحاضرة...، محمد عبدالغني حســن، مرجــع ســابــق، ص ١٥٢-١٥٣، ص ١٥٢-١٥٣، ورد فــي المقالــة "... كــتاب أغلبه ضائع"، والصحيح ما ذكر أعلاه.

٣٨-رحلة كتاب ؛ نشوار المحاضرة...، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

٣٩- نفسه، ص ٢٩٧.

٤٠-نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة...، مرجع سابق، ص ١٥٣.

٤١- انظــر هــذه الأمــثلة فــي الجزء الرابع من النشوار وهو أول الأجزاء المجموعة، وفيه ينقل عن معجم الأدباء، طبعة مرّجليوث (١٩٢٤-١٩٢٠) الأخــبار الــواردة عــن التنوخــي فــي هذه الصفحــات، معجــم الأدبــــــاء١: ٧٤-٧٦، ٧٦-٧٨، ٨٢-٨٧، ٨٧-٩١، ٢٣٢-٢٩٢،٢٣٣-٢٩٥،٢٩٣؛ ٢: ٧٩-٨٠؛ ٣: ١٠، ١٩٧-١٩٨،وأغفــل المحقق خبراً روي عن التنوخي في هذا الجزء ٥٤-٥٦؛٤ : ١٥٥-١٥٦، ١١٤، ١٥٦، ١٦٦، ١٦٨،٢٧٦، ٢٨٠-٢٨٢، ٣٢٣، ٣٤٠، ٣٤٥، ٤٦٧ ؛ ٥: ١١٤، ١٥٥-١٥٦، ١٦٦، ١٦٨، ٢٧٥-٢٧٦، ٣٢٣، ٣٤٠، ٣٤٥، ٤٦٧. وازن مع النشــوار في الصفحات الآتيــة ٤: ١١-٣٩، ٤٠-٤١، ٤٣-٥٣، ٥٤-٦٧؛ ٥: ١٥٥،١٤٤-١٦٨،١٦٦،١٥٦، ٢٧٥-٢٧٦، ٣٢٣، ٣٤٠، ٤٦٧،٤٤٥،وعلــي بن أبي علي المعدل؛ كما يرى المحقق،

واحد من الأسماء المختلفة للتنوخي التي وردت في المؤلفات اللاحقة. (انظر ؛ مقدمة المحقق، هامش (١) ١: ٩).

٤٢- النشوار ٦: ٩٦-١٠٠، وازن بتاريخ بغداد ٨: ٢٥٢-٢٥٤؛ وعلي بن أبي علي المعدل، كما يرى المحقق، واحد من الأسماء المختلفة للتنوخي التي وردت في المؤلفات اللاحقة (انظر: مقدمة المحقق، هامش (١)١:٩).

٤٣-العنوانات المذكورة في كتاب النشوار كلها من صنع المحقق.

٤٤-النشوار ٥: ١٣٥-١٣٦؛ وذم الهوى، ص ٤٦٤-٤٦٥.

٤٥-نفسه ٥: ١٤٠-١٤١؛ وذم الهوى، ص ٤٧٤.

٤٦-نفسه ٥: ١٤٨-١٥٠؛ وذم الهوى، ص ٤٧٧-٤٧٩.

٤٧-الفرج بعد الشدة، تحقيق ؛ عبود الشالجي، ٣: ٦١-٦٦. أشار المحقق في هوامش النشوار أن القصة وردت في كتاب "الفرج بعد الشدة" للقاضي التنوخي، في المخطوطة الظاهرية ولكنه نقل من كتاب "ذم الهوى".انظر النشوار (هامش(١)، ٥:١٣٦)،(هامش(١)،٥:١٤١)،و(هامش(٢)، ٥:١٥٠). وأشار فيما بعد أن هذه القصة لم ترد في غ، ولا هـ، وفي م اعتبرت هذه القصة الباب السابع. انظر ؛ الفرج بعد الشدة، تحقيق ؛ عبود الشالجي (هامش (١٤)، ٣: ٦٦). وهو يرمز بـ "غ" مخطوطة الاسكرريال و (هـ) النسخة التي طبعتها دار الهلال، وأما "م" فهي مخطوطة دار الكتب المصرية، وهذه الأخيرة كانت معروفة للمحقق حين حقق النشوار لاسيما أنه ذكرها في فهرس الكتب والمراجع (النشوار ٥: ٣٣٨).

٤٨-الفرج ٣: ٦٦.

٤٩-انظر : النص كاملاً في الفرج ٣: ٦١-٦٦.

٥٠-ذم الهوى، ص ٤٦١-٤٦٨، ٤٦٩-٤٨٠.

٥١-السرد في مقامات الهمذاني، ص ١٣.

٥٢-الخبر في الأدب العربي، محمد القاضي، ص ٦٨٩.

٥٣-نفسه، ص ٣٣٣.

٥٤-كتاب الوزراء وهو من تأليف محمد ابن داود بن الجراح الذي وزر لعبدالله بن المعتز في يومي خلافته (قتل عام ٢٩٦هـ). (انظر الفهرست، للنديم، ص ٢٠٧؛ وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة ١:٢٠).

٥٥-الفرج ٢:٢٦٤.

٥٦-النشوار ١:١٧٨.

٥٧-نفسه ١: ١٧٨-١٨٣.

٥٨-الفرج ٢: ٣٨٢-٣٨٦.

٥٩-نفسه ٢: ٣٨٢.

٦٠-الحيوان ٢: ١٢٢-١٢٣.

٦١-تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص ٩٢.

٦٢-الخبر في الأدب العربي، ص ٣٣٣.

٦٣-مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٥/ج١/١٩٧٥، ص ٥٢٨-٥٥١

٦٤-المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، ع ٢٣/١٩٩٠، ص ٩٧-١٠١.

٦٥- The Genesis of the Maqamat Genre، A.F.L. Beeston، In Journal of Arabic Literature، Vol : 11، 1971، pp. 1-12.

٦٦-مقدمة لقراءة بديع الزمان الهمذاني، خليل أبو رحمة، مجلة أبحاث اليرموك، مج١٣/ع٢/١٩٩٥، ص ٢٤٧.

٦٧-فصل مقامة، دائرة المعارف الإسلامية، كارل بروكلمان، ت؛ حسناء الطرابلسي، بوزويته، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع ٦٢، ١٩٩١، ص ٤٤.

٦٨-انظر أيضاً؛ اضافة لمقالة بيستون السابقة؛

Al-Hamadhani، Al-Hariri And the Maqamat Genre، A.F.L. Beeston، in Abbasid Bell، Letters (The Cambridge History of Arabic Literature) ، Cambridge، 1990، p. 130.

٦٩-الفرج ٣: ٣٠٦-٣١٣.

٧٠-من المهم أن يشار أن شخصية الحائك تكرر ذكرها في غير خبر، فقد وصف أحد الكتاب نفسه في واحد منها "بأنه حائك الكلام".الفرج ٣: ٣١٢؛ النشوار ١: ٦٦-٦٧، ٣١٢-٣١٨، ٣: ٨٨-٩٠.

٧١-فصل مقامة، دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٥.

٧٢- The Genesis of the Maqamat Genere، A.F.L. Beeston، in Journal of Arabic Literature ، Vol؛ 11، 1971، pp. 1-12.

٧٣-إصلاح خطأ قديم مرت عليه قرون في نشأة المقامات، زكي مبارك، المقتطف، إبريل، مج ٧٦/ج٤/١٩٣٠؛ وأحاديث ابن دريد، زكي مبارك، المقتطف، مايو، مج٧٦/ج٥، ص ٥٦١-٥٦٤. ردّ عليه مصطفى صادق الرافعي في مقالة سماها "خطأ في إصلاح خطأ، حول نشأة فن المقامات"، المقتطف، مايو، مج٧٦/ج٥/١٩٣٠، ٥٨٨-٥٩٠؛ وكتب زكي مبارك مقالة رداً على ما كتبه الرافعي "حول نشأة فن المقامات، ردّ على ردّ"،

المقتطف، يونيو، مج٧٧/ج١/١٩٣٠، ص ٨٠-٨٢؛ وكتب الرافعي أخيراً "حـــول نشأة المقامات"، المقتطف، يوليو، مج٧٧/ج٢/١٩٣٠، ص ٢١١؛ وانظر أيضاً النثر الفني في القرن الرابع الهجـــري، زكي مـبـــارك، ١: ٢٤٢-٢٤٧.

٧٤-مقدمـــة لقراءة بديع الزمان الهمذاني، مرجع سابق، ص ٢٤٧-٢٤٨. من المهم أن يشار أن هذا البحث ذكر أهم الدراسات التي عنيت بقضية أصول المقامـــات، نذكر منها مقالة بيستون "أصل المقامات"، والكتاب الذي أفرده إبراهـــيم السعافين لأصول المقامات. انظر بالتفصيل ص ٢٤٦-٢٥٠ من البحث نفسه.

٧٥-بناء النص التراثي، ص ١٠١.

٧٦-نفسه، ص ١٠١-١٠٢.

٧٧-نفسه، ص ١٠٣.

٧٨-الفن القصصي العربي القديم، عزة غنّام، ص ١٣٦-١٣٩.

٧٩-السردية العربية، عبدالله إبراهيم، ص ١٧٨.

٨٠-نفسه، ص ١٧٧.

٨١-النـــثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك،١: ٣٨٨-٤١٥، من المهـــم أن يشـــار أن زكي مبارك قصر حديثه في كتابه هذا على الجزء الأول من النشوار الذي نشره مرّجليوث. ويمكن أن ندخل في هذا الإطار مـــا كتـــبه عمـــر فروخ وجورجي زيدان من تعريف بالمحسّن التنوخي وبكتبه. انظر ؛ تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص ٥٤٨-٥٥٤؛ وتاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، ٢: ٢٨٥-٢٨٦.

٨٢-النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبدالحكيم بلبع، ص ٢٠٩-٣٢١.

٨٣-سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٧-٢١.

٨٤-نفسه، ص ٢٣.

٨٥- نفسه، ص ٢٤.

٨٦- نفسه، ص ٢١، ٢٣.

٨٧-نفسه، ص ٢٢. انظر حكاية الشاب الذي فارق جاريته في الفرج ٤: ٣١٦ -٣٢٧، ووردت في نصوص النشوار المجموعة ٥: ٢٧٤-٢٨٣، وازن مع ألف ليلة وليلة، المكتبة الثقافية، بيروت،١٩٩٧،٢: ٧٢-١٠٨. وانظر أيضاً؛ حكاية التاجر الذي أقسم أن يغسل يده أربعين مرة، الفرج ٤: ٣٥٨-٣٦٩، ووردت في نصوص النشوار المجموعة ٤: ١٧٧-١٩٠ ، ووازن مع ألف ليلة وليلة، مرجع سابق، ١: ١٥٥-١٦٠، مع الإشارة إلى أن الموسوي درسها من النصوص المجموعة.

٨٨-الخبر في الأدب العربي، ص ٨.

٨٩-نفسه، ص ٢٩٨.

٩٠-نفسه، ص ٢٩٩-٣٠٠.

٩١-نفسه، ص ٣٥٩.

٩٢-نفسه، ص ٣٥٩.

٩٣-انظر مثلاً الفرج ٤: ٣٧٨-٣٨٢، والخبر بعنوان "ما ثمانية وأربعة واثنان". لمزيد من التفصيل حول هذه البنية، انظر : الخبر في الأدب العربي، ص ٣٦١.

٩٤-الفـرج ٣: ٢٣٠-٢٣٢. وهـو بعـنوان "بين أحمد بن أبي خالد وصالح الأضـخم". لمـزيد من التفصيل حول هذه البنية، انظر؛ الخبر في الأدب العربي، ص ٣٦٠.

٩٥-الفرج ٢: ٣٨٩-٣٩٥.

٩٦-نفسه ٢: ١٩١-٢٠٥؛ وانظر أيضاً ؛ قصة الأخوين عاد وشداد الفرج ٤؛ ٢٥٩-٢٦٣، والصـريفيني الكاتـب، يعلـم العمال حسن التصـرف، الفـرج ٢: ٧٦-٨٤.

٩٧-المحسِّن بن علي التنوخي، حياته ودراسة تحليلية لآثاره، سلوى عبدالفتاح عثمان، إشراف محمود إبراهيم، ص ٣٤-٣٥.

٩٨-النشوار ٤: ١٤٩، وهو من الأخبار المجموعة.

٩٩-المحسِّن بن علي التنوخي، دراسة تحليلية لآثاره، مرجع سابق، ص ٣٩.

١٠٠-نفسه، ص ٣٦.

١٠١- النشوار ١:١٤٦.

١٠٢-نفسه ١: ١٤٦.

١٠٣- المحسِّن بن علي التنوخي، ص ١٥٨.

١٠٤- انظـر؛ معجم المصطلحات العربية المعاصرة، سعيد علوش، ص ٣٣؛ والأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، ص ١٤-١٥.

١٠٥- المحسِّن بن علي التنوخي، ص ٤٢.

١٠٦- النشوار ٢: ٢٦٢.

١٠٧- المحسِّن بن علي التنوخي، ص ١٥٣.

١٠٨–نشرت هذه الدراسة قبل أن يحقق كتاب النشوار ويصدر في كتاب.

١٠٩–ضـــمن كتاب "بحوث سوفييتية جديدة في الأدب العربي"، ترجمة؛ محمد الطيار، دار رادوغا، ١٩٨٦.

١١٠–نفسه، ص ٦١.

١١١–نفسه، ص ٥٤.

١١٢–نفسه، ص ٥٤.

١١٣–نفسه، ص ٥٧.

١١٤–نفسه، ص ٥٢.

١١٥–نفسه، ص ٦١.

١١٦–نفسه، ص ٦١.

١١٧–مجلة أبحاث اليرموك، مج١٧/ع٢/١٩٩٩، ص ٩–٤٣.

١١٨– نفسه، ص ٩.

١١٩– نشوار المحاضرة...، مي يوسف، مرجع سابق، ص ١٧.

١٢٠– النشوار ١: ١٥–١٦، ١٧، ١٨، ٢٢.

١٢١– نشوار المحاضرة...، مي يوسف، ص ١٧.

١٢٢– نفسه، ص ١٧.

١٢٣– نشوار المحاضرة ... ،مي يوسف ،ص١٧

١٢٤– النشوار ١: ١٠١،١٠٠–١٠٢، ١٧٤، ١٧٥–١٧٦، ٣٠٤، ٣٠٥.

١٢٥- يشـــير الجاحظ مثلاً أن كتاب البخلاء يضم "أحاديث كثيرة متى أطلعنا مـــنها حرفاً عرف أصحابها، وإن لم نُسمِهم، ولم نرد ذلك بهم. وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل، وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم ... وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها؛ إما بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم"، البخلاء، ص ٣٢.

١٢٦- الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

١٢٧- انظـــر النشوار مثلاً؛ ٢: ٩٠-٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٦١-١٦٢، ٢٠٢؛ ٣: ٣٠، ٣٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٩٩، ٢٠٢.

١٢٨- مجتمع القرن الرابع في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، رسالة مخطوطة، ١٩٦٩، ص ١٠٢-١٠٣. أشـــار المحسّـــن إلى بعض معتقدات العامة وعـــاداتهم. انظر مثلاً ؛ النشوار ١: ٩٠-٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٦١-١٦٢، ٢٠٢.

١٢٩- هـــذا الكتاب في الأساس مقالة نشرت بعنوان "الفرج بعد الشدة للقاضي أبـــي علي المحسّن علي التنوخي، دراسة فنية تحليلية"، في مجلة عالم الفكر، (مج ١٤/ع٢/١٩٨٢، ص ٣٥٩-٤١٤).

١٣٠- الفـــرج بعد الشدة، محمد حسن عبدالله، ص ١٤٤-١٤٥، ١٧٨-١٧٩، الاقتباس من الكتاب المنشور.

١٣١- نفسه، ص ٣٧.

١٣٢- نفسه، ص ٤٠، ٤١-٤٢.

١٣٣- القــص في أخبار الفرج بعد الشدة، البشير الوسلاتي، حوليات الجامعة التونسية، ع ١٩٩٧/٤١، ص ٩١-١٢٧.

١٣٤- نفسه، ص ٩٤.

١٣٥- نفسه، ص ١٢٧.

الفصل الأول

تداعي الأخبـار وتواردها

تــندرج كتب المحسّن التنوخي في مايعرف بالمصنفات الجامعة[١]: التي تتســع لاحــتواء مخــتلف أجــناس الكلام العربي وأنواعه وأنماطه[٢]، وهي : مصــنفات جامعــة عامــة، مثل كتاب "النشوار"، وجامعة خاصة مثل كتابي : "الفرج" و "المستجاد".

إن اتساع هذه المصنفات يجعل من الصعوبة الإحاطة بكل ما تعرضه من أجناس أدبية وبكل ما تحتويه من مضامين سياسية وجغرافية ودينية ولغوية؛ لذا فــإن البحــث لا يُعــنى بكل ما ورد في هذه المصنفات من أجناس، بل يُعنى بــالوحدات الســردية التي يطلق عليها الأخبار بالمفهوم الذي حدده ستيفن ليدر "بأنها وحدات سردية مكتفية بذاتها، وهذه النصوص تختلف عن بعضها اختلافاً كبيراً من حيث الموضوع والبنية، وتمتد من خبر أو كلام بسيطين إلى قصص معقدة"[٣].

وعلى الرغم من أن التعريف السابق يقر صعوبة الإحاطة بكل ما يتصل بالخــبر، فإنه يسمح بإدخال الخبر والحكاية والنادرة والقصة والمنام والمناظرة التي وردت في إطار سردي تحت هذا المفهوم[٤].

وعلــى الــرغم مــن أن الخبر يهيمن في مصنفات التنوخي على سائر الأنواع، وأن صيغة السرد هي الأداة أو الطريقة التي يقدم من خلالها الإخبار، فــإن العنصر السردي لا يشمل الخطاب كله. فثمة مقاطع من رسائل، ووثائق ديوانــية، ومقــاطع مــن كتــب، ونداءات الباعة .... الخ، تعطي انطباعاً بأن اســتبعادها لا يحــدث خلــلاً في بنيتها أو نظامها، إلا أنها تشكل مع الأجناس الأخــرى مــا يشبه المقامات التي وصفها كيليطو بأنها "فسيفساء من الشذرات والقطع التي يمكن فصلها عن المجموع وتحتفظ مع ذلك بمعناها ... وتدخل في علاقــة تشــابه وتقــابل مع القطع القريبة أو البعيدة"[٥]. إنها بمعنى آخر نتاج الحضارة العربية التي "تتراص فيها الوحدات المتنوعة ليعبر كل منها عن حقيقة

فـــي حـــد ذاتها. وعندما تتراكم النصوص المعبرة عن الحقائق على هذا النحو، تـــثرى النصـــوص ثراء كبيراً في معناها ودلالتها، وتصبح ذات كفاءة إشارية عالية"[٦].

إن انعقـــاد الصلة بين مقامة وأخرى، على الرغم من استقلال كل مقامة، يصـــدق أيضـــاً على المصنفات الجامعة التي تعرض لمختلف الأجناس، "فيكاد يغيـــب فـــيها عنصـــر الربط الزمني أو الحدثي إلا أنها موضوعة في أطر ما تاريخـــية أو جغرافـــية، موضـــوعاتية، أو مزاجية، هازلة، أو جادة، تحيد عن تسلســـل البـــناءات لتأتـــي بأخرى بديلة"[٧]. وهذا الأمر لم يكن غائباً عن قصد المحسِّن التنوخي، حين صرح بهذا التباعد قائلاً ؛ "ولعل قارئها والناظر فيها أن يستضـــعفها إذا وجدهـــا خارجـــة عـــن السنن المعروفة في الأخبار، والطريق المألوف في الحكايات والآثار"[٨]. وحين أشار إلى منهجه في ترتيب النصوص قـــائلاً "فأوردت ما كتبته مما كان في حفظي سالفاً، مختلطاً بما سمعته آنفاً، من غير أن أجعله أبواباً مبوبة، ولا أصنفه أنواعاً مرتبة، لأن فيها أخباراً تصلح أن يذاكر بكل منها في عدة معانٍ وأكثرها ما لو شغلت نفسي فيه، بالنظم والتأليف، والتصنيف والترتيب، لبرد واستثقل"[٩].

البحـــث، إذاً، يقتضي تقصّي هذه الظاهرة التي وسمت كتب الأخبار في الأدب العربي منذ نشأته، والكشف عن العلاقات التي تقوم بين الأخبار في إطار الكتاب الواحد، وبيان الأطر البديلة التي تقدم من خلالها الأخبار وعدم الاكتفاء بـــالحكم عليها بأنها ميل إلى الاستطراد الذي ينتقل بالقارئ من قصة إلى قصة، ومـــن حديث إلى حديث بلا ترتيب ولاتبويب[١٠]. أو أنها "تيار غير منتظم من الحكايـــات غير الموصولة بنظام، لا من حيث الموضوع ولا من حيث خاتمتها الأخلاقية أو عبرتها وعظتها"[١١].

الخبر عند المحسّن التنوخي وصعوبة التصنيف :

لا يمل التنوخي من التذكير بدواعي تأليفه للنشوار؛ وهي الرغبة بتدوين المـــوروث الإخباري وتخليده -لاتخاذ العبرة ومجابهة فساد الزمن- خوفاً عليه مـــن الضـــياع، بفعـــل الزمن(١٢)، وضعف ذاكرته وذاكرة الآخرين(١٣)، وموت المشـــيخة الذين كانوا مادة هذا الفن(١٤)، وضعف ملوك عصره ورؤسائهم عن الإتيان بالفضائل(١٥).

إن الخوف على المحكي (الموروث الإخباري) دفعه إلى ذكر من يروي لهـــم مـــن مختلف المراتب والأجناس والأعراق والفئات غير عابئ بالتمايزات والـــتحديدات، متخطياً ما يحدد الخطاب، ويحول دون حريته(١٦)؛ ليفسح المجال لاســـتيعاب كثـــير مـــن محمـــولات الفقـــه، ومعتقدات العامة، وعادات الأمم الأخرى.... الخ.

ولما كانت دراسة الخبر منفصلاً عن سائر الأخبار المجاورة له في الأثر عملـــية مضـــلة، لأنها تحجب الوظيفة التي أودعها المؤلف إياها... والتي تحدد منـــزلته في الأثر(١٧). ولما كانت دلالة الخبر لا تكتمل إلا من خلال دخوله في الســـياق الأعـــم والأشمل(١٨)، فإن ما ينبغي الإشارة إليه أن كثيراً من الأخبار الواردة عند التنوخي تتفق- إذا درست منفصلة عن السياقات التي وردت فيها- مع الأخبار التي وردت في كتب التاريخ والتراجم. إلا أن ما يفرق هذه عن تلك ما يأتي :

أولاً: "انحصار الإخبار التاريخي في ذكر الملوك والرسل والصحابة وتواريخ مولدهم ووفاتهم، تعييناً بالزمان وتحديداً بالتأريخ من أجل ضبط الحوادث بتتاليها"(١٩). فالتاريخ "إخبار منضبط بتأريخ. ولهذا الإخبار مجموعة من المطالب، يتحلق حول موضوع الملك ومتعلقاته يتم أداؤها بما هي إخبار عـــن أفعـــال. فالإخـــبار إخبار عن أمور حادثة، والخبر هو ذلك القول

السردي المتعلق بفعل ما بحيث أنه يسرد حادثة فيها انتقال من بداية إلى نهاية، دون أن يتمكن من سرد أي شيء عدا الحوادث"(٢٠). في حين أولى التنوخي عناية واضحة بالفئات الاجتماعية المختلفة، ولم يقصر حديثه على فئة الحكام والملوك دون الفئات الأخرى(٢١). ولم يكن همه التأريخ لحوادث عصره، كما يتضح بعد قليل. إنما كان يهدف إلى توضيح موقفه من هذه الأحداث، لاسيما أنه لا يرتب الأخبار حول حقبة ما ترتيباً تاريخياً، بل كان يرتبها وفق منهجه القائم على التداعي في ترتيب الأخبار وتسلسلها. وهذه الطريقة أتاحت له تقديم معلومات ذات طابع موسوعي، عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للناس على اختلاف طبقاتهم. "فهذه الكتب ببعدها النسبي عن الموقع الأيديولوجي للسلطة – وهو موقع يتشابه في تمثل المنهج التاريخي سواء بالنسبة للقوى الحاكمة أو القوى المعارضة– استطاعت أن تفلت من وطأة أيديولوجية السلطة أو أيديولوجيا ادّعاء أحقيتها بالنسبة للقوى المعارضة"(٢٢).

ثانياً: الأخبار الأدبية تتشابه مع الأخبار التاريخية، لأن كلاً منهما يلتزم بالسرد المتسلسل الذي يخلو من تدخل الراوي أو المؤرخ، إلا أن الوصف المتسلسل للأحداث التاريخية في الخبر التاريخي يختلف عن الوصف المتسلسل في الأخبار الأدبية، لأن التاريخ يلتزم بتتابع الأحداث كما حدثت في الزمن الواقعي، ويتم ذلك بتنظيم الحوادث أو التاريخ على السنين؛ إما بترتيب المادة التاريخية وفق السجل الحولي " الذي تنتظم فيه المادة التاريخية في كنف عنوان أكبر هو نقطة زمانية عوضاً عن كونه اسماً دالاً على حادثة بعينها، فيما يسمى بالحوليات"(٢٣). وإما "بتنظيم الحوادث على الملوك، وهو تنظيم زماني يتخذ فيه الملوك مكان السنوات كوحدات للتنظيم"(٢٤). أما القص –وأعني به الخبر الأدبي–، فلا يختار الأحداث، بل الأفعال التي يصلح توظيفها في فكرة الحكاية(٢٥).

ولم يكن هذا الاختلاف غائباً عن ذهن المحسّن التنوخي، فهو يعي أنه لا يكتب تأريخاً، كما يتضح من تفحص الأخبار المروية في كتبه ؛ فتارة ينتقي من الأحداث التاريخية ما يصلح توظيفه لخدمة فكرة الكتاب وغرضه، من مثل ؛ الأخبار التي تروى في "الفرج" و "المستجاد" ففي أحدها يروي عن الفتنة التي ثارت وقتل فيها نازوك. فلا يعنيه مثلاً الحديث فيه عن مكانة نازوك في دولة المقتدر، كونه أحد كبار القواد الذين ولوا شرطة بغداد سنة (٣١٠هـ)، ولا دوره في تخليصها من العيارين غير مرة، ولا دوره في خلع المقتدر وتنصيب القاهر بدلاً منه، فولي الحجبة لهذا الأخير إضافة لقيادة الشرطة. ولا يعنيه سبب الحادثة التي أسفرت عن قتل نازوك، بعد أن هاجم العامة قصر الخلافة والسجن. وهي أحداث تاريخية توقف عندها بعض المؤرخين[٢٦]. إن ما يعنيه هو الحادثة ودورها في إخراج عامة المساجين والإفراج عن الرجل المحبوس في المطبق ظلماً، كما وصفه الراوي في الخبر - "على ظهره لبنة من حديد فيها ستون رطلاً"[٢٧]- ولا ييأس من فضل الله عز وجل وفرجه "فإن من ساعة إلى ساعة فرجا"[٢٨]. وتارة ثانية يغيّب بعض التفصيلات التاريخية التي وقف عندها بعض المؤرخين، وينطلق من فهمه العام للحدث لبناء خبر يكون للشخصية الدور الفاعل في تشكيل جزئياته ودفعها نحو التعقيد ثم الانفراج. "فيكون الخبر أقرب إلى قصة الشخصية منه إلى قصة الحدث"[٢٩]. من مثل حادثة إلقاء القبض على الكتّاب في عهد الواثق[٣٠]. فلم يتوقف الخبر عند حادثة الحبس ولا عند دوافع الواثق لهذا الفعل، إنما توقف عند دور ابن أبي دؤاد المتكلم في إقناع الخليفة بالإفراج عنهم وإعادة أموالهم المصادرة إليهم على الرغم من ظروف الواثق الصحية، وعلى الرغم من معارضة وزيره لهذا الأمر.

لقد تحول ابن أبي دؤاد في هذا الخبر وفي الأخبار الأخرى التي تتحدث عـــنه[٣١]، إلى رمز من رموز الكرم والوفاء. فأصبح نموذجاً يحتذى في محبته للآخريـــن وتضحيته لإنقاذهم، إضافة إلى نصيحته للخليفة بأهمية عمل الخير. وكـــأن المحسّـــن التنوخي أراد بهذا ردّ الاعتبار إليه، -لأنه يعد في نظر أهل الســـنة[٣٢] المسؤول عن تدبير محنة القول بخلق القرآن، والمشرف على تنفيذها هـــو وجماعـــته-[٣٣]. وأراد ابـــن أبي دؤاد بهذا العمل تحميل الخلفاء مسؤولية أفعـــالهم. فالواثق يعترف بقبيح أفعاله بعد أن اشتد مرضه، ويطلب من ابن أبي دؤاد النصـــيحة، قائلاً ؛ "أما الدنيا، فقد ذهبت مني بما ترى من حضور الموت، وذهبـــت الآخـــرة، بما أسلفت من عمل القبيح، فهل عندك من دواء؟" [٣٤]. كان الـــدواء كما اقترحه ابن أبي دؤاد إخراج الكتّاب والعمال من الحبوس، لأنه بهذا العمـــل سوف ترتفع الأيدي بالدعاء له، بدلاً من الدعاء عليه، فلعل الله يهب له العافية، وهكذا كان.

والخـــبر، يـــروى علـــى لسان عبيدالله بن سليمان كما سمعه من والده سليمان بن وهب أحد المعتقلين في حبس الواثق يقول : "كنت وأبو العباس أحمد بن الخصيب مع خلق من العمال والكتاب، معتقلين في يدي محمد بن عبدالملك الزيات في آخر وزارته للواثق، نطالب ببقايا مصادراتنا، ونحن آيس ما كنا من الفـــرج إذا مـــا اشـــتدت علة الواثق، وحُجب ستة أيام عن الناس، فدخل عليه أبو عـــبدالله أحمـــد بن أبي دؤاد"[٣٥]، وهنا يتحول السرد إلى الأخير، فيروي لنا الحوار الذي دار بينه وبين الخليفة عن أهمية إطلاق سراح الكتّاب ومدى الفائدة التـــي ســـتعود عليه، إلى أن ينتهي الخبر، ولا يتوقف سرده عند هذا الحد، إنما يـــتجاوزه إلـــى وصف ردة فعل الوزير ابن الزيات -من وجهة نظر الراوي- على هذا القرار الذي يحمل توقيع الخليفة، يقول : "فارتاع، وظن أنه قد وقع به الحـــال، فنـــزل، وجلس على غاشيته، فأوصل إليه التوقيع، فامتنع، وقال : إذا أطلقت هؤلاء من أين انفق الأموال، وأقيم الإنزال؟ [٣٦]، فقيل له : لابد من ذلك.

وتـــارة ثالـــثـــــــــــــــة : حيـــن يركز على ما يعتمل في نفس الشخصية المحكي عنها، ويعطيها حيزاً داخل الخبر. من مثل : الخبر[٣٧] الذي يعترف فيه المأمون لجبريل ابن بختشيوع بخوفه في خراسان وضعفه في حربه ضـــد الأمين؟ فقد حدث في الأيام الأخيرة من الحرب، أن نفد ما معه، ولم يبق معه لا قليل ولا كثير، وأفضت حاله إلى التفكير في الهرب، لكن كيف السبيل؟ والجـــيش يحـــيط بـــالدار التي يقيم فيها ويحاصرها ويطالب أفراده بالأرزاق، ويشـــتمونه بكل قبيح. فاشتد خوفه على الرغم من طمأنة الفضل بن سهل لـــه. ويغـــرق الخـــبر في وصف لحظات شدته، إلى أن جاءته البشرى بقتل علي بن عيسى بن ماهان قائد الأمين والتسليم عليه بالخلافة. ويركز (الراوي- المأمون) علـــى الحـــوار الذي دار بينه وبين الفضل الذي يؤكد لـــه أن الفرج قادم وأنه سيتقلد الخلافة فلا يزيد على تكرار عبارته "يا سيدي"، اصعد، فوالله، ما تنـــزل إلا خليفة[٣٨]. يقول المأمون مثلاً "ثم وضع القوم النار في شوك جمعوه، وأدنوه مـــن الدار، ونقبوا في سورها عدة ثقوب، وثلموا منه قطعة، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً، وعلمت أني بين أن احترق، وبين أن يصلوا إليَّ فيقتلوني، فهممت بأن ألقي نفسي إليهم... وجعل الفضل بن سهل يقبل يدي ورجلي، ويناشدني ألا أفعل ويحلف لي أني لا أنزل إلا خليفة"[٣٩].

وتـــارة رابعة: يروي خبراً تغفله كتب التاريخ من مثـــل كتب الطـــبري والمسعـــودي[٤٠] كالخبر الذي يتحدث فيه عن انشغال رجال القصر عن الخليفة الواثق بعد موته، بعقد البيعة للخليفة الجديد، فهاجمه "حرذون" وأكل عينيه وهو مســـجى وحيداً. وقد ورد هذا الخبر ضمن سلسلة أخبار مدارها التغييرات التي تحدث بعد موت الخلفاء. ولعل أولها أن الخزّان يجمعون الفرش والأمتعة داخل القصـــر، ويقفلون عليها لأن جميعه مثبت عليهم[٤١]. وآخرها أن بعض الخلفاء مثل الراضي لا يجد كفناً يكفن به، فيتبرع له أحد القضاة به من بيته[٤٢]. وعلى الرغم من أن الأخبار تروى بحياد إلا أنها تهدف في مجموعها إلى اتخاذ العبرة،

فخادم الواثق وهو راوي الخبر ينهي الخبر قائلاً "لا إله الله، هذه العين التي فتحها منذ ساعة، فاندق سيفي هيبة لها، صارت طعمة لدابة ضعيفة"(٤٣). وربما أراد التنوخي غير هذا وهو أن الإنسان سينال جزاءه مهما طال الزمن، فالواثق قتل الكثيرين في محنة القول بخلق القرآن(٤٤)، ولم يقدر عليه أحد، فاستطاع "حرذون" النيل منه. فهو، إذن، يروي ما تسكت الخطابات الأخرى عن روايته لاسيما التاريخية منها.

وأخيراً : كتبَ الطبري تاريخه وفق السجل الحولي للحوادث؛ الذي تنتظم فيه المادة التاريخية حسب السنين(٤٥). ففي القسم الخاص بعام ٢٤١ هـ يقول الطبري : "... وفيها ولي القضاء بالشرقية في المحرم أبو حسان الزيادي"(٤٦). أي في عهد المتوكل، الذي تولى الخلافة ما بين (٢٣٢-٢٤٧هـ).

هذا ما تذكره كتب التاريخ، في حين يورد التنوخي خبراً عن والده أن أبا حسان ولي القضاء على الشرقية من الجانب الغربي من مدينة السلام في أيام المأمون(٤٧). ولا يعني هذا أن المحسّن التنوخي لا يتحرى الدقة التاريخية. إن من شأنه أن يشير إلى قصدية واضحة يتبعها وهو يروي أخباره، فهو لايبغى سرد بعض الحوادث التاريخية لأنه ترك شرحها لأصحاب التواريخ(٤٨)، إنما يهدف إلى صياغة الأخبار التي تتعلق بأشخاص لهم وجود تاريخي من مثل:أبي حسان أو المأمون وفق رؤية جديدة تتوافق مع الهدف الذي من أجله ألّف كتبه، مع عدم إغفال الجانب القصصي الذي قدمت فيه حادثة تسلم أبي حسان القضاء.

تروى هذه الحادثة من وجهة نظر أبي حسان، ويكون المنام السبب الوحيد لعودته إلى القضاء. وكان الزيادي كما قدمه الراوي، من وجوه الفقهاء، ومن غلمان أبي يوسف، وأصحاب الحديث، تقلد القضاء قديماً، ولا يذكر النص

متى كان ذلك؟ إلا أنه "تعطّل فلزم مسجده حيال داره... وتزداد كل يوم إضافته، إلى أن نفد ما عنده وباع كل ما يملكه، وركبه دين عظيم.. جاء رجل خراساني وأودع عـــنده عشرة آلاف درهم[٤٩]، لأنه قرر الخروج للحج. هنا تتحول رواية الخـــبر من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ويصبح الزيادي راوياً لما سيحدث من ساعة دخول الخراساني إلى نهاية الخبر. فقال له الخراساني : "فإن رجعت من الحج رددتها علي، وإن رجع الناس، ولم أرجع، فاعلم أني هلكت، وهي لك هـــبة حلالاً[٥٠]. فاقترحت زوجته عليه أخذ المال والتصرف فيه: فقبل اقتراحها بعد تردد طويل : "فما زالت في يومي وليلتي تحملني على ذلك حتى أجبتها إليه مـــن غد، ففضفت الختم عن الكيس، وقضيت منه ديني، وثأثثت، وتوسعت في منـــزلي، واشتريت ثياباً لي، ولها، ولبناتي، وأصلحت جميع أمري بنحو خمسة آلاف درهم من ذلك"[٥١].

وحدث مالم يكن بالحسبان حين عدل الخراساني عن السفر، وعاد ليسترد الوديعـــة، فلما رآه الزيادي سقط مغشياً عليه، ثم طلب من الخراساني مهلة يوم واحـــد ليأتـــيه بالمـــال، دون أن يعلمه بما فعل. فلم يبقَ أمامه إلا التضرع لله والصلاة وقراءة القرآن ليخرج من هذا المأزق. ثم قرر الخروج من الدار، بعد حـــوار طويل مع أهله، فخرج. حين وصل إلى الجسر القريب من دار الخلافة، كـــان موكب المأمون كما يروي الزيادي يبحث عنه، فالمأمون رأى الرسول ﷺ فـــي المـــنام وقـــال لـــه؛ "أغث أبا حسان الزيادي"، وبعد التعرف عليه، شرح الزيادي ما حدث لـــه فأعطاه المأمون ما يصلح به أمره ويسدد به دينه وأعاده للقضاء.

واللافـــت للـــنظر في الخبر أن المأمون حين سأل الزيادي : من أنت؟ أجابه الزيـــادي : رجل من الفقهاء والقضاة، أعرف بالزيادي، ولست منهم، إنما سكنت في محله لهم، فنسبت إليهم"[٥٢]. وهذا القول يستدعي إلى الذهن ما ذكره

المأمون عن الزيادي في الرسالة التي وجهها إلى إسحاق بن إبراهيم في مسألة القــول بخلق القرآن، قائلاً : "وأما الزيادي، فأعلمه أنه كان منتحلاً، ولا كأول دعــي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسولﷺ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه، فأنكر أبوحسان أن يكون مولى لزياد أو يكون مولى لأحد من الناس ؟ وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور"(٥٣).

يــبدو أن المحسّن التنوخي أراد من هذا الخبر إحداث مصالحة تاريخية بيــن أبي حسان والمأمون ولو من خلال النص الأدبي ومن خلال المنام، وفيه ظهــر المأمون بمظهر الورع العادل الذي امتثل لأوامر الرسول ﷺ في المنام؛ فأعــاد القاضي إلى منصبه، وربما أراد أن يبين أن عناية الرسول ﷺ قد شملت أصــحاب ابن أبي دؤاد المتكلم، وفي هذا مباركة من الرسول ﷺ لما فعلوه في السابق، فوجود الرسول ﷺ في المنام هو شاهد صدق على صحته(٥٤). فقد ورد في صحيح البخاري ما روي عن الرسول ﷺ قوله : "من رآني فقد رأى الحق، فــإن الشــيطان لايتكونني"(٥٥) لاسيما إن صحّ ما أورده ابن حنبل عن الزيادي قائلاً "كان مع ابن أبي دؤاد، وكان من خاصته، ولا أعرف رأيــه اليــوم"(٥٦). فتصبح الرؤيا "أداة أيديولوجية للخطابات تسعى بها لتحقيق مشروعيتها المعرفية في علاقتها بالخطابات الأخرى"(٥٧).

أما كتب التراجم، فقد أورد التنوخي أخباراً تتوافق مع ما ورد فيها من أخــبار مــن مثل : "الوزراء والكتاب" للجهشياري و "تحفة الوزراء للصابئ و "معجــم الأدبــاء" لــياقوت الحموي...الخ. وفي هذه الكتب يتابع المؤلف أخبار الشخصية الواحدة، ويأتي على أخبار الآخرين بحسب ارتباطهم بها، وإن كان لا يــتحرى الترتيــب التاريخي لحياة الشخصية. في حين ينتقي التنوخي من هذه الأخــبار التــي تــروى في إطار الكتاب الواحد. ولعل أبرز مثال على ذلك ما أوردتــه كتــب التراجم من أخبار عن الوزير ابن الفرات؛ فالصابئ مثلاً يتابع

سيرة ابن الفرات منذ تسلمه الوزارة أول مرة حتى انتهاء وزارته الثالثة، وهكذا يغطي حديثه أخباراً لابن الفرات طوال إحدى عشرة سنة وما حدث لــــه في هذه المــــدة الطويلــــة[٥٨].

وأما ما كتبه المحسّن التنوخي عن الوزير ابن الفرات فلا ينتمي إلى أدب التراجم على الرغم من كثرة الأخبار التي أوردها عنه. فلم يكن يعنيه تتبع أخبار هذه الشخصية والترجمة لها، وإنما استأثرت باهتمامه لتعدد المهام الموكلة إليها؛ ولتولــــيه الــــوزارة غير مرة في حقبة المقتدر، وهذه الأخيرة استأثرت باهتمامه كونها حقبة فاصلة في التاريخ العباسي.

ففي كتاب الفرج مثلاً كان التركيز على دور ابن الفرات في الصفح عن الخصـــــــوم[٥٩]، والإحسان إليهم[٦٠]، وعلى دور المحنة في تطهيره من الخطايا واتعاظــــه[٦١]، وهكـــذا، وهي أخبار تتناسب مع الغاية من تأليف الكتاب وتلائم الباب الذي وردت فيه.

أمـــا فـــي النشـــوار فقـــد بيّن قدرته على السيطرة ودهائه في المناظرة وأفحـــــام الخصـــوم[٦٢]، وجرأته في أخذ مال الدولة والسلطان[٦٣]، ورأيه في السياسة[٦٤]، ...الخ.

وعلــــى الرغم من محاولات التفريق بين كتابات المحسّن التنوخي وكتب التأريخ والتراجم، فثمة أخبار تتفق مع ما ورد في كتب التأريخ من مثل : أخبار عفـــو المـــأمون عن إبراهيم بن المهدي[٦٥]، وبعض أخبار علي بن عيسى[٦٦]، ومـــوت هـــارون الرشـــيـــــد[٦٧]. إلا أن ما يفرق هذه عن تلك أن أخبار عفو المـــأمون عـــن إبراهـــيم بن المهدي مثلاً تروى في كتب التأريخ في تضاعيف إخبارهم عن خلع المأمون –مثلاً– والبيعة لإبراهيم بن المهدي، في حين جاءت أخبار هذا الأخير عند المحسّن التنوخي للإشارة إلى عفو المأمون عنه[٦٨]، على الرغم من إساءته إليه، حين قبل بيعة الناس لــــه بالخلافة. بينما لم يجد المحسّن

التنوخـــي عفـــواً مماثلاً من عضد الدولة، بل جرده من جميع مناصبه التي قلده إياهـــا، وألـــزمه داره، بسبب موقف لم يكن الهدف منه الإساءة إليه، فهو يختار المواقـــف التي لها مساس بتجربته "وليس الأعمال التي يسارع المؤرخون إلى تدويـــنها. ومن هنا تكون اختياراته متوغلة في التفاصيل التي قد لا يلتفت إليها المؤرخ عادة"[٦٩].

لهـــذا كلـــه، لابد من دراسة المنطق الذي يحكم تسلسل الأخبار وتتابعها؛ "فالخـــبر لـــه قـــدرة على التحرك من موضع لآخر"[٧٠]، والاستجابة لمتطلبات الســـياق التـــي تجعـــل مـــنه "مستقلاً وتابعاً في آن"[٧١]، وهذا الأمر "يسّر على المؤلفين أن ينشئوا مجموعات خبرية متعددة تقوم بين وحداتها علاقات متنوعة، وأنظمة في الترتيب مختلفة"[٧٢].

تسلسل الأخبار وتتابعها في النشوار :

– التسلسل Enchainement[٧٣] أو التنضيد Enfilage [٧٤]:

ويعني نسق الربط بين مجموعة أخبار متتابعة –على الرغم من استقلال كل خبر عن الآخر – بوساطة شخصية مشتركة أو ثيمة مشتركة[٧٥].

وللوقـــوف علـــى جوانـــب هـــذا النسق، يتوقف البحث عند أخبار ابن الجصاص وهي خمسة أخبار متتابعة[٧٦] ؛ فالأول اكتفى بتحديد مقدار ما صودر مـــنه، وتحـــدث الثاني عن مقدار ما بقي لـــه بعد المصادرة من المال والعقار، وأشـــار الثالـــــــــــث إلى دهائه ونفى عنه صفة الغفلة وتحدث الرابع عن ذكائه، أما الأخير فقد أعطى أمثلة على ثروته الهائلة.

إن أهـــم مـــا يلفت الانتباه في الأخبار السابقة قصدية المؤلف في اختيار المـــنطق الداخلـــي الذي يحكم تسلسلها، وفيه يتدرج بناء الخبر من البساطة إلى

التعقيد ثم البساطة. فقد بدأ أولاً حديثه عن ابن الجصاص بخبر قصير يذكر فيه مقـدار المـبلغ الذي صودر منه فبلغ ستة آلاف آلف دينار، دون أن يشير إلى سبب المصادرة؟

إن كتب التاريخ تروي عن سبب المصادرة لأنها جرت في سياق الإخبار عن حدث مهم هو خلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز. ومشاركة ابن الجصاص في هذا الخلع. ولما فشل ابن المعتز في الاحتفاظ بالخلافة لإجماع القواد على إبقاء المقـتدر، لجـأ إلـى ابن الجصاص واستتر في بيته، إلا أن خادماً لهذا الأخير يعـرف بسوسن أخبر عن مكان ابن المعتز، فألقي القبض عليه وقتل، وصودر ابن الجصاص على هذا المبلغ الهائل(٧٧). واللافت أن الخبر لم يتوسع في سرد مـا حدث، ربما لأن شهرته هي التي دفعته إلى الاقتصاد في السرد وربما كان الإحجام عن ذكر حادثة الخلع مقصوداً؛ وهو الأقرب إلى منهج المحسِّن التنوخي فـي تـتابع النصوص عنده. فهو يغفل علاقة ابن الجصاص بابن المعتز الأمر التـي كانـت سـبباً فـي المصـادرة، لمصلحة التوافق مع الخبر السابق لـه والاقـتراب مـنه؛ وفيه يروي عن المبالغ التي صودرت من الوزير حامد بن العـباس. فالخبر يظل وفياً لما عرف عنه، بأنه "مستقل وتابع في آن(٧٨). ولم ينحصـر دور التنوخـي في ربط الخبر الحالي بما سبقه وإنما جعل منه مهاداً للخبر الذي يليه، وفيه يتحدث عما بقي لابن الجصاص من مال بعد المصادرة.

إن ما يميز الخبر الثاني عما سبقه أنه لا يحدد هذا المبلغ بداية، لأن ابن الجصاص نفسه لا يعلم مقداره؛ فالمصادرة التي ذكرت في الخبر السابق جعلته في حالة اضطراب شديد، لا يقوى معها على التركيز أو التفكير المنظم والخبر أخيراً لا يكتفي بتقديم المعلومة مباشرة، إنما يرويها من وجهة نظر الأمير أبي محمـد جعفر بن ورقاء الشيباني الذي قال بعد أن شاهد ابن الجصاص بعد أيام من مصادرته وعودته إلى البيت: "اجتزت بابن الجصاص، بعد إطلاقه إلى داره

من المصادرة بأيام، وكانت بيننا مودة ومصاهرة، فرأيته على روشن داره، على دجلة، في وقت حار، من يوم شديد الحر، وهو حافٍ حاسر يعدو من أول الروشن إلى آخره كالمجنون"[٧٩].

إن ما شاهده الراوي من غضب ابن الجصاص وقلقه دفعه للقدوم إليه، والسؤال عما أصابه، وإن كان ذلك لا يخفى على أحد، إلا أن الراوي يجعل من السؤال حافزاً لاستدراج ابن الجصاص للحديث، وإطالة الحوار معه، بعد أن يكون قد وقع ساعة كالمغشي عليه مسوغاً تصرفاته، "أولا يحق لي أن يذهب عقلي، وقد خرج من يدي كذا، وأخذ مني كذا، وجعل يعدد أمراً عظيماً مما خرج منه، فمتى أطمع في خلفه، ولم لا يذهب عقلي أسفاً عليه[٨٠].

إلا أن الراوي (محاور الشخصية) يتخذ دور الواعظ أو الحكيم[٨١]، فيتحدث بأناة واضحة، ويدعوه إلى الصبر، والاحتساب ويقول : "إن النفوس لا عوض لها، والعقول والأديان، فما سلم لك ذلك، فالفضل معك، وإنما يقلق هذا القلق، من يخاف الفقر والحاجة إلى الناس....الخ[٨٢]، وبعدها يدعوه للتأني لسماع ما يذكره، فعلى الرغم من الأموال المصادرة فإن ما بقي له كثير كثير. فالراوي يعرف ابن الجصاص إذ بينهما مودة ومصاهرة. فذكّره بعقاراته في الكرخ، ودار الحرير، وبباب الطاق ... وما سلم من الجوهر والأثاث والقماش؛ مبلغ ثلثمائة ألف دينار، فسجد ابن الجصاص لله شكراً[٨٣]. وأدرك أن ما قاله الأمير صحيح، إلا أن صدمته بما حدث أنسته ما بقي له من مال.

أشار الخبر السابق إلى غضب ابن الجصاص مما حدث له، وفقدانه القدرة على التركيز والتصرف بحيث صار كالمجنون. وهذه الإشارة دفعت (المحسّن التنوخي- الراوي)إلى سؤال أحد أبناء أبن الجصاص عما ينسب إلى أبيه من نوادر من مثل: قوله خلف إمام قد قرأ "غير المغضوب عليهم ولا الضالين"،أي لعمري بدلاً من آمين[٨٤]،ومثل قوله وقد وصف مصحفاً بالعتق:

هـو كسـروي[٨٥]، وقـد كشف الابن عن سر اصطناع والده للحمق؛ بأنه كان يصـور نفسه بصورة الأبله، ليأمنه الوزراء، لكثرة خلواته بالخلفاء[٨٦]، وليبعد العـيون عن ثروته. ولكي لا يطيل على (المحسِّن التنوخي – الراوي)، يروي لـه حادثـة تدلل على أن والده في غاية الحزم[٨٧]. هنا يتحول الابن إلى راوٍ ويـتحول (التنوخي–الراوي) إلى مروي لـه، ويصبح الحوار السابق وما سبقه من سرد قصة إطار تتضمن خبراً جديداً يبين فيه الابن دهاء والده. فالخبر يدور علـى طمع الوزير ابن الفرات بمال ابن الجصاص، فعلى الرغم من مصادرته بمبلغ طائل، فإن ما بقي لـه من مال كان يغري الوزير بالمصادرة، وحين علم ابـن الجصاص بنيِّة الوزير عزم على القيام بمبادرة تحول دون رغبته، فاختار بعـد منتصـف اللـيل وقتاً لمفاوضة الوزير. وبما أن الوصول إليه في غاية الصـعوبة، فإن المال، كما علمته التجربة، تكفل بذلك. وحين قابل الوزير بيّن لـه مدى الإساءة التي سيلحقها به إن تمت المصادرة. وقدم لـه عرضاً للتعاون فيما بينهما، فإن قبل عرضه فيها، وإن رفض، قال ابن الجصاص لابن الفرات : "لأقصدن الخليفة الساعة، ولأحولن إليه من خزانتي ألفي ألف دينار عيناً وورقاً، ولا أصـبح إلا وهي عنده، وأنت تعلم قدرتي عليها، وأقول لـه خذ هذا المال، وسـلِّم ابن الفرات إلى فلان، واسـتوزره..." [٨٨] ويزيد في تهديده، حين يشير إلـى أنـه سيطلب من الخليفة أن يعزل ابن الفرات ويستوزر من يراه مناسباً، وبهذا يضمن الوزير الجديد لأنه سيعتقد كما يقول ابن الجصاص : "أنّـي ربه، وولـي نعمته، فيخدمني، ويتدبر بتدبيري، في جميع أمره، فأسلمك إليه، فيفرغ علـيك العـذاب، حتى يأخذ منك الألفي ألف دينار بأسرها، وأن تعلم أنت حالك يفي بها، ولكنك تفتقر بعدها، ويرجع إليّ المال"[٨٩].

وبما أن ابن الفرات يعلم أن المقتدر ألعوبة بيد السادة والوزراء[٩٠]، وأنه لا يسـتقر علـى رأي واحد، فقد اسقط في يده بعد سماعه كلام ابن الجصاص، فكتـب نسـخة اليمين التي يتعهد بها أن يكون لابن الجصاص لا عليه. فصار

الوزيــر يوقر هذا الأخير في المجالس العامة بحضور الوكلاء والعمال، وحين يقوم، يخرج الحجاب يجردون السيوف بين يديه. ثم يعود الخبر إلى الحوار بين المحسِّن التنوخي والابن فيقول : "فهل كان هذا فعل، ورأي من يليق به ما حكي من تلك الحكايات عنه، فيجيب التنوخي : لا"[٩١].

ولا ينســى الخبر أن يصف مكان نوم الوزير والاحتياطات التي يتخذها لضـــمان سلامته، فيشير إلى حالة القلق الدائم التي يعيشها الوزراء على الرغم مــن مظاهــر السلطة المحيطة بهم يقول : "فأدخلني من دار إلى أخرى، حتى انتهيــت إلى مرقده، وهو على سرير وحواليه نحو خمسين فراشاً لغلمان لـــه، كأنهم حفظة، وقد قاموا، وبعض الفرش تنقل، وهو جالس في فراشه، مرتاحٌ، قد ظن أن حادثة حدثت، أو أني جئته برسالة الخليفة، وهو متوقع لما أورده"[٩٢].

بعــد أن ينتهــي هذا الخبر تعود الأخبار بالتدرج إلى النقطة التي بدأ بها الحديــث عن ابن الجصاص، إذ يورد حادثة أخرى تدل على ذكائه وتنفي عنه تهمــة الغفلــة[٩٣]. وأنهى هذه السلسلة بخبر قصير كالذي ابتدأ به وضرب فيه مثاليــن على الأمتعة التي صودرت من داره يدّلل بهما على مروءة هذا الرجل واتســاع حاله[٩٤]. هذا في ما يتعلق بنسق الربط بين الأخبار المتتابعة بواسطة الشخصية[٩٥]. أما في ما يتعلق بنسق الربط بوساطة الثيمة[٩٦]. فمثال على ذلك: سلســلة أخــبار يكون للمنام دور في تغير حياة الشخصية (المتحدث عنها) إلى الأفضــل، بالــنظر إلى أهمية الشخص الذي يظهر في المنام -وهو في أغلب الأحــيان الرسول ﷺ أو واحد من بيت النبوة- ودوره في دفع الشخصية الحالمة إلـــى القــيام بدور المخلص أو المنقذ لشخصية مظلومة من الحبس أو القتل أو ضائقة مالية؛ بعد أن يصدع الحالم لأمر هذه الشخصية. فالوزير علي بن عيسى يمتثل لأمر الرسول ﷺ ويسعى للبحث عن العطار الكرخي لإخراجه من ضائقته المالــية، ويخرج العطار بدوره إلى علي بن عيسى امتثالاً لأمر الرسول ﷺ في

ذلـــك[٩٧]، ليخرجه من ضائقته، ويمتثل أبو الحسن الكاتب لأمر فاطمة الزهراء ويخرج للبحث عن ابن أصدق لينوح على الحسين بن علي بهذا البيت :

لم أمرّضه فأسلـــــو لا ولا كان مريضـــــاً [٩٨]

وكذا الأمر بالنسبة للمأمون ولأبي حسان الزيادي كما أشرنا فيما سبق[٩٩].

٢- *التوازي أو التجاور* ***Parallelism*** :

ويعنـــي نسق التقريب والمقابلة بين محتويين أو سردين بهدف البرهنة على تشابههما أو اختلافهما[١٠٠].

يحتوي كتاب النشوار على أخبار تبدو، أول وهلة، أن تعاقبها اعتباطي، وأن لـــيس مـــن علاقـــة تربط بين الخبر والذي يليه، وأنها وردت على سبيل الاستطراد، وهي مختلفة من حيث المضمون والبناء، الأمر الذي يذكر بما قاله المؤلـــف في مقدمته للكتاب "ولعل قارئها والناظر فيها أن يستضعفها إذا وجدها خارجـــة عـــن الســـنن المعروفة في الأخبار، والطريق المألوف في الحكايات والآثار..." [١٠١]. إلا أن هذا الترتيب يحتاج منا بعض التأني للوقوف على أهدافه وغاياته.

فقد أورد -مثلاً- خبراً يدور على الأمان في بلد الخوارج ودارهم لاسيما القـــرية التي يسكنها خليفتهم بناحية قزدار[١٠٢]. وكان الراوي وهو معتزلي من اتـــباع أبي هاشم الجبائي[١٠٣]، قد اجتاز بهذه الناحية، فأصابته الحُمى، فاضطر للـــبقاء فـــيها بقية يومه. فلم يتعرض لسوء، لا هو ولا متاعه. وكان الزائر - الـــراوي قـــد أودع ثـــيابه عند خياط، ولما عاد في اليوم التالي ليستردها، وجد المســـجد مفـــتوحاً ورزمـــة ثيابه فيه، وحين سأل الخياط :لم تركت ثيابي في المســـجد؟ أجابه الخياط قائلاً ؛ "أنتم قد تعودتم أخلاق الأرذال، ونشأتم في بلاد الكفر، التي فيها السرق والخيانة، وهذا لا نعرفه ها هنا، لو بقيت ثيابك مكانها،

إلى أن تبلى، ما أخذها أحد غيرك، ولو مضيت إلى المشرق والمغرب، لوجدتها مكانها[١٠٤].

وإذا كان الخوارج في بلدهم "لا يغلقون أبوابهم بالليل، وليس لأكثر دورهم أبواب، إنما هي شرائج، ترد الكلاب والوحوش"[١٠٥]، كما شاهدها الراوي المعتزلي، وخبرها عن قرب، فإن الأمير معز الدولة البويهي حمل إلى نقيب الطالبيين عشره آلاف درهم، -كما يروي الخبر الذي يليه مباشرة- لينفقها فيهم، شكراً لله عز وجل على خروج الأمير سالماً من دار الخلافة. وكان الأمير قد أبدى رغبة في التجول في دار الخلافة ومشاهدة بساتينها وصحونها، إلا أن علي بن أحمد الحاجب المعروف بابن الخراساني، وكان يحجب معز الدولة[١٠٦] سارع إلى سؤاله بالفارسية -لكي لا يفهم أصحاب الخليفة ما يقول- عن سرّ هذه الرغبة، فقال: "مالك تعدو على وجهك؟ وليس تعلم أنك في دار قد قتلت ألف أمير ووزير، أيش كان غرضك في طوف هذه الدار وحدك؟ ما كان يؤمنك، لو وقف لنا عشرة من الخدم، أو عشرون نفساً، في هذا الممر الضيق، فنقتل"[١٠٧]، وبعد أن ينهي الأمير تجواله في الدار يقول لكاتبه الصيمري: "يا أبا جعفر، قد زادت محبتي للخليفة، لأنه لو كان يضمر لي سوءاً، وكان فيه شرّ، لكان قد قتلني اليوم بأسهل حيلة"[١٠٨].

إن تتبع هذه الأخبار يوقف على عنصر المفارقة كونها الأداة القوية للنقد الشخصي والاجتماعي[١٠٩]. فالأخبار تروى بحياد وتبتعد عن التوجيه المباشر أو الوعظ فنحن إزاء موقفين متضادين -كما في الخبرين السابقين- ينتميان إلى مجتمعين مختلفين؛ فالخياط الخارجي ينتمي إلى مجتمع آمن، مستقر، لا يعرف لصاً ولا فساداً[١١٠]، يتضح وعيه بهذا الأمر حين يعبر عن إحساسه بالفارق بين مجتمعه والمجتمعات غير الخارجية التي لا يتورع عن وصفها بالكفر، لشيوع السرقة والخيانة، وممارسة الرذيلة[١١١]. ويتضح هذا أيضاً من ردة فعله

الساخرة على مخاصمة الراوي لــه، حين علم هذا الأخير أن الخياط أبقى ثيابه فــي المســجد المفــتوح، يقــول؛ "فأقبلت أخاصمه، وهو يضحك"(١١٢). ويزداد إحساسه بالفارق بين مجتمعه الذي ينعم بالأمن حين يعبر بضمير الجماعة قائلاً: "فإنا نحن، لا نعرف لصاً، ولا فساداً، ولا شيئا مما عندكم، ولكن ربما لحظنا في السنين الطويلة، شيئاً من هذا، فنعلم أنه من جهة غريب قد اجتــاز بنــا"(١١٣).

أمــا الأمــير معــز الدولة، فينتمي إلى طبقة القواد الذين يملكون ناصية الخلافة، ويسّيرون الخليفة كما يشتهون، إلا أن رغبته في مشاهدة دار الخلافة لا تسير كما أراد لها، بعد أن حذره كاتبه من خطورة الطواف بها مع بعض الخدم. ومــع أن الأمير خرج سالماً، إلا أن ما دُبّر في هذه الدار من مؤامرات وما تم فيها من جرائم سيظل شبحاً قائماً يسيطر عليها.

وينضــوي تحت هذا النظام الأخبار الدالة على تقلب الزمان وعدم ثباته علــى حال كما في الخبر الذي يروي دخول الفضل بن الربيع على يحيى بن خــالد البرمكــي وهو جالس للحوائج يوقع بين يديه(١١٤). فعرض الفضل على يحيى البرمكي عشر رقاع فلم يوقع لــه بشيء، وكانت أجابته عن الأولى : هذا لا يمكن، وعن الثانية هذا مما قد حظره أمير المؤمنين، وعن الثالثة هذا يفسد به الأولياء ... الخ، إلى أن بلغ العاشرة، فتمثل الفضل بالبيتين الآتيين :

عســى وعســى يثــنى الزمان عنانه بتصــريف حــال والــزمان عــثور
فتقضــى لــبانات وتشــفى حســائك وتحــدث مــن بعــد الأمــر أمــور

ومــع أن الخــبر ينتهي بتوقيع يحيى البرمكي على رقاع الفضل بن الربيع بعد سماعه الشعر، إلا أن الخبر الذي يليه مباشرة فيه إدانة لموقف البرامكة السلبي؛ فالــزمان لا يثبت على حال. ولما كان الخبر السابق يضع البرامكة في مصاف أولي الأمر والنهي، فإن النص التالي –الذي وجده الفضل بن مروان مكتوباً في

ديوان ضياع الرشيد- يشير إلى نهايتهم غير المتوقعة، فنظرت في حساب السنة التي نكب فيها البرامكة، ووجدت، قد أثبت فيه، ثمن هدية، دفعتين من مال ضياع الرشيد، أهداهما إلى جعفر بن يحيى، بضعة عشر ألف دينار. وفيه بعد شهور من هذه الهدية، قد أثبت في الحساب ثمن نفط، وحب قطن، ابتيع، وحرق بها جثة جعفر ابن يحيى، بضعة عشر قيراطاً ذهباً(١١٥).

فالمفارقة تتخلق من قراءة النصين معاً؛ إذ ليس بالضرورة أن المماطلة في تصريف حاجات الناس وتسهيلها حباً في السيطرة والتسلط، تعني استفحال الشر ودوامه وغياب خيار الناس، وليس أدل على ذلك من النص الذي يشير إلى مصير هؤلاء الناس، وهو المثبت في ديوان ضياع الرشيد حسبما يقول الخبر.

ومن الأخبار القائمة على المفارقة في هذا النظام؛ لبيان وجهة نظر المحسّن التنوخي تجاه الخلفاء. ما يروى عن المقتدر أنه طلب من صاحب مائدته أن يصنع سلة طعام، ينفق عليها من عشرة دنانير إلى مائتي درهم يومياً وتسلم لرئيس الملاحين تحسباً لخروج المقتدر يوماً إلى بستان الخلافة على غفلة فيأكل منها. وقد جاء هذا الطلب بعد أن تأخر صاحب المائدة عن تقديم الطعام للمقتدر في واحدة من نزهاته، فقدم له رئيس الملاحين ما بحوزته من طعام(١١٦). وظلت هذه السلة رسماً قائماً إلى أن قتل المقتدر. والخبر ينتهي بالقول "وما ركب المقتدر بعدها، على غفلة، ولا احتاج إليها"(١١٧).

أما الخبر الذي يليه فيروي عن موقف للمعتضد(١١٨)، شبيه بما ورد في الخبر السابق، إلا أن المعتضد استهول أن ينفق على صنف لم يأكله، بعد أن رأى ما أنفق على ذلك اللون من الطعام طوال السنة، فقال : "استغفر الله، ينفق لي من مال المسلمين، على لون لم آكله، هذا كله، إنّ هذا لعين السرف، اقطعوا عمله، ولا تقع معاودة لمثل هذا، في هذا ولا في غيره"(١١٩).

فقـرار المقـتدر صادر عن شخصية أنانية لا يهمها سوى تلبية شهواتها مهمـا كـان الثمن[١٢٠]، أما قرار المعتضد فيصدر عن حرص شديد على مال المسلمين، أين ينفق؟ وكيف؟[١٢١].

٣- *التعاقب السببي :*

ويعني أن علاقة سببية تستدعي تقديم خبر على آخر؛ ففي أحد الأخبار، يعمـد الراوي صافي الحرمي، مولى المعتضد إلى تقديم نبوءة المعتضد -التي يـرى فيها أن قتل ابنه المقتدر، وكان طفلاً، فيه صلاحاً للأمة- بسقوط الدولة على يد ابنه المقتدر، وتتحقق هذه النبوءة في نهاية الخبر المروي وفي الأخبار التي تليه. فالخبر يقدم مشهداً يصور فيه - كما رآه صافي الحرمي والمعتضد- المقـتدر وهـو جالس وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه في السن، وبين يديه طبق فضة، فيه عنقود عنب، في وقت فيه العنب عزيز جداً، والصبي يأكل عنبة واحدة، ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة، على الـدور[١٢٢]. وبعد هذا المشهد يصـّـرح المعتضـد قائلاً للراوي : "والله، لولا العار والنار، لقتلت هذا الصبي اليوم، فإن في قتله صلاحاً للأمة"[١٢٣].

قـد ينمّ هذا الموقف، كما يبدو، أول وهلة، عن طبقية ترفض المساواة بيـن خلـيفة المستقبل والوصائف. لكن الخبر كما يرويه صافي الحرمي مولى المعتضد، يتجاوز في مدلوله، هذا الأمـر، إلى تسويـغ عملية خلع المقتدر فيما بعد، طالـما أن في قتله كما يقول والده صلاحاً للأمة، وإدانة واضحة للمقتدر ولعهـده. إن مـا رآه المعتضد في المشهد السابق سيؤدي فيما بعد إلى سيطرة النسـاء على المقتدر، لقرب عهده بهن، فيقسم ما جمعه المعتضد من الأموال، كما قسم العنب، "ويبذر ارتفاع الدنيا ويخربها، فتضيع الثغور، وتنتشر الأمور، وتخرج الخوارج، وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال الملك عن بني العباس

أصلاً"[١٢٤]. وقد لحظ المعتضد ميل المقتدر، ابنه، إلى التبذير والإسراف منذ أن كـــان صبياً في الخامسة. وسرعان ما تتحقق نبوءة المعتضد في الخبر ذاته بعد موتـــه وقصر مدة خلافة المكتفي من بعده وتولي المقتدر مقاليد الخلافة، فكانت الصـــورة كما قال عنها المعتضد. ويقدم (الراوي- صافي الحرمي) مشهداً من مشـــاهد إســـراف المقتدر في سكره، وتبذيره لأموال الدولة فيقول ؛ "فكنت كلما وقفت على رأس المقتدر وهو يشرب، ورأيته قد سكر ودعا بالأموال، فأخرجت إلـــيه، وحلـــت الـــبدر[١٢٥]، وجعل يفرقها على الجواري والنساء، ويلعب بها، ويمحقها، ويهبها، ذكـــرت مـــولاي المعتضـــد وبكـــيت"[١٢٦].

ويعقب هذا الخبر مباشرة ستة أخبار تتحدث عن إسراف المقـــتدر[١٢٧]، ووالدتـــه[١٢٨]، وإسراف الراضي[١٢٩] من بعده، إلى أن يختم هذه الأخبار بخبر يتحدث فيه عن الخليفة الراضي وقد ختم الخلفاء في أمور عدة، منها ؛ أنه آخر خلـــيفة لـــــه شِـــعر، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب على منبر في يوم جمعة...، وآخر خليفة كانت نفقته، وجوائزه، وعطاياه، وخدمته، وجراياته، وخزائنه، ومطابخه، وشرابه، ومجالسه، وخدمه، وحجّابه، وأمـــوره،، جارية على ترتيب الخلافة الأولى، وآخر خليفة سافر بزي الخلفاء القدمـــاء.. الخ[١٣٠]. وذلك كله يوحي بتحقق نبوءة المعتضد التي أشار فيها إلى زوال الملك عن بني العباس.

وتتبدى هذه الطريقة أيضاً في الأخبار التي تروي عادات الأمم الأخرى، كمـــا فـــي الخـــبر الذي يقدم معلومة عن قوم بالهند يقال لهم الجبارية. وهؤلاء "يأكلون الميتة، ويقذرهم جميع أهل الهند، وعندهم أنهم إذا ماسوهم نجسوا"[١٣١]. فلا يشرب من مائهم، ولا يأكل من طعامهم، ولا يخالطهم أحد، لذا فإن الجباري يضـــع فـــي عـــنقه طبلاً، ليسمع صوته، فيتنح الآخر عن طريقه، وإذا لم يتنح الآخر، فليس على الجباري شيء. أما إذا خالف الجباري هذا الرسم ولم يضرب

الطبل، واقترب من الآخر ومسه، فإن الآخر يقتل الجباري ولا يتحمل تبعة هذا العمل. وأخيراً فإن الجباري من أبرع الناس في الرمي، لأن معاشهم من الصيد.

وعلــى الرغم من قبح الصورة المرسومة للجباري في هذا الخبر، إلا أن ما روي عنه سيكون سبباً في نجاة تاجر مسلم من اعتداء على يد بابواني[١٣٢]- كما في الخبر الذي يلــيه[١٣٣]- بعد أن وجده منفرداً عن إخوانه التجار. فساومه على حياته، ففطن التاجر إلى الحيلة في الخلاص، فعمل على الاستجارة برجل مــن الجــبارية. ولأن البابوانــي يســتقذر الجباري ولا يدخل داره، فقد تمت المفاوضــات بيــنهما دون أن يدنو أحدهما من الآخر، إلى أن اتفقا على تسليم التاجر للبانواني في الصحراء. ولأن الجباري بارع في الصيد كما أشار النص الســابق فقد نجا المسلم من القتل، بعد أن استغل الجباري غفلة البانواني ورماه بســهم، فخرّ صريعاً يضطرب، ومات[١٣٤]. والخبر يتوسع في نقل الحوار بين البابوانــي والجــباري، فــي وقت ضعفت فيه نفس التاجر وأيقن بالهلاك وهو يصيح؛ الله، الله في دمي[١٣٥].

٤-*الخلط أو التداخل:*

أخــيراً يلحــظ القارئ في النشوار ترتيباً للأخبار، يعصب تصنيفه تحت عــنوان محــدد، وإذا جاز لي أن أضع لــه عنواناً فهو الخلط، أو التداخل. إنه يورد مجموعة من الأخبار تحمل مضامين مختلفة، وتروى ظاهرياً بحياد وترد في أماكن متفرقة؛ بحيث لو نظر إلى كل خبر منها منفرداً لوجد أنه يتوافق مع بعــض مــا يسبقه أو يعقبه، ولو نظر إلى هذه الأخبار مجتمعة على الرغم من تــباعدها، مــن حيث الموقع في النشوار وفي كتبه الأخرى، لوجد أنها توحي بوجهــة نظره تجاه ما حدث أو على الأقل تثير تساؤلات حوله، من مثل الخبر الــذي يروي وقائع محاكمة الحلاج واتهامه بالكفر والإلحاد.

هذا الخبر يأتي في سياق الأخبار التي تروى عن الصوفية، وما يدّعيه أصحابها من الصبر على الجوع لأيام طويلة، وقدرتهم على الإتيان بالخوارق، وهي في أغلبها منـــزع منه السخرية وعدم التصديق[١٣٦]. إلا أن خبر محاكمة الحلاج يختلف عن الأخبار السابقة، من حيث حياد الراوي وموضوعيته في نقل وقـــائع المحاكمة[١٣٧]. ولعل أهم ما يلحظه القارئ في هذه المحاكمة هو التسرع فـــي إصدار الحكم على الحلاج، فالوزير حامد بن العباس استفتى القاضيين أبا جعفر أحمد بن إسحاق التنوخي، والقاضي أبا عمر محمد بن يوسف وهما قاضيا بغـــداد. أما الأول فلم يُفْتِ بقتله، لأنه لم يقرّ بأنه يعتقد ما نسب إليه، لأن الناس قد يروون الكفر ولا يعتقدونه[١٣٨]، وكان الحلاج قد نفى ما نسب إليه من أقوال مـــثل؛ إنـــه الـــباب[١٣٩]، وإنـــه صاحب الزمان[١٤٠]، وإنه صاحب النامـــوس الأكـــــبر[١٤١]، وأنه هو هو[١٤٢]. وأما الآخر فأفتى بقتله، لأن هذه زندقة، يجب علـــيه القتل بها، والزنديق لا يستتاب[١٤٣]. فعمل الوزير بفتوى أبي عمر، وقد تولـــى حـــامد بن العباس إقناع المقتدر بقتل الحلاج قائلاً لـــه : "إن بقي، قلب الشريعة، وارتد خلق على يده، وأدى ذلك إلى زوال سلطانك"[١٤٤]. فدافعه للتنفيذ سياسي وليس دينياً محض.

وإذا مـــا تركت المحاكمة جانباً، يجد المرء التنوخي يورد أخباراً مختلفة يشـــير فـــيها إلـــى حدة طبع الوزير حامد بن العباس وسرعـــــة طيشه وسفه لســـــانه[١٤٥]، ممـــا دفع ابن عبدوس الجهشياري إلى القول له مرة : "لعن الله زماناً صرت فيه وزيراً"[١٤٦].

أمـــا القاضـــي أبـــو جعفر فقد أثبت له المحسِّن التنوخي مجموعة من الأخبار تشير إلى عدله وعلو مكانته زمن المقتدر[١٤٧]، وأنه لا يخشى في قول الحق لومة لائم[١٤٨].

إن مكانة أبي جعفر القاضي التنوخي كانت تثير حسد القاضي أبي عمر، ومع أن التنوخي يثبت أخباراً تشهد لأبي عمر بالذكاء والعلم وحسن التصرف[١٤٩]، إلا أنه يشير في أخبار أخرى إلى حبه للظهور[١٥٠]، وتحايله في الأحكام[١٥١].

وإذا كان التنوخي أبو جعفر القاضي لا يخشى في قول الحق لومة لائم، فإن القاضي أبا عمر قال الحق وتراجع عنه كما في الخبر الذي يروي فيه أبو عمر ما يشبه الاعتراف عن تجربته في السجن مع أبى المثنى أحمد بن يعقوب القاضي والقائد محمد بن داود الجراح بتهمة الاشتراك في حادثة خلع المقتدر[١٥٢]. إذ يتحدث أبو عمر عما انتابه من مشاعر الخوف والرعب لما شاهده من تصفية جسدية لأبي المثنى القاضي وللوزير محمد بن داود الجراح الذي رفض التراجع -حسب الخبر- وأصر على أنه لم يكفر وإن اشترك بحادثة خلع المقتدر. والذي قال حين طلب منه الاستتابة: "أعوذ بالله من الكفر، ما أتيت ما يوجب الكفر. وحين سئل : لمَ نكثت بيعة المقتدر؟ أجاب : لأنه لا يصلح للإمامة"[١٥٣]. أما ابن الجراح، فلم يستتب وذبح كما تذبح الشاة على حد قوله، وقد قدم للذبح.

إن ما سمعه القاضي أبو عمر ورآه من قتل لابن الجراح ومحاولة استتابة لأبي المثنى القاضي ثم قتله في السجن، جعله يشيب في ليلة واحدة. فالنص يفيض بوصف مشاعر الخوف من كل حركة تسمع، ومن كل ضوء يشاهد، إذ أصبحت كل حركة تنذر بعملية قتل جديدة يقول مثلاً : "فلما كان ذات ليلة، وقد غلقّت الأبواب، ونام الموكّلون بنا، ونحن نتحدث في بيوتنا، إذ حسسنا بصوت الأقفال تفتح، فارتعنا، ورجع كل منا إلى صدر بيته. فما شعرنا إلا وقد فتح الباب عن محمد بن داود، فأخرج، وأضجع ليذبح...، وذبح، وأنا أراه من شق الباب، وقد أضاء الصحن، وصار كأنه نهار من كثرة الشموع، واجتزوا

رأســه، وأخرجوه معهم،... فما مضت إلا ساعات يسيره، حتى سمعت أصوات الأقفــال تفتح، فعاودني الجزع، وإذا هم قد جاءوا إلى بيت أبي المثنى، ففتحوه، وأخرجوه... ثم أضجعوه، فذبحوه، وأنا أراه، وحملوا رأسه، وطرحوا جثته في البــئر"[١٥٤]. وحيــن جاء دور القاضي أبي عمر، وسئل عن سبب نكثه للبيعة أجــاب: الخطأ وشقوة الجد، وأنا تائب من هذا الذنب[١٥٥]، ثم توسط له الوزير ابن الفرات، فأخرج من السجن.

وعلى الرغم من أن الخبر ورد في باب "من خرج من حبس، أو أسر أو اعــتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال" ليثبت فيه حتمية حدوث الفرج مهما كانــت الظــروف، كما حدث مع القاضي أبي عمر الذي خرج من السجن حياً على الرغم من إحاطة الموت به من كل جانب. إلا أن الخبر يتضمن إدانة لهذا القاضي لتراجعه عن موقفه من حادثة خلع المقتدر. والعجيب أن الخبر يصوره مســرعاً إلى إهــدار دم الحــلاج دون استتابــة! [١٥٦].

تسلسل الأخبار وتتابعها في "الفرج" و "المستجاد" :

يــندرج الكتابان في ما يعرف بالمصنفات الجامعة الخاصة: التي تضم الأخــبار وترتبها على أساس موضوعي. فالنظام الذي يجمع بين أخبارهما هو نظــام غرضــي. فالفــرج بعد الشدة يعتمد على غرض أساس هو المحنة التي يــتعرض لها المرء، ولكنها تنحصر في أغلبها على المحن التي آل أمرها إلى انفــراج[١٥٧]. وقد قسمه تبعاً لذلك إلى أربعة عشر باباً. أما المستجاد فإنه يضم الأخبار التي تتصل بقيمة الكرم.

وهــذا الأمــر لــم يمــنع الباحثين من الوقوف عند كيفية ترتيب الأخبار وتداعــيها. إن نظام تتابع الأبواب في الفرج -كما يرى محمد حسن عبدالله- لا يخضــع لمعيار واحد، فالأخبار اختيرت على أساس من الشكل الفني : الشدة-

الفــرج. وهو أساس سليم، يعبر عنه بلغة الفن الأدبي بكلمتين ؛ الأزمة والحل. ويرى أنه في إطار هذا التقسيم العام، نجد تقسيماً آخر داخل كل باب، وإن كان التداعــي لـــــه الدور الأساسي في تتابع الأخبار والقصص. فيتوقف عند تتابع الأبــواب أولاً، فالــباب الأول والثاني استحقا الصدارة لصلتهما بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وقصص الأنبياء السابقين. أما توزيع الأبواب الأخرى فإن سبب الشـــدة غالباً ما يؤخذ بعين الاعتبار من مثل الأبواب الآتية : الخامس والتاسع والعاشــر والحادي عشر والثالث عشر في حين يراعي البابان الثالث والسادس أسـلوب الخلاص. ويرى أن التنوخي يتدرج في تنمية الشكل الفني من البساطة إلى التعقيد ومن الإيجاز إلى الإطالة والإشباع، ومن الغيبي الديني إلى الواقعي الاجتماعي. وأخيراً فإن التنوخي يستدر المادة القصصية بطريق التداعي داخل الباب الواحد، فيحصر أنواع التداعي في ما يأتي :

١- تداعٍ مصدره شخصية البطل الذي يدور الخبر حوله.

٢- تداعٍ مصدره شخصية الراوي أو الكتاب الذي ينقل عنه.

٣- تداعٍ ومصدره المغزى الدقيق للحادثة أو المعنى اللغوي له[١٥٨].

أمــا بشير الوسلاتي، فيرى أن أبواب الفرج قسمت وفق تنوع الشدائد، فثمة محن تعرض للمرء نتيجة سجن يزج فيه، أو مرض يلم به، أو عشق يستبد بفؤاده، أو حيوان مهلك يدهمه، أو فقر مادي يصيبه... وغير ذلك من الدوافع، وقــد جعــل لكــل ســبب باباً مخصوصاً، دون ترتيب الأخبار ترتيباً تاريخياً. ويضيف الوسلاتي، أن إضافة التنوخي لا تتمثل في طريقة التبويب المنظمة، فقد سبقته مصنفات أخرى، بل يتجلى في المنطق الذي يحكم هذا التبويب. فالأبواب خاضعة لتدرج تفاضلي قيمي ينمّ عن نزعة دينية أخلاقية لدى القاضي التنوخي. فالباب الأول جعله يتعلق بالقرآن وقصص الأنبياء، والثاني والثالث ذكر فيه ما

جاء في الآثار وأقوال الرسول ﷺ الخاصة بالفرج، أما الباب الرابع فقد خصصه للمحن الناتجة عن غضب السلطان(١٥٩).

ولعل أهم ما يلحظ على الأخبار في كتاب الفرج، ظاهرة اختلاف الروايات وفيها يعمد المحسِّن التنوخي إلى ذكر الخبر الواحد بروايات مختلفة إما بهدف تقديم الخبر وروايته من وجهات نظر متعددة، وإما بهدف الالتفات إلى تفصيلات غابت عن الخبر السابق، وتقديم معلومات جديدة، وإما بهدف مسرحة الحدث وإعطاء الحوار حيزاً أكبر، وإن ظل الحوار في هذه الأخبار يقف على أرضية سردية، وإما بهدف إفساح المجال لظهور المشاعر الداخلية (للراوي-الشخصية). من مثل حادثة إنقاذ أبي دلف من موت محقق التي رويت بأربعة أخبار كل خبر يختلف عن الآخر، ومدارها حول إلقاء الأفشين القبض على أبي دلف ومحاولة قتله، ودور ابن أبي دؤاد في إنقاذه. فالخبر الأول لا يكتفي بسرد حادثة الإنقاذ فقط، إنما يتعداها ليجعل من هذا الموقف سبباً في عداوة الأفشين لابن أبي دؤاد. ومع أن العداوة؛ كانت نتيجة لدور الأخير في الإنقاذ، إلا أن الراوي وهو والد المؤلف يبدأ سرده للخبر من سبب العداوة ؛ لأهميتها يقول المحسِّن: "حدثني أبي ﷺ، بإسناد لست أقوم عليه، لأني لم أكتبه في الحال، فقال : كان ابتداء العداوة بين ابن أبي دؤاد، وبين الأفشين، إن الأفشين كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، لعداوة كانت بينهما، فسلمه إليه المعتصم، فأجمع على قتله من يومه ذاك(١٦٠)،... ثم يكمل سرد ما حدث لأبي دلف إلى أن يتم إنقاذه، بعد أن أوهم ابن أبي دؤاد الأفشين أنه يحمل رسالة من المعتصم تتعلق بإنقاذ أبي دلف. أخيراً إن الخبر يروى بضمير الغائب ويعتمد التلخيص في سرد الحادثة. وتشير الرواية الثانية للخبر الذي يُروى بإسناد مغاير(١٦١) إلى أن عداوة ابن أبي دؤاد للأفشين كانت سابقة على محاولة إلقاء القبض على أبي دلف. ويظهر في هذا الخبر تدخلات (التنوخي-المؤلف)، عندما يقول : "ثم ذكر -عن الراوي- نحواً مما ذكره عن أبي ﷺ، إلا أنه لم يقل

فـــي خـــبره أن ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً، ثم عاد فوجده قد انتبه، وقال في آخر حديثه ؛ إنما أنت رجل رفعتك دولة فإن رضيت فلها، وأن قعـــدت فعـــنك"[١٦٢]. في حين ورد في نهاية الخبر السابق أنه قال للأفشين: "ما آتيك تعززاً من ذلة، ولا تكثراً من قلّة، وإنما أنت رجل ساعدك زمان، ورفعك سلطان، فإن جئتك فلّه، وأن تأخرت عنك فلنفسك"[١٦٣].

أما الرواية الثالثة للخبر[١٦٤]، فيذكر فيها دوافع الأفشين لقتل أبي دلف، فـــي حين غُيِّب هذا الدافع في الخبرين السابقين "كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، في جملة من كان مع الأفشين خيذر بن كاوس لما خرج لمحاربة بابك، ثـــم تـــنكر لـــــه، فوجـــه من جاءه به ليقتله"[١٦٥]. ويشير هذا الخبر إلى دور المعتصـــم فـــي إنقـــاذ أبـــي دلف، وأن ابن أبي دؤاد اندفع لإنقاذه بتكليف من المعتصـــم. فقد ورد فيه : "وبلغ المعتصم الخبر، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد، وقـــال لـــــه : أدركـــه، وما أراك تدركه، واحتل في خلاصه منـــه كيـــــف شئـــت"[١٦٦].

وإذا كان الخبر الأول اعتمد التلخيص في سرد الحادثة، فإن هذا الخبر اعتمد مسرحة الحدث وإن قدمت بإطار سردي؛ يظهر هذا عندما توارى الراوي قلـــيلاً وأفسح المجال لظهور ابن أبي دؤاد والأفشين أمامنا لسماع الحوار الذي دار بيـــنهما. وهذا الحوار الذي قُدم من وجهة نظر ابن أبي دؤاد منحنا الفرصة لمعـــرفة الجهد الذي بذله في سبيل إنقاذ أبي دلف، وهو جهد يضاف إلى جهوده الكثـــيرة لإنقاذ الآخرين. وبيّن لنا وجهة نظره تجاه الأفشين، فهذا الأخير مهما عـــلا وتقـــدم في المناصب لا يعدو كونه عبداً، يقول ابن أبي دؤاد : "قلت، هذا عـــبد، وقد أغرقت في الرقة معه فلم تنفع، وليس إلا أخذه بالرهبة"[١٦٧]، فصدق حدســـه، فعندما ذكر لـــه، أنه يحمل لـــه رسالة من المعتصم، "فقلّ، وذلّ، حتى لصق بالأرض، وبان لي الاضطراب فيه"[١٦٨].

أما الرواية الأخيرة[١٦٩] للخبر فيذكر فيها تفصيلات أكثر عن سبب نقمة الأفشين على أبي دلف، إذ كان الأفشين نقم على أبي دلف العجلي، وهو مضموم إلـيه في حرب بابك، "فلما ظفر ببابك، وقدم سرّمن رأى، شكاه إلى المعتصم، وسـأله ليأمره به، ففعل..."[١٧٠]. وقد ذكر ابن أبي دؤاد هذا السبب للمعتصم، قـائلاً: "إن الأفشـين ظالم له، وإنما نقم عليه نصيحته في محاربته بابك، وجدّه فـيها، ودفعـه ما كان الأفشين يذهب إليه من مطاولة الأيامن وإنفاق الأموال، وانبسـاط الـيد في الأعمال، وتركه متابعته على ذلك"[١٧١]. إلا أن عظم مكانة الأفشـين عـند المعتصم، دفعته، ليطلق يده على أبي دلف بعد أن ألح الأفشين علـيه، ففعـل، وكان المعتصم قد رفض قبل ذلك. وبعدها أصبح ابن أبي دؤاد راويـاً مشـاركاً في الحدث وشاهداً عليه، بعد أن كان يروى بضمير الغائب؛ فعـندما علم من المعتصم أن الأفشين ألقى القبض على أبي دلف، سار إلى دار الأفشـين. والخـبر يغرق في تفصيلات رحلة أبي دؤاد من الجوسق إلى مكان الأفشـين، وهو يسابق الزمان، قبل أن يحدث الأفشين عليه حادثة"[١٧٢]. "فوجد الأفشـين في موضعه من داره، وأبو دلف مقيد بالحديد بين يديه في نطع، وهو يقرّعه ويخاطـبه بأشـد غضـب وأعظـم مخاطبـة[١٧٣]".

أشـار ابـن أبي دؤاد في الخبر السابق إلى عبودية الأفشين، أما في هذا الخـبر فقـد بيّـن ملامح عبوديته بصورة أوضح؛ فعندما قال لـه ؛"قد عرفت حرمتـي بأمـير المؤمنين، وخدمتي إياه، وموضعي عنده، وموقعي من رأيه، وتفـرده بالصنيعة عندي والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلي إليك، ومحبتي لك، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك، ممن رفع الله قدره وأجلّ خطره وأعلـى همته"[١٧٤]. فلم يقبل منه. فقال لـه ابن أبي دؤاد مبيناً مكانة أبي دلف: "القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها، فاستبقيه، وأنعم عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً فهبه للعرب. وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب، ومـن ذلـك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملّكه، وأنت الآن بقية العجم

وشـــريفها، والقاسم شريف العرب، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب"[١٧٥]، ولكن الأفشين تنكر لـــه، ولما قام ابن أبي دؤاد ضارعاً إليه، سائلاً، كان جوابه أغلظ. وهنا تحير ابن أبي دؤاد وقال في نفسه : "أنكب على رأســه، فأقــبّله، فدخلني من ذلك أنف شديد، وقلت في نفسي : أقبلّ رأس هذا الأقلــف؟ لا يكــون هــذا أبداً ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف، فقبّلت رأسه، وضــرعت إلــيه، فلم يجبنـــي"[١٧٦]. وعندما أدرك أن الأفشين لن يتراجع عن موقفــه، أدعّــى لـــه أنه رسول أمير المؤمنين إليه بأن لا يحدث في القاسم بن عيسى حدثاً، فإنك إن قتلته قتلت به"[١٧٧].

وبمـــا أنـــه لا يحمـــل رســـالة حقيقة من المعتصم، فقد سارع إلى دار الخلافـــة، وأبلغ المعتصم بما حدث، فوافقه على فعله، وكان هذا الأمر سبباً في غضـــب المعتصـــم علـــى الأفشين، وقد عبر عن هذا قائلاً : "يمضي قاضيّ، وصـــنيعتي أحمـــد بن أبي دؤاد إلى خَيذر، فيخضع له، ويقف بين يديه، ويقبل رأسه، فلا يشفعّه ! قتلني الله أن لم أقتلـــه"[١٧٨].

فالأخـــبار تـــندرج من البساطة إلى التعقيد ومن التلخيص إلى مسرحة الخـــبر، ومن الاقتصاد في الوصف إلى الإغراق فيه لتؤكد أن الفرج قادم على الرغم من خطورة السير في طريقه، وصعوبة الوصول إليه[١٧٩].

أما كتاب المستّجاد من فعلات الأجواد، فإن النظام الغرضي يتداخل مع النظام الاتفاقي الذي يقوم على ذكر الأخبار المتعلقة بالكرم كيفما اتفق. ومع أن تســمية هذا نظاماً فيه شيء من المفارقة إلا أن التنوخي حدد لنفسه غاية وسعى إلـــى تحقـــيقها من خلال الأخبار التي تعلي من قيمة الكرم في المجتمع وتحث علـــيه. وهـــي تـــتفاوت بين الطول والقصر وأغلبها منتقاة من كتابي "النشوار" و"الفرج بعد الشدة"[١٨٠].

ولعـــل أهم ما يلحظ على هذا الكتاب قصر الأسانيد، من مثل "سأل رجل الحســـن"[١٨١]، أو قال المحاسبي[١٨٢]، أو قال الواقدي[١٨٣]، أو حذفها من مثل " قـــيل ... ويكمــــل الـــخـــبر"[١٨٤] أو "روى أن ..." [١٨٥]، أو اجتمـــع قـــراء البصـــرة إلى ابـــن عبـــاس"[١٨٦].

الهوامـــــش

١- الكلام والخبر، سعيد يقطين، ص ٢٠٩-٢١١.

٢- نفسه، ص ٢٠٩.

٣- Authorship and Transmission in Unauthored Literature The Akhbar attributed to Al-Haytham Ibn Adi، Stefen Leder ، Oriens، Vol؛ 31، 1988، p. 67.

٤- يجعـــل سعيد يقطين من الخبر جنساً مستقلاً إلى جانب الحديث والشعر. فالخبر والحكاية والقصة والسيرة أنواع خبرية أصلية، لأنها ثابتة ويمكن أن توجد متعالية عن الزمان والمكان. وينطلق في إثبات طابعها الأصلي من خلال مبدأين. الأول مبدأ التراكم الذي تتدرج فيه الأحداث على أساس تراكمـــي؛ فالخـــبر أصـــغر وحدة حكائية، والحكاية تراكم لمجموعة من الأخبار المتصلة، والقصة تراكم لمجموعة من الحكايات، والسيرة تراكم لمجموعـــة مـــن القصـــص. والآخر؛ مبدأ التكامل ويتجلى هذا المبدأ في النوعيـــن الأول والثانـــي علـــى أساس الحدث في حين يتصل النوعان الآخـــران بـــــ "الشخصية" فالخبر والحكاية يتركزان بشكل خاص حول أحداث معينة، في حين ينصب التركيز في القصة والسيرة على شخصية معيـــنة، ومـــن خـــلال التراكم يتحقق نوع من التكامل بين هذه الأنواع الأربعة. (الكلام والخبر، ص ١٩٥-١٩٦). سنؤجل الحديث عن الأنماط إلى الفصل الثالث وإلى الجزئية المتعلقة بتصنيف الأخبار في كتاب الفرج بعد الشدة.

٥- المقامات ؛ السرد والأنساق الثقافية، عبدالفتاح كيليطو، ص ١٩٩.

٦- فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، ص ٧٣.

٧- سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٧.

٨- النشوار ١:٨.

٩- نفسه ١:١٣.

١٠- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ص ٢٩٨.

١١- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي...، فلتشينسكي، مرجع سابق، ص ٥٤.

١٢- النشوار ١:٨.

١٣- نفسه ١:١٠.

١٤- نفسه ١:٨.

١٥- نفسه ١:٨.

١٦- سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٨؛ النشوار ١ : ٢-٧.

١٧- الخبر في الأدب العربي، ص ٤٣٢.

١٨- الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال، سيزا قاسم (ضمن كتاب الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع).

١٩- ينص الطبري أن **تاريخه** يشمل ذكر "تاريخ الملوك الماضيين وجمل من أخبارهم، وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم، وأيام السالفين وبعض سيرهم، ومبالغ ولاياتهم، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم" ١:٧. وجاء في **كشاف** التهانوي أن التاريخ "تعيين يوم ظهر فيه أمر شائع من ملة أو دولة أو حدث فيه أمر هائل كزلزلة وطوفان

ينسب إليه، أي إلى ذلك اليوم ما يراد تعيين وقته في مستأنف الزمان أو مستقدمة"، ١:٢٦٥، وانظر : الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، عزيز العظمة، ص ١٢-١٣.

٢٠- الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، ص ٤٤.

٢١- النشوار ١: ٢-٧.

٢٢- انظر؛ بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب، وجيه كوثراني، الفكر العربي المعاصر، ع١٩٧٨/٢، ص ٦٢-٦٣.

٢٣- الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، ص ٥٣.

٢٤- نفسه، ص ٥٩.

٢٥- فن القص في النظرية والتطبيق، ص ٨٣.

٢٦- تجارب الأمم، مسكويه، ١: ٨٣.

٢٧- الفرج ٢ : ١٥٠.

٢٨- نفسه ٢: ١٥٠.

٢٩- القصّ في أخبار الفرج بعد الشدة، حوليات الجامعة التونسية، ع ١٩٩٧/٤١، ص ١٠٠.

٣٠- الفرج، ٢: ٦٣-٦٦؛ وانظر؛ هذه الحادثة في تاريخ الطبري ٩ : ١٢٥-١٢٨؛ والمنتظم، لابن الجوزي ١١: ١٤٤؛ والكامل لابن الأثير ٧ : ١٠؛ والفرج ١: ١٨٦-١٨٨، إذ يروي الخبر من وجهة نظر أخرى.

٣١- انظر : الفرج ٢: ٦٠-٦٢، ٦٦-٧٥؛ والنشوار ١ : ١٠١-١٠٤؛ والمستجاد، ص ١٤١-١٤٤، ١٤٨-١٤٩، ١٤٩-١٥٢، ٢٠٦-٢٠٨.

٣٢- يقول صاحب تاريخ بغداد "ولى ابن أبي دؤاد قضاء القضاة للمعتصم، ثم للواثق، وكان موصوفاً بالجود والسخاء، وحسن الخلق وموفور الأدب، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن" ٤ : ٣٦٥، ويقول صاحب **أخبار القضاة** ؛ "ثم وكلي أحمد بن أبي دؤاد بن جرير الإيادي قضاء القضاة للمعتصم والواثق وبعض أيام المتوكل. وكان يمتحن الناس في القرآن ويضرب ويقتل عليه، وأقسر الخلفاء في هذا الوقت على هذا المذهب"٤ : ٣٦٥.

٣٣- المثقفون في الحضارة العربية، محمد عابد الجابري، ص ٨٨. لا يتبنى الجابري هذا الرأي، ولكنه يحكى آراء أهل السنة بداية، لينطلق منها فيما بعد إلى تفنيدها.

٣٤- الفرج ٢: ٦٣.

٣٥- نفسه ٢: ٦٣.

٣٦- نفسه ٢ : ٦٤.

٣٧- نفسه ٢ : ٣٥١-٣٥٤.

٣٨- نفسه ٢ : ٣٥٢.

٣٩- نفسه ٢:٣٥٢.

٤٠- انظر ما كتب عن موت الواثق، تاريخ الطبري ٩:١٥٤؛ ومروج الذهب ٤: ٣٧٧؛ في حين أورد هذا الخبر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، وهو من المؤرخين المتأخرين، الكامل ٧ : ٣٠.

٤١- النشوار ٢ : ٧٢، وجاء فيه أن هشام بن عبدالملك حين رأى- وهو في النزع الأخير- ما يفعله الخزان، قال : "ما أرانا إلا كنا خزاناً للوليد بن يزيد"، نفسه، ٢ : ٧٥.

٤٢- النشوار ٢ : ٧٢.

٤٣- نفسه ٢ : ٧٤.

٤٤- يـــرى بعـــض الباحثين أن لمحنة القول بخلق القرآن جانباً سياسياً يقول فهمي جدعان مثلاً : "والحقيقة أنه لم يكن وراء أشكال الامتحان هذه كلها إلا صـــراع الغايـــات – الدينـــية والسياسية- من وجه، وصراع السلطة والســـيادة على "السياسي" من وجه آخر. أما الصراع الأول فلم يكن أمام مـــنطق الملك من سبيل إلى تخطيه غير اجتياز الديني وتزيين الدولة به، وتوظيفه لمصلحة "السياسي" باعتماده سنداً وظهيراً للدولة لاقوام لها بدونه ولا قـــوام له بدونهـــا، محتفظاً لنفسه بطبيعة الحال بكلمة الحسم الأولى والنهائـــية. وأما الصراع الثاني فأعظم شأناً وأشد خطراً إذ هو يمثل هذا الـــتقابل –الـــذي يرحم أو لا يرحم- بين قوة الدولة السائدة بمنطق الملك الملـــزم بالطاعـــة لـــه، وبين "القوة الموازية" الداعية إلى "دين الله" وإلى تغيير المنكر المستحفل في الزمان وفي الناس وفي الأئمة وأولى الأمر"، المحـــنة، ص٣٣٥ . لمزيد من التفاصيل انظر : المثقفون في الحضارة العربية، ص ٨٢ –١١١.

٤٥- الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، ص ٥٣.

٤٦- تاريخ الطبري ٩ : ٢٠٠؛ تاريخ بغداد ٧: ٣٦٩.

٤٧- النشوار ٢: ٢٣٤-٢٣٩؛ ورد الخبر في الفرج بطرق مختلفة، وهي كلها مسندة ٢ : ٢٢٣-٢٣٢.

٤٨- الفرج ٣ : ٢٠١.

٤٩- النشوار ٢: ٢٣٤-٢٣٥.

٥٠- نفسه ٢ : ٢٣٤-٢٣٥.

٥١- النشوار ٢: ٢٣٥.

٥٢- النشوار ٢: ٢٣٧.

٥٣- تـاريخ الطبري ٨: ٦٤٢، من المعروف أن أبا حسان أجاب إسحاق بن إبراهـيم فـي مسألة القول بخلق القرآن "القرآن كلام الله، والله خالق كل شـي، ومـا دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلّده الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، إن أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا. وإن دعانا أجبنا ... ما عندي إلا السمع والطاعـة، فمـرني آتمـر" نفسـه، ٢ : ٦٣٨.

٥٤- بناء النص التراثي، ص ١٣٨.

٥٥- إرشـاد السـاري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، باب التعبير، رقم الحديث، ٦٩٩٧، ١٤: ٤٣٦.

٥٦- تاريخ بغداد ٧: ٣٧٠.

٥٧- الـرؤيا فـي النص السردي العربي، نصـر حامـد أبو زيد، فصول مـج١٣/ع٣/١٩٩٤، ص ١٢٥.

٥٨- الوزراء، ص ٢٨-١٩٩.

٥٩- الفرج ٢: ١٤١-١٤٣.

٦٠- الفرج ٢: ١٣١-١٣٥، ٣٢٢-٣٢٦.

٦١- نفسه ٢: ٤٣- ٤٩.

٦٢- النشوار ٢:٣٢- ٣٥.

٦٣- نفسه ٨: ٣٨-٤٢.

٦٤- لــه مقولــة مشـــهورة فـــي السياســـة "أول أمور السلطان مخرقة، فإذا استحكمت، وتمت، صارت سياسة". النشوار ٣ : ١١٥.

٦٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤: ٢٩-٣٠، ٣١-٢٢.

٦٦- الوزراء، ص ٣٠٥-٣٦٣.

٦٧- تاريخ الطبري ٨: ٣٤١-٣٤٢؛ وازن مع ؛ الفرج ٣: ٣٥٨-٣٦٣.

٦٨- الفرج ٣: ٣٤٢-٣٤٤، ٣٤٥-٣٤٦، ٣٤٧-٣٥٠، ٣٥١-٣٥٢.

٦٩- الفرج بعد الشدة، محمد حسن عبدالله، مرجع سابق، ص ٥٧.

٧٠- Authorship and Transmission in unauthored، Oriens،Vol؛ 31، 1988،p. 68.

٧١- الخبر في الأدب العربي، ص ٤١٣.

٧٢- نفسه، ص ٤٣٢.

٧٣- مقــولات الســـرد الأدبـــي، تودوروف، ضمن كتاب (طرائــق تحليــل الســـرد، ص ١٤٧).

٧٤- نظرية المنهج الشكلي، ص ١٤٦.

٧٥- نفسه، ص ١٤٦.

٧٦- النشوار ١: ٢٥، ٢٦-٢٨، ٢٩-٣٥، ٣٦-٣٧.

٧٧- يقول ابن الأثير "اجتمع القواد، والقضاة، والكتاب، مع الوزير العباس بن الحسن، على خلع المقتدر، والبيعة لابن المعتز، وأرسلوا إلى ابن المعتز فـــي ذلك، فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دماء، ولا حرب، فأخبروه باجـتماعهم علــيه، وأنهم ليس لهم منازع ولا محارب. وكان الرأس في

ذلك العباس ابن الحسن، ومحمد بن داود الجراح وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القواد الحسين بن حمدان، وبدر الأعجمي، ووصيف بن صوارتكيه" ٨: ١٤؛ والفرج ٣ : ١٩٩؛ يقول ابن الأثير أيضاً : وفي هذه الحادثة عجائب منها أن الناس كلهم أجمعوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز، فلم يتم ذلك، بل كان على العكس من إرادتهم، وكان أمر الله مفعولاً، واستتر ابن المعتز عند ابن الجصاص، واستجار به، إلا أن خادماً له يعرف بسوسن، أخبر صافي الحرمي، بأن ابن المعتز عند مولاه، ومعه جماعة، فكبست دار ابن الجصاص، وأخذ ابن المعتز، وحبس إلى الليل، وعذب حتى مات ... وصودر ابن الجصاص على مال كثير". الكامل ٨ : ١٦-١٩.

٧٨- الخبر في الأدب العربي، ص ٤١٣.

٧٩- النشوار ١:٢٦.

٨٠- نفسه ١:٢٧.

٨١- يتكرر هذا الدور في أخبار أخرى عند التنوخي، فيكون للشخصية المحاورة دور في إنقاذ الشخصية الرئيسية من مأزقها أو في البحث لها عن حل، انظر الفرج ٣: ٢٣-٢٧؛ ٢: ١١٤-١١٥، ٣٣٦-٣٣٨.

٨٢- النشوار ١:٢٧.

٨٣- النشوار ١؛٢٨.

٨٤- النشوار ١: ٢٩.

٨٥- نفسه ١: ٣٠.

٨٦- النشوار ١: ٣٠. يبدو أن الفساد قد عم وأن الأحوال قد ساءت جداً بحيث أصبح الحمق محموداً، وقد يُذّكر هذا بالشعر الذي ورد على لسان أبي الفتح الإسكندري في مقامات الهمذاني، ص ١٠٩-١١٠:

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيف، ولكن حول اللئام يحوم

٨٧- النشوار ١: ٣٠.

٨٨- نفسه ١: ٣٣.

٨٩- نفسه ١: ٣٣.

٩٠- الفرج ٢: ٤٥-٤٦؛ وتجار الأمم ١: ٩٠.

٩١- النشوار ١: ٣٥.

٩٢- نفسه ١: ٣٢.

٩٣- نفسه ١:٣٦.

٩٤- نفسه ١: ٣٧.

٩٥- انظر أيضاً؛ الأخبار المتعلقة بعلي بن عيسى الوزير، النشوار ١:٤٢-٤٥، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٥.

٩٦- انظر مثلاً عن ثيمة الإسراف، النشوار ١: ٢٩٢، ٢٩٣-٢٩٤، ٢٩٥-٢٩٧، ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠١-٣٠٣.

٩٧- النشوار ٢: ٢٤٣-٢٤٥.

٩٨- النشوار ٢: ٢٣٠-٢٣٢.

٩٩- نفسه ٢: ٢٣٤-٢٣٩.

١٠٠- نظرية المنهج الشكلي، ص ١٣٦، ١٤٠، ٢٢٩.

١٠١- النشوار ١: ١.

١٠٢- قــزدار: مــن نواحي الهند ويقال لها قصدار، معجم البلدان، ٤: ٣٤١؛ بلدان الخلافة الشرقية، كي لسترنج، ترجمة بشــير فرنســيس وكوركيس عـــواد، ص ٣٦٨، ٣٧٠، وتقع في جمهورية باكستان الحالية؛ أطلس تاريخ الإسلام، خارطة رقم (٢٠٨)، ص ٤٢٣.

١٠٣- أبو هاشم الجبائي عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي، معتزلي من الطبقة التاسعة، توفي ٣٢١هـ. لمزيد من التفصيل انظر ترجمته في المنية والأمل، ص ٧٩-٨٢.

١٠٤- النشوار ٣: ٩٨-٩٠.

١٠٥- نفسه ٣: ٩٠.

١٠٦- بعـد دخول بني بويه إلى بغداد عام ٣٣٤هـ، بَطُل رسم الوزارة، وقام كاتب الأمير مقام الوزير، لذا فقد قسم الهلال الصابئ الوزراء إلى وزراء الدولــة العباســية، وكــتاب الدولة الديليمية. الوزراء، ص ٥؛ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ١٧٥.

١٠٧- النشوار٣:٩٢.

١٠٨- نفسه ٣:٩٣.

١٠٩- مقامــات بديع الزمان الهمذاني، وقصص البيكارســك، جيمس مونرو، ت: خليل أبو رحمة، ص ٢٦.

١١٠- النشوار ٣: ٨٩.

١١١- نفسه ٣: ٨٩-٩٠.

١١٢- نفسه ٣: ٨٩.

١١٣- نفسه ٣: ٨٩.

١١٤- نفسه ٨: ١٩٤.

١١٥- نفسه ٨: ١٩٦.

١١٦- نفسه ٣: ١٨٩-١٩١.

١١٧- نفسه ٣: ١٩١.

١١٨- النشوار ٣: ١٩٢-١٩٣.

١١٩- نفسه ٣: ١٩٢.

١٢٠- انظر مثلاً: النشوار ١: ٢٩٥؛ والفرج ٢: ١٣٦-١٤٠.

١٢١- انظر مثلاً: النشوار ١: ٢٦٦-٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ويدخل تحت هذا النظام الأخبار الآتية بين المعتضد والمقتدر، المصدر نفسه ٨ :٩٢ و ٩٣-٩٤؛ وسيف الدولة والمقتدر، نفسه ١: ٢٨١-٢٨٢ و ٢٨٢-٢٨٣.

١٢٢- نفسه ١: ٢٨٧.

١٢٣- النشوار ١: ٢٨٧.

١٢٤- نفسه ١: ٢٨٨.

١٢٥- البدر: جمع بدرة وهي عشرة آلاف درهم.

١٢٦- النشوار ١: ٢٨٩.

١٢٧- النشوار ١: ٢٩٥.

١٢٨- نفسه ١: ٢٩٢، ٢٩٣-٢٩٤.

١٢٩- نفسه ١: ٢٩٦-٢٩٧، ٢٩٨-٢٩٩.

١٣٠- نفسه ١: ٣٠٠.

١٣١- نفسه ٨: ٢١٧.

١٣٢- هناك قوم يقال لهم البابوانية: "قوم يجرون مجري المستقفين، والسلطان يطلــبهم، فإذا وقعوا في يده، وظفر بهم، فعل بهم، كما يفصل باللصوص والعيارين" النشوار ٨: ٢١٨.

١٣٣- النشوار ٨: ٢١٨-٢٢١.

١٣٤- نفسه ٨: ٢٢١.

١٣٥- نفسه ٨: ٢٢٠.

١٣٦- نفسه ١: ١٥٩-١٦٠، ١٦١، ١٦٥-١٦٨.

١٣٧- نفسه ١: ١٦٢-١٦٤.

١٣٨- نفسه ١: ١٦٣.

١٣٩- يعني الإمام، نفسه ١: ١٦٢.

١٤٠- يعني الإمام الذي تنتظره الأمامية، نفسه ١: ١٦٢.

١٤١- يعني النبي ﷺ نفسه ١: ١٦٢.

١٤٢- يعني الله عز وجل، نفسه ١ : ١٦٢.

١٤٣- النشوار ١: ١٦٣.

١٤٤- النشوار ١: ١٦٤.

١٤٥- نفسه ٨: ٨٥-٨٨. وأنه كان يتولى تعذيب الخصوم، نفسه ٣: ١٨٤-١٨٦.

١٤٦- نفسه ٨: ٨٧.

١٤٧- نفسه ١: ٢٥٨-٢٥٩.

١٤٨- أثبت الصابيء نصاً يشير فيه إلى دور هذا القاضي في إنقاذ الوزير علي بن عيسى من تهمة التعاون مع القرامطة الوزراء، ص٣١٧-٣٢٠، وكان لهذا القاضي مكانة عند التنوخي الوالد، لأنه أوصى بتقليده القضاء. النشوار ٣: ١٣٦-١٣٨.

١٤٩- النشوار ٢: ٨٩-٩٠.

١٥٠- نفسه ٢: ٨٣-٨٦، ٨٧-٨٨.

١٥١- نفسه ١: ٢٦٠-٢٦١.

١٥٢- الفرج ٢: ١٣١-١٣٦.

١٥٣- نفسه ٢: ١٣٣. وورد عنه في كتاب الكامل أنه قال : "لا أبايع صبياً". ٨: ١٧.

١٥٤- النشوار ٢: ١٣٢-١٣٣.

١٥٥- النشوار ٢: ١٣٣.

١٥٦- يمكن أن يدخل في هذا النظام الأخبار التي تروى عن المعتزلة في أماكن متفرقة من كتب التنوخي، انظر مثلاً: النشوار ١: ٢٢١-٢٢٤؛ ٢: ٢٠٨، ٣: ٥٢-٥٣؛ والفرج ٢: ٦٠-٦٢، ٦٣-٦٦، ٦٦-٧٥.

١٥٧- السـردية العربية، ص ١١٧، ١٧٨: الكلام والخبر، ص ٢١١-٢١٣؛ الخبر في الأدب العربي، ص ٤٢١، ٤٢٣.

١٥٨- الفرج بعد الشدة، محمد حسن عبدالله، ص ٢٥-٢٣.

١٥٩- القـصّ فـي أخبار الفرج بعد الشدة، بشير الوسلاتي، حوليات الجامعة التونسية، ع ١٩٩٧/٤١/ص ٩٥-٩٧.

١٦٠- الفرج ٢: ٦٦- ٦٧.

١٦١- أخبرنـي القاضي أبو طالب محمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، فيما أجـاز لـي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال : حدثنا محمد بن خلف، وكـيع القاضـي، قـال : أخبرنا موسى بن جعفر، أخو نعس الكاتـب، قـال ..."، الفـرج ٢: ٦٨.

١٦٢- نفسه ٢: ٦٩.

١٦٣- نفسه ٢: ٦٨.

١٦٤- ورد بإسـناد مختلف، وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال : "قال أحمد بن أبي طاهر". الفرج ٢: ٦٩.

١٦٥- نفسه ٢: ٦٩.

١٦٦- نفسه ٢: ٦٩.

١٦٧- نفسه ٢: ٦٩.

١٦٨- الفرج ٢: ٧٠.

١٦٩- وإســناده : "وأخبرني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحاتمي، قال حدثني أبي، قال : حدثني جدك المظفر بن الحسن، قال : حدثني أبو العباس ابن الفرات، قال : حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوابه قال ..." الفرج ٢: ٧٠.

١٧٠- الفرج ٢: ٧٠.

١٧١- نفسه ٢: ٧٠.

١٧٢- نفسه ٢: ٧١.

١٧٣- نفسه ٢: ٧١.

١٧٤- نفسه ٢: ٧١.

١٧٥- نفسه ٢ : ٧٢.

١٧٦- نفسه ٢: ٧٢-٧٣.

١٧٧- نفسه ٢: ٧٣.

١٧٨- نفسه ٢: ٧٤.

١٧٩- انظر مثلاً: الأخبار التي تنضوي تحت هذه الظاهرة في الفرج ١: ١٩٨-٢٠١، ٢٨٧-٢٩٢، ٣١٦-٣٢٠، ٣٣٩-٣٥٤؛ ٢: ٩٢-٢٢٣،١٠٠-٢٣٢، ٢٤١-٢٤٩؛ ٣: ٢٠٦-٢٢٠؛ ٤: ٧٥-٢٨٨.

١٨٠- انظـــر : المستجاد ٢١-٢٥، ٣٥-٤٢، ٤٦-٤٩، ٤٩-٥٣، ٦٦-٧٠، ٧٤-٨٥، ١٤١-١٤٤، ١٤٩-١٥٢، ١٥٣-١٥٦، ١٥٩-١٩٨، ١٦٠-٢٠٠، وازن مـــع الفرج مثلاً على التوالي ٤: ٧٥-٨٢، ٢: ٧٦-٨٤، ٣٤٠-٣٤٢، ٤: ٣٥٤-٣٥٧، ٣: ١٣٠-١٤٢، ٤: ٢٩٣-٢، ٢٩٩: ٦٣-٦٦، ٣٣٤-٣٣٧، ١: ٣٦٢-٣٦٥، ٢: ٦٠-٦٢، ٣: ٢٣٠-٢٣٢

١٨١- المستجاد، ص ١٠.

١٨٢- نفسه، ص ١٥.

١٨٣- نفسه، ص ١١٠.

١٨٤- نفسه، ص ٣٤.

١٨٥- نفسه، ص ١٠.

١٨٦- نفسه، ص ١٤.

الفصل الثاني

الماضي والحاضر في الخبر عند المحسّن التنوخي

-"النشوار نموذجاً-

ألــفَّ المحسِّـــن التنوخي النشوار لتدوين الموروث الإخباري (المحكي) المهـــدد بالضياع وتخليده، إلا أن رغبته الشخصية بالتدوين لا تنفصل بأية حال عـــن الـــتحولات التي شهدها عصره، وربما كانت استجابة لها. وقد أشار في مقدمـــة النشـــوار "أنه حضر المجالس بمدينة السلام، سنة ستين وثلاثمائة، بعد غيبـــته عـــنها ســـنين، فوجدهـــا مختلة ممن كانت به عامرة، وبمذاكرته آهلة ناضـــرة"(١)، ووجد اختلالاً في ذاكرته وذاكرة الآخرين حتّمت عليه التعجيل في التدويـــن(٢). ولـــم يـــتوقف الأمر عند الاختلال في الذاكرة، إنما ازداد صعوبة بتطاول السنين وموت "المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم إلا اليســـير الـــذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه"(٣). ويضـــيف المحسِّن التنوخي سبباً آخر دفعه إلى التعجيل في التدوين، أنه لا يجد فـــي أخـــلاق ملوكهم، ولا في ما يأتونه من أفعال، ما يستغني به عن تدوين ما ورد عن المتقدمين من أخبار دالة على طباعهم في الكرم، وحسن الشيم، فهم لا يكتفون بعدم الإتيان بمثل أخلاق المتقدمين، إنما يدفعون بتلك الأخبار، ويكذبونها لا لشيء إلا "قصوراً عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والخصال"(٤).

وثمـــة سبب أعمق، فيما أظن، حفّزه على الشروع بتأليـــف النشـــوار عـــام ٣٦٠هـــ، وهو سبب شخصي -لاسيما أن التاريخ الشخصي للمحسّن التنوخـــي يـــندمج فـــي التحول الذي شهده عصره- يتلخص بكلمة واحدة هي المحـــنة. وكان المحسِّن التنوخي قد تعرض لغير محنة؛ كان أولها على يد أبي الفرج محمد بن العباس الوزير سنة ٣٥٩هـ؛ الذي صرفه عن عمله، واستولى علـــى ضـــيعته بـــالأهواز، فخرج إلى بغداد متظلماً، فأقام فيها سنين يتظلم من محنته، فما أنصفه أحد، فخرجت تلك الضيعة من يده(٥). وهذه الرحلة إلى بغداد أوقفـــته علـــى حقيقة التغير الـــذي حـــلَّ بمجالســـها(٦). وحفّزته على الشروع بالتدويـــن، ثم ما لبث أن تعرض لمحنة ثانية على يد ابن بُقّية وزير عز الدولة

بختيار سنة ٣٦٣هـ، فاضطر إلى اللجوء إلى البطيحة[٧]، والاختفاء فيها لسنوات طلباً للأمان حتى قتل عضد الدولة الوزير سنة ٣٦٦هـ[٨]. أما آخر محنه، فكانت على يد عضد الدولة البويهي[٩]، الذي جرده من جميع أعماله، بعد أن سخط عليه، ونصّب بدلاً منه قضاة ستة يقومون بالأعمال التي كانت موكلة إليه وحده، وحبسه في داره[١٠]. وبعد هذه الحادثة تفرغ المحسِّن التنوخي للتأليف، غير أنه قطع عمله في تأليف النشوار، وبدأ العمل في كتاب "الفرج بعد الشدة" ثم عاد لاستكمال العمل في النشوار، ثم ألّف كتاب "المستجاد" أخيراً. فهذه الأخبار تبعث على الربط بين المحن التي تعرض لها المقرونة بتقلبات سياسية عدة وتصميمه على تدوين الأخبار، وتشير إلى جوهر العلاقة بين فشله في الاحتفاظ بمنصبه أو بمكانته في الدولة، والبدء بمشروعه الكتابي. مما يدفع إلى القول إن مؤلفات التنوخي ترتبط بتجربته الشخصية، تجربة المحنة التي عبر عنها بجلاء في "الفرج" إلا أن بذورها الحقيقية ظهرت في "النشوار". ويتضح هذا الأمر عند قراءة الأخبار التي استأثرت باهتمامه أكثر من غيرها، والاقتصار على أخبار دون أخرى؛ فالمدقق فيها يلحظ أنها تمثل اختياراً ما، واختيار الكلام أصعب من تأليفه كما يقول ابن عبدربه[١١]. وهذا الاختيار يعبر عن رؤية محددة سياسية أو اجتماعية تصريحاً أو تلميحاً، ويمثل في النهاية موقفاً نقدياً، وإن احتفظ بالولاء للواقع التاريخي.

لقد حاول التنوخي أن يقرأ حاضره من خلال الموازنة بينه وبين الماضي؛ بين الحاضر الذي يغيب عنه العدل والماضي الذي يمثل صورة مشرقة كما يظهر في الخبر؛ أي "بين ما نحن فيه وما مضى، ليُعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الأهواء[١٢]. فالحاضر يشهد تغيراً نحو الأسوأ ينبئ باقتراب الساعة، لا بسبب بعده المتزايد عن مرحلة الإسلام الأولى، مرحلة الرسولﷺ، إنما لأسباب اجتماعية وسياسية تتمثل بفساد هذا العصر وتباعد حكمه من ذلك الدهر، "وإن موجبات الطبائع متغيرة متنقلة والسنن دراسة متبدلة، والرغبة في

التعلم معدومة، والهمم باطلة مفقودة، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية مانع"[١٣]، "فنحن حاصلون فما روي من الخبر أن الزمان لا يزداد إلاّ صعوبة ولا الناس إلاّ شدة، ولا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق"[١٤]. ولأن النتيجة الإيجابية تأتي لمصلحة الماضي، فإنه يعمد إلى تدوينه[١٥]، دون تغييب للحاضر "ليعلم أن الزمان قد بقيّ من القرائح والألباب، في ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديماً أو مثله، ولكن تقبل أرباب تلك الدول للآداب أظهره ونشره، وزهد هؤلاء الآن في هذا الأدب غمره وستره[١٦].

الماضي والحاضر بين الحضور والغياب :

تمتد أخبار النشوار بدءاً من منتصف القرن الأول الهجري (العصر الأموي) حتى ما يزيد على منتصف القرن الرابع الهجري؛ وهي مدة طويلة نسبياً، إلا أن المتفحص لهذه الأخبار يجد أن الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثالث الهجري حتى عصر المؤلف، قد حظيت بنصيب وافر من الأخبار، لاسيما أن هذه الحقبة ارتبطت بغير واحد من الخلفاء والأمراء، ممن كان لهم دور في التحولات الكبرى التي شهدها العصر العباسي من مثل ؛ خلافتي المعتضد (ت٢٨٩هـ)، والمقتدر (ت٣٢٠هـ) وإمرة كل من سيف الدولة الحمداني (ت٣٥٦هـ)، ومعز الدولة البويهي (ت٣٥٦هـ). والسؤال المطروح ؛ لم هؤلاء بالذات؟ إن الراصد لحقبة هؤلاء الخلفاء والأمراء يلحظ أنهم اكتسبوا -عدا عن دورهم التاريخي- أهمية خاصة للتنوخي؛ بسبب ارتباطهم بتاريخه الخاص وبتاريخ أسرته، كما يتضح بعد قليل.

فالتنوخي الجد محمد بن داود بن الفهم التنوخي – التقى بالمعتضد في إنطاكية سنة ٢٨٧هـ، ضمن وفد من عشرة أشخاص اختارهم شيوخ إنطاكية لمقابلة المعتضد ومخاطبته للعودة عن قراره بهدم سور المدينة. وكان له دور

فـــي إقناع المعتضد بالرجوع عن قراره(١٧). أما التنوخي الأب- علي بن محمد بن داود فقد قصد سيف الدولة الحمداني زائراً ومادحاً، بعد أن صُرف عن عمله فـــي القضـــاء، فأكـــرمه سيف الدولة، وأحسن إليه، وكتب إلى الحضرة ببغداد لإعادتـــه إلـــى عملـــه؛ فأعُيد إلى عمله، وزيد في رزقه ورتبته(١٨). وإذا كان التنوخـــي الجد والتنوخي الأب قد أكرما من المعتضد وسيف الدولة الحمداني، فـــإن المحسِّـــن التنوخي (المؤلف) تعرض لغير محنة على يد وزراء آل بويه وأمـــرائهم، بعـــد أن آلت الأمور إليهم، كما أشرت سابقاً. فصنفت، تبعاً لذلك، الأخبار الواردة في النشوار حسب المراحل الزمنية الآتية :

١- الماضي حقبة المعتضد نموذجاً.

٢- مرحلة وفاصلة بين الماضي والحاضر، حقبة المقتدر نموذجاً.

٣- الحاضر حقبتي سيف الدولة، ومعز الدولة نموذجاً.

١ - الماضي :

أولى المحسِّن التنوخي الماضي أهمية بالغة في النشوار، وأبدى اهتماماً خاصـــاً بـــه، لاســـيما بعـــد التحولات التي حدثت في عصره على المستويين الشخصي والعام، وأدت إلى التعجيل بتأليف النشوار؛ الذي ألّف على مرحلتين، قبل عضد الدولة عليه وبعده، غير أنه تعرض في الحالتين إلى الطرد من عمله والاســـتيلاء على أملاكه، مما دفعه إلى التظلم تارة، وإلى الهرب طوراً، وإلى البقاء حبيس داره أخيراً.

لقـــد شهد الحاضر تحولات دفعته للبحث عن تفسير لما يحدث، فالحاضر يعيش محنة حقيقية تستدعي "فرجاً عاجلاً، وصلاحاً للعالم شاملاً، بعد أن انقلبت الأهواء، وانعكست الآراء، وفقدت المكارم، وكثرت المحن والمغارم"(١٩). وحين وجـــد نفسه عاجزاً عن التفسير، لجأ إلى الموروث الإخباري ليعينه على ذلك،

فنّقب كثيراً في هذه الأخبار، وأبدى اهتماماً خاصاً بالأخبار التي تتعلق بأخلاق الحكام المتقدمين، وطبائعهم، لاسيما "ما كان منها متعلقاً بالكرم، ودالاً على حسن الشيم، ومتضمناً ذكر وفور النعم، وكبر الهمم، وسعة الأنفس، وغضارة الزمان، ومكارم الأخلاق"[٢٠]. فاكتشف أن للحكام دوراً في إشاعة هذه الأخلاق ونشرها فضلاً عن دورهم في الحفاظ على أمن الدولة وقوتها، مما حفزه على تدوينها لمقاومة اضمحلال الذاكرة ونسيانها، وتخليدها في الذاكرة الجماعية. لتصبح نموذجاً يحتذى، "ولمعرفة عواقب الصلاح والفساد، وما تفضي إليه أواخر الأمور، ويساس به كافة الجمهور"[٢١]. فعكست هذه المدونات حنينه إلى ماضٍ قوي هو عصر الحكام الأقوياء. إنها بمعنى آخر حنين عصر ضعيف (عصر التنوخي) إلى عصور قوية ومثاله البارز حقبة المعتضد.

من صور الحنين إلى الماضي :

تنوعت صور هذا الحنين وتعددت. كما يتضح في تركيز الخبر على موضوعتي الكرم والعفو عند الخلفاء والوزراء السابقين؛ لاسيما أنهما سلوكان مرغوبان في المجتمع العربي لما لهما من تأثير واسع على الأفراد والجماعات. واللافت للنظر أن التنوخي لا يهدف إلى تسجيل الحوادث الدالة على كرم الحكام وعفوهم ليؤكد وجودها وكثرتها فحسب، إنما يهدف إلى تقديم القدوة والمثال للأجيال القادمة كما بيّن في مقدمته للنشوار "ليستفيد منها العاقل اللبيب، والفطن الأريب"[٢٢]. لذا أورد مجموعة من الأخبار التي تروى عن كرم الخلفاء والوزراء وعفوهم من مثل ؛ الرشيد (ت ١٩٣هـ)، والمأمون (ت ٢١٨هـ)، والواثق (ت ٢٣٣هـ)، والمتوكل (ت٢٤٧هـ). وتبدّى سلوكهم هذا في إنفاقهم السخي على الأدباء والفقهاء ممن يقصدون البلاط، وعلى المقربين من الوزراء والندماء؛ فالرشيد، مثلاً أمر بمالٍ عظيم للقاضي أبي

يوســف لقاء فتوى تبرئ ابنه من تهمة الزنا؛ فكانت هذه الفتوى سبباً في تقلده منصب قاضي القضاة[٢٣]، وسبباً في تغيير مستقبل حياته، بعد أن كان يعيش في فقــر شــديد، "فكانــت امــرأته تحتال لـــه ما يقتاته يوماً بيوم"[٢٤]. وإذا كانت المصــلحة الشخصية للرشيد وابنه سبباً في العطاء السخي للقاضي أبي يوسف وعلــو مكانته في الدولة، فإن مصلحة الخلافة كانت السبب الأساس في احتفاظ محمــد بن عبدالملك الزيات بالوزارة للمرة الثالثة في خلافة الواثق. وكان هذا الأخير قد هدد بهدر دم ابن الزيات إن أفضت الخلافة إليه؛ لقسوته عليه في أيام أبــيه المعتصم، فكان يقصده في ضياعه وأملاكه. إلا أنه حظي بعفوه وكرمه، بعد أن أثبت قدرته على كتابه الكتب وتحريرها. وحين ذكرّه خادمه بتهديده لابن الزيات، أجابه الواثق قائلاً ؛ "ويحك، السلطان إلى محمد بن عبدالملك أحوج من محمــد إلــى السلطان"[٢٥]، مما دفع الراوي إلى القول، "ولا نعلم وزيراً، وزر وزارة واحدة، بلا صرف، لثلاثة خلفاء متّسقين، غير محمد بن عبد الملك"[٢٦]. ويقصد بالخلفاء الثلاثة؛ المأمون، والمعتصم، والواثق. وكذلك كان شأن المتوكل الذي أكرم نديمه بالهدايا والأعطيات الكثيرة، لقاء خدمة قدمها إليه، وهي السفر إلى الهند للحصول على العود الهندي[٢٧]؛ كما في الخبر الذي يروى عن شغف المــتوكل بــالعود الهندي. ولم يتوقف سخاء الخلفاء وكرمهم عند حدود العطاء المالــي إنما تجاوزه إلى تقليد المقربين لمناصب جديدة في الدولة، كما حدث مع إسحاق بن إبراهيم المصعبي؛ الذي قلده المأمون جميع أعمال المعاون بالسواد، لأنــه نــبّه المــأمون علــى إكــرام أبي محمد الحسن بن سهل[٢٨]. أو إعادة المصروفين إلى أعمالهم مرة أخرى كما هي مع أبي حسان الزيادي كما أشرنا ســابقاً. والملاحــظ أن هذه الأخبار كثيراً ما تقرن كرم الخلفاء بالتواضع تارة وبــالعفو طوراً. فالخليفة المعتمد (ت ٢٧٩هــ) أحضر القضاة والشهود للشهادة علــيه فــي ديــن اقترضه للإنفاق على حرب صاحب الزنج، وحين قرأ عليهم الوزيــر إســماعيل بن بلبل الكتاب ليشهدوا عليه، بما فيه، اعترض الجذوعي

القاضـــي (ت٢٩١هــ) على إجابة الخليفة، وطالبه بتغييرها. وكان القاضي قد سـأل الخلـيفة قائلاً: "يا أمير المؤمنين، اشهد عليك بما في هذا الكتاب؟ فأجاب الخلـيفة؛ اشـهد، فقـال : لا يجـوز، أو تقول : نعم، فأشهد عليك"(٢٩). وبهذا الاعـتراض نال إعجاب المعتضد فيما بعد، فقلده واسط. وبعد هذا الموقف من المعـتمد تعـرض القاضي للإساءة على يد ابن أحد قواد الجيش، فأمر المعتمد صـاحب الشرطة بتجريد الغلام، وحمله إلى القاضي، وضربه ألف سوط، على الـرغم مـن مكانة والده في الجيش، ومحله محل من لو همَّ بالعصيان، أطاعه أكثر الجيش. ولم يصفح عن الغلام، إلا بعد أن وافق القاضي على ذلك(٣٠). أما الأمير الموفق (ت ٢٧٨هــ)، وهو أخ للمعتمد ووالد المعتضد، وصاحب الأمر والنهي مدة خلافة المعتمد، فعلى الرغم من كرمه وإنفاقه، إلا أنه كان متواضعاً شديد الحياء. فقد اشتهى مرة كبود الدجاج، وقوانصها مطبهجة، إلا أنه خجل أن يطلـبها من صاحب مائدته، لئلا يظن أن نفسه قد تتبعته، شحاً به عليهم، "لأن رسمهم جارٍ، بأن يرتفقوا بأخذه وبيعه"(٣١)، الأمر الذي دفعه إلى الطلب من أبي إسحاق الـحراني الصابـئ الطبيـب (ت ٣٠٩هــ) أن يشير بهذه الأكلة عليه، من طريق الطب، لتصبح فيما بعد رسماً جارياً على المائدة.

ولـم يكتفِ التنوخي بتقديم أخبار تتضمن صوراً من كرم الخلفاء بصورة مباشـرة، إنمـا امـتد اهتمامه بموضوع الكرم إلى الإشارة إليها بصورة غير مباشرة. ويظهر هذا حين وصف مجلساً للمهلبي في شهر رمضان، سنة إحدى وخمسـين وثلـثمائة، وكأنـه مجلـس من مجالس البرامكة(٣٢)، لما عرف عن الـبرامكة مـن كـرم وسخاء منقطعي النظير. يظهر هذا حين يوازن بين كرم الـبرامكة وعبيدالله بن خاقان(٣٣)، أو حين يروي عن الكرم المفقود في عصره، مما يستدعي الإشارة إلى كرم القدماء من مثـل البرامـكة(٣٤).

إن أخـــبار الكرم والكرماء تشير إلى مبلغ الثراء الذي وصلت إليه الدولة في العصور الماضية، ولعلّ أبرز مثال على ذلك، الخبر الذي يروى عما ينفق في الأعياد على سبيل الهدايا في خلافة المتوكل. والملاحظ أن الخبر يتوسع في وصـــف هذه الهدايا. يقول الراوي واصفاً هديه بختشيوع للمتوكل "فضرب بيده إلـــى كمّـــه، فأخـــرج منه، مثل الدواة، معمولاً من عود هندي، لم يرقط مثله، كالأنبوس سواداً، وعليه حليه ذهب محرّق، لم يُرقط أحسن منها عملاً، ولا من الدواة... ففتحها، وأخرج من داخلها، ملعقة كبيرة محرقة من ياقوت أحمر"(٣٥). فأعجـــب المتوكل بها، فسأل بختشيوع عن مصدرها، فشكّل سؤاله عنها حافزاً لـــرواية قصة هذه الهدية، مما أدخل الخبر في البنية المركبة، المكونة من قصة إطار تصف تعجب الراوي من ثروة جبريل بن بختشيوع المتطبب التي وصلت إلـــيه من يحيى بن خالد البرمكي، وبنيه، وجواريه، وأولاده، ما مقداره سبعون ألف ألف درهم(٣٦). وقصة مضمّنة أولى يكون الراوي فيها أبو الحسن علي بن هـــارون المنجم يروى فيها فضول المتوكل لمعرفة هدية بختشيوع لـــه في عيد النيروز. ومن ثم إعجابه بالهدية التي أذهلته بحسنها. وقصة مضمنة ثانية يروي فـــيها بختشيوع كيفية حصوله على هذه الهدية، بعد أن ألحّ المتوكل على معرفة مصدرها قائلاً لـــه "يا بختشيوع، والله ما رأيت بنفسي، ولا في خزانتي، ولا في خزائـــن آبائي، ولا سمعت، ولا بلغني أنه كان للملوك من بني أميه، ولا لملوك العجم مثلها، فمن أين لك هذه"(٣٧) ؟.

حقبة المعتضد نموذجاً :

توقف التنوخي عند المعتضد كونه أحد الحكام الأقوياء، فاحتلت أخباره حـــيزاً واسعاً من النشوار، بلغت عدتها ٢٧ خبراً، في مواطن متفرقة. قدّم فيها للمعتضد صورة تعكس حنينه إلى عصر القوة والثراء والعـــــدل. فصاغ له من

هـذه الأخـبار مـا يشـبه السيرة تخلده في الذاكرة والوجدان نموذجاً للأجيال المتعاقـبة. وتقـوم صورة المعتضد في هذه الأخبار على أمور أهـمها أولاً: الإشـادة بـه وتقديمه قدوة في الحفاظ على أموال المسلمين وزيادتها وحرصه علـيها من أقرب الناس إليه من مثل المقتدر ابنه ونديمه، مما يعيد إلى الأذهان مـرة أخرى الخبر الذي تحدث عن إسراف المقتدر وتبذيره وردة فعل المعتضد تجاه ذلك[٣٨]. أما عن نديمه فقد أورد التنوخي غير خبر أشار في كل واحد منها إلى محاولات نديمه- أبي محمد بن حمدون- الاحتيال على المعتضد للحصول علـى المـال، إمـا بلعـب النرد معه، وإما باستغلال جلوس المعتضد للمظالم والإقـرار أمامه بالديون التي عليه للغرماء فيضطر المعتضد إلى تسديد ديونه، إلا أن حيله باءت بالفشل، ففي المرة الأولى أعطاه من ماله الخاص سبعين ألف درهـم على أن يشتري بها ضيعة، فلا يكون على المعتضد إثم في دفعها، ولا علـى نديمه إثم في أخذها[٣٩]. وفي مرحلة لاحقة سدد المعتضد دينه مرتين، إلا أنـه طلب من القاضي بعدها بالمناداة على نديمه "بسفهه في ماله، وعُدْمِه، وأنه لا يملـك مـا يـباع عليه فيقضي به دينـه،وإنّ من عامله بعد هذا فقد طوّح بمالـه"[٤٠]. ويتضـح حرصه على أموال الدولة في الخبر الذي يشير إلى طلب الـزّجـاج (ت ٣١١هـ) من وزير المعتضد القاسم بن عبيدالله عشرين ألف دينار، فأجابه الوزير قائلاً : "إنه المعتضد، ولولاه ما تعاظمني دفع ذلك إليك في مكـان واحـد"[٤١]. وثانـياً: رعايته للأيتام والمحرومين، كما في الخبر الذي يـتحدث عن إفراج المعتضد عن ضياع الأيتام، بعد أن أدخل العمال أيديهم في هذه الأملاك بأمر من الوزير عبيدالله ابن سليمان، الذي ادّعى أن المعتضد أمر بذلـك. وكـان لأبي خازم القاضي دور في الكشف عن استغلال العمال لضياع الأيـتام[٤٢]. وثالثاً: دوره في رعاية القضاء والحفاظ على حرمته، فقد أمر أحد القضـاة ببيع خادم من وجوه خدم المعتضد، لأنه رفض أن يوازي خصمه في المجلس لعظم محله في الدولة. فوافق المعتضد القاضي على ذلك، ولم يمنعه من

البيع إلا استجابته لطلب القاضي بالمساواة بينه وبين خصمه. وحين بكى الخادم بيـــن يدى المعتضد، صاح عليه قائلاً؛ "لو باعك لأجزت بيعه، ولما رددتك إلى ملكي أبداً، وليس خصوصك بي، يزيل مرتبة الحكم، فإنه عمود انسلطان، وقوام الأديــــــان"[٤٣]. ورابعــاً تيقظه الدائم لحماية حدود الدولة، والحفاظ على أمن رعايـــاه فيها. كما يتضح من تحذيراته الدائمة من الديلم، وخوفه من سيطرتهم علـــى الدولة، ولم يكن هذا الخوف وليد ضعف أو استكانة، بل نتاج رؤية ثاقبة تنظر إلى معطيات الواقع بموضوعية وحرص شديدين؛ إذ فزع أشد الفزع حين علــم بدخـــول رجل من الديلم متنكراً إلى قزوين. فطلب من وزيره "أن يكتب لصـــاحب الحــرب والخراج بتحصيل الرجل ولو من تخوم الديلم، وإلا فدمهما مرتهــن بــه، حــتى يحضرانه"[٤٤]، وحين سأله نديمه عن سبب غضبه أجابه المعتضد قائلاً "إن الديلم شرّ أمة في الدنيا، وأتمهم مكراً، وأشدهم بأساً، وأقواهم قلوباً، والله، لقد طار عقلي فزعاً على الدولة من أن يتطرق إليهم دخول قزوين ســرّاً، فيجــتمع فــيها منهم عدة، يوقعون بمن فيها ويملكونها، ،... ووالله، لو ملكوهـــا، لتـــبّعوا عليّ من تحت سريري هذا، واحتووا على دار المملكة، فما هنأنـــي الشــرب، ولا طابــت نفسي بمضي ساعة من زماني فارغة من تدبير علــيهم"[٤٥]. ولم تمضِ إلا سنوات قليلة حتى سيطر الديلم، وأصبحت لهم ممالك كثيرة، غير ممالك الأمراء من بني بويه[٤٦]. أما حفاظه على أمن الناس وحماية حقوقهم فقد تمثل بالحد من سيطرة الجند وتسلطهم على الناس ومنع تعديهم على الممتلكات. فقد أمر بضرب أحد الجنود بالمقارع حين علم أنه سرق بطيخاً يعود لفــلاح، وقـــال لـــــه : "ما كان معك ثمن هذا البطيخ، ما كان في حالك فضل لشـــرائه، ما قدرت تمنع نفسك منه؟ هو مالك؟ مال أبيك؟ أليس هو الرجل الذي تعــب فـــي زرعه، وسقيه، وماله، وأداء خراجه...." [٤٧]. وتمثل أيضاً بمعاقبة المعتديـــن على أعراض الناس وحرماتهم ومساندة الذين يقفون بوجه المعتدين، كمـــا في الخبر الذي يروى عن وقوفه إلى جانب الشيخ الخياط؛ الذي رفع آذان

الفجــر في غير وقته لينقذ امرأة من اعتداء تركي عليها(٤٨). فالعدل يقتضي من الجميع محاربة الفساد، مهما علت منــزلة مرتكبه في الدولة(٤٩) وإن اقتضى هذا رفــع الآذان في غير وقته. وتمثل أخيراً حماية العمال المصروفين من التعذيب والمصــادرة؛ لأنهــم كـانوا "من أكابر العمال الذين قد قامت هيبتهم في نفوس الرعــية، وعرفوا أقطار البلاد، فهم أركان الدولة، وأنداد الوزارة، والمرشحون لها، فإن لم تحفظ نفوسهم، وضع ذلك من الأمر، وأثرّ فيه"(٥٠).

ولكــي تكــتمل صورة النموذج أو المثال، فإن الأخبار تلجأ إلى تسويغ القسوة التي عرف بها(٥١)، وإسراعه إلى سفك الدماء(٥٢)، والتغاضي عن بعض جوانب ضعفه التي وردت عند بعض المؤرخين من مثل خوفه من الشبح الذي كان يطارده في بعض الأوقات، فقد ذكر المسعودي أنه في سنة ٢٨٣ هــ"ظهر للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره، فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحــية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر شيخاً حسن الوجه ذا لحية ســوداء بغــير تلــك البزة، وتارة يظهر شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار، وتارة يظهــر بــيده ســيف مسلول، وضرب بعض الخدم فقتله، فكانت الأبواب تؤخذ وتغلــق فــيظهر لــه أينّ كان في بيت أو صحن أو غيره، وكان يظهر له في أعلــى التــي بناها، فأكثر الناس القول في ذلك، واستفاض الأمر، واشتهر في خــواص الناس وعوامهم، وسارت به الركبان، وانتشرت له الأخبار والقول في ذلك على حسب ما كان يقع كل واحد منهم"(٥٣). وفوق ذلك، لجأت الأخبار إلى تغييب حفل زواجه الأسطوري من قطر الندى بنت خمارويه(٥٤).

إن انتقاء التنوخي لهذه المجموعة من الأخبار التي تهدف إلى تقديم صورة مثالــيــة(٥٥) للمعتضد لتصبح نموذجاً يحتذى يستحق التخليد، لا يعني بحال من الأحــوال التشكيك بواقعية هذه الأحداث وتاريخيتها، فهذه الصورة وإن بدا فيها المــبالغة بعض الشيء إلا أنها ليست بعيدة عن الواقع، فعلى الرغم من القسوة

التـــي وصـــف بهـــا، من مثل قتله لرجل بسد جميع منافذه[٥٦]، وقتله لقرطاس الرومـــي وهـــو مـــن أصحاب علي بن محمد الورزنيني العلوي صاحب ثورة الـزنج، بقلع أظافره وسلخ جلد أصابع كفه من رؤوسها، إلى أكتافه، وعبر بها صلبه، وكتفيه إلى آخر أصابعه الأخرى[٥٧]. إلا أن المؤرخين أشادوا بالأعمال التـــي قام بها لإنصاف الناس والتخفيف من معاناتهم، "فقد أمر المعتضد بإنشاء الكتب إلى العمال في النواحي بترك افتتاح الخراج في النيروز؛ الذي هو نيروز العجـــم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران، وسمي ذلك النيروز المعتضدي، فأنشئت الكتب بذلك من الموصل، والمعتضد بها؛ وإنما أراد الترفيه على الناس والرفق بهم"[٥٨]. ولعل هذه الأعمال وما شابهها دفع غير مؤرخ إلى القول : "ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله، سكنت الفتن، وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب، ورخصت الأسعار، وهدأ الهيج، وسالمه كل مخالف، وكان مظفراً دانت لـــه الأمور"[٥٩].

كيفية تقديم التنوخي لأخبار المعتضد :

تقسم الأخبار التي تتحدث عن المعتضد قسمين : أخبار قصيرة، وأخرى طويلة؛ فالأولى تنـــزع إلى الاكتفاء بالسرد المتتابع لحادثة تشير إلى واحدة من مـــيزات المعتضـــد الكثيرة كالشجاعة مثلاً التي بلغت حداً جعلته يخاطر بنفسه ويواجـــه أسداً خرج عليه في رحلته ويرديه قتيلاً دفاعاً عن نفسه وعن غلامه . وتتوقف هذه الأخبار في بعض الأحيان عند وصف الراوي لردة فعل الشخصية (المعتضد) تجاه ما يحدث، كما في الخبر الذي يروي دخول رجل من الديلم إلى قزويـــن. يقول الراوي مثلاً : "كنت بحضرة المعتضد ليلة على شرب، إذ جاءه كـــتاب، فقرأه، وقطع الشرب، وتنغّص به"[٦٠]، ثم يفصل الراوي ردة فعله هذا حين يتُوجه إليه بالسؤال: "كنت على سرور، وطيب نفس، فورد خبـــر قد كان

يجوز أن تأمر فيه غداً بما أمرت به الساعة، فضيقت صدرك، وقطعت شرابك، ونّغصت على نفسك، وروعت وزيرك، وأطرت عقول عياله وأصحابه، باستدعائه في هذا الوقت المنكر، حتى أمرته بهذا الذي لو أخرته إلى غد لكان جائزاً"[٦١]. وكان الراوي قد حكى في البداية أقوال المعتضد التي توجه بها إلى وزيره كما يفترض أنه تفوّه بها "اكتب الساعة، إلى صاحبي الحرب والخراج، وأقم قيامتهما، وتهددهما عني بالقتل، لمَ تم هذا ؟ وتشدد في الإنكار، وطالبهما بتحصيل الرجل"[٦٢]. وكذا الأمر حين ينقل ما كتبه المعتضد إلى صاحب شرطته مؤنس الفحل يؤنبه فيها ويتوعده ويطالبه بإعادة أموال التاجر بيده كما أخذها من صندوقه : "يا مؤنس، جسرت على قصد دكان رجل تاجر، ... وفتحت صندوقه، وأخذت منه عقد جوهر قيمته ألف دينار، وأنا في الدنيا ؟ والله، لولا أنها أول غلطة غلطتها، ما جرى في ذلك مناظرة، اركب بنفسك إلى دكان الرجل، حتى ترد العقد في الصندوق؛ بيدك ظاهراً"[٦٣].

يلحظ في هذه الأخبار تدخلات الراوي بهدف التعليق على الأحداث أو تفسيرها؛ فالخبر الذي يروى عن شجاعة المعتضد لا يسكت عند مصرع الأسد، إنما يشير فضلا عن شجاعة المعتضد إلى تواضعه وإيثاره، كما في تعليق الراوي على ما حدث أمامه، يقول : "فلم أدرِ من أي شيء أعجب، من شجاعته وشدته، أم من قلة حفله بما صنعه، وكتمانه، أم من كرمه وعفوه عني، وما عاتبني على ضنّي بنفسي"[٦٤]. وكما في الخبر الذي يروى عن دخول أبي خازم القاضي على المعتضد ومطالبته بما في ذمته من أموال للوقف. فعندما مثُل القاضي أمامه قال له : "هي، قل" ويفسر الراوي هذه اللفظة (الصوت) بقوله : "كأنه متشوف"[٦٥] ليؤكد حرصه على معرفة أحوال الناس في الدولة ومتابعته لما يجري، وينهي الراوي الخبر قائلاً: "فكثر شكر الناس لأبي خازم، لهذا السبب، وإقدامه على الخليفة، بمثل ذلك، وشكرهم للمعتضد لله، في إنصافه"[٦٦]. وأخيراً، تلجأ هذه الأخبار إلى الحوار الذي يقدم بإطار سردي، لإفساح المجال

أمـــام القـــارئ للتعرف على هذه الشخصية أكثر، والتعرف على بعض جوانبها الخفـــية التـــي لم يتح للقارئ التعرف إليها في الأخبار الأخرى، وبذلك يتقلص الوصـــف ويفسح المجال أمام سلطة الراوي الذي يسترجع الحوار الذي دار بين المعتضـــد ونديمـــه وهو الحوار الذي بيّن المعتضد من خلاله الدوافع الحقيقية لقـــيامه لـــبعض الأعمـــال التـــي أثارت تساؤلات الكثيرين. فالخصوم يتهمونه بإســـراعه إلـــى ســـفك الدماء. وهو يرد هذه الاتهامات؛ والراوي يمهد لحوار المعتضـــد مـــع ندميه بتمهيد سردي يروي فيه عن سرقة جماعة من اللصوص لقـــراح قـــثاء، فألقي القبض عليهم، فقيدوا، وضربت أعناقهم في اليوم التالي، "فأنكـــر الناس ذلك، وتحدثوا به، ونفرت قلوبهم منه"[٦٧]. وبما أن الأخبار التي تـــتحدث عـــن المعتضـــد فـــي مجملها تهدف إلى رسم صورة الخليفة النموذج المحـــتذى للأجـــيال القادمـــة، ولكي تبقى صورة النموذج مكتملة ومثالية، فإن المعتضـــد يســـأل نديمه قائلاً: "هل يعيب الناس عليّ شيئاً؟ عرفني حتى أزيله. ويقسم عليه أن يصدقه. فيقول له : إسراعك إلى سفك الدماء. فيقسم المعتضد أنه ما هرق دماً منذ ولي الأمر إلا بحقـــه"[٦٨]. فيستوضح النديم ظروف مقتل أحمد بـــن الطيـــب، وهو خادمه ولم تكن لـــه جناية ظاهرة، والثلاثة الذين قتلوا في قـــراح القثاء، فيجيبه المعتضد أن الأول دعاه إلى الإلحاد؛ والمعروف عن أحمد بن الطيب، الذي يعرف بابن الفرانقي، أنه تلميذ الكندي، وله مؤلفات في كل فن، وكـــان نديماً للمعتضد، فأنكر عليه بعض شأنه، فأمر بحبسه سنة ٢٨٣هـــ، في المطبق بعد ضربه مائة سوط، فمات في الحبس سنة (٢٨٦هـــ) [٦٩]. وأما أمر الثلاثة فقال : "والله، ما كان أولئك المقتولون هم الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصاً حملوا من موضع كذا وكذا، ووافق ذلك أمر أصحاب القثاء، فأردت أن أهـــول علـــى الجيش، بأن من عاث من عسكري، وأفسد بهذا القدر، كانت هذه عقوبتـــي له؛ القـــتل، ليكفوا عما فوقه، ولو أردت قتلهم لقتلتهم في الحال، وإني حبستهم، وأمرت بإخراج اللصوص في غد مغطين الوجوه، ليقال إنهم أصحاب

القثاء، ويقتلون بفعل ذلـــك[٧٠]. ولكي يعلم العامة بهذا الأمر، فقد أمر المعتضد بإخراج لصوص القثاء من السجن، بعد أن أخذ عليهم عهداً بالتوبة.

فالخـــبر يهدف إلى تبرئة المعتضد مما ينسب إليه من قسوة، ويهدف إلى غســل ذنوبه إن جاز التعبير، وتسويغ قسوته؛ لأنه أراد من إظهارها، الحد من تعدي العسكر وتجاوزاتهم.

أمـــا الأخبار الطويلة فإنها تتجاوز مجرد الإخبار إلى صوغ حكاية ذات بنية مركبة تتضمن شخصيات ومواقف ووصفاً، كما في الخبرين الآتيين : الأول يتضــمن قصة إطار وقصة مضمّنة بداخلها، وقصة الإطار بطلها الشيخ الخياط الــذي ســاعد شــيخ التجار في الحصول على ماله من أحد قواد المعتضد بعد مماطلة طويلة. وكان هذا القائد قد ماطل شيخ التجار في أداء ما عليه من مال؛ فحاول التظلم للمعتضد، إلا أن حاجبه منعه الدخول، فلجأ إلى وزيره عبيدالله بن ســليمان، فمـــا نفعه ذلك، فأشار عليه أحد أصحابه باللجوء إلى خياط في سوق الثلاثاء، يضمن لـــه حقه دون الحاجة إلى التظلم لا إلى الخليفة ولا إلى غيره. فعمــل الـــتاجر بنصيحته. وذهب الشيخ الخياط إلى القائد فأعطاه الأخير نصف المبلغ، وضمن له نصفه الآخر. فتعجب شيخ التجار من تأثير الشيخ الخياط في القائد وتبجيله له. فسأله عن سبب طاعة القائد لـــه مع تهاونه بأكابر أهل الدولة. فقــصّ عليه قصته، وبذلك أصبحت قصة التاجر مع أحد القواد، قصة مضمنة داخــل قصة الإطار، وهذه القصة المضمنة بطلها الشيخ الخياط الذي لعب دوراً في إنقاذ امرأة من اعتداء رجل تركي عليها. إلا أن ما يفرقها عن قصة الإطار، أنهـــا تـــروي عن لقاء الشيخ الخياط بالمعتضد، وهذا اللقاء الذي كان سبباً في حظوتـــه عند القادة وتبجيلهم لـــه. وقد جاء هذا اللقاء بعد مشاهدة الشيخ الخياط لـــرجل تركـــي حـــاول الاعتداء على امرأة جميلة وهو سكران، بإجبارها على دخول داره وهي تستغيث، فسأله الشيخ الخياط أن يتركها، فأبى وضرب رأسه

بدبوس فشجه، ولم يثنه هذا الحادث عن عزمه على إنقاذ المرأة، فجمع نفراً من المصلين فقصدوا دار التركي بعد أن أدخل المرأة إليها. فخرج في عدة من غلمانه، فأوقع فيهم الضرب، وقصد الشيخ من بين الجماعة، فضربه ضرباً عظيماً، وحين فشلت محاولاته في إنقاذ المرأة، عزم على رفع آذان الفجر في منتصف الليل، ليوهم التركي أن الفجر قد طلع، فتعود المرأة إلى بيتها قبل الفجر. لاسيما أن التركي شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات كما ذكر الخياط. ونفذّ ماعزم عليه، فتعجب الناس من آذانه، وما مضت إلا ساعة، وإذا ببدر صاحب شرطة المعتضد وغلمانه يدعونه لمقابلة المعتضد. فسأله المعتضد قائلاً ؛ "ما حملك على أن تغرّ المسلمين بآذانك في غير وقته، فيخرج ذو الحاجة في غير حينها، ويمسك المريد للصوم، في وقت أبيح له فيه الإفطار؟[71]. فقص عليه قصة المرأة والرجل التركي. فأحضرت المرأة في الحال والتركي، وطلب من بدر أن يبادر بها إلى زوجها مع ثقة يدخلها دارها، ويشرح له خبرها، ويأمره بالنيابة عن المعتضد أن يتمسك بها ويحسن إليها، في حين استدعى الرجل التركي ودقّه حتى الموت، وأغرقه في دجلة. ثم توجه إلى الشيخ الخياط قائلاً ؛ "يا شيخ أي شيء رأيت من أجناس المنكر كبيراً كان أو صغيراً، أو أي أمر، صغيراً أو كبيراً، فمر به وأنكره، ولو على هذا، وأومأ بيده إلى بدر، فإن جرى عليك شيء، أو لم يقبل منك، فالعلامة بيننا أن تؤذّن في مثل هذا الوقت، فإني أسمع صوتك فأستدعيك، وأفعل مثل هذا بمن لا يقبل منك، أو بمن يؤذيك"[72].

من ينعم النظر في هذا الخبر، يلحظ أنه يضم شخصية رئيسة هي شخصية الشيخ الخياط صاحب الدور في استعادة أموال شيخ التجار، وفي إنقاذ المرأة من اعتداء التركي عليها وإعادتها إلى زوجها. ولم تقدم هذه الشخصية في الخبر دفعة واحدة، بل قدمت في القصة الإطار في سياق دورها في استعادة

أمـــوال شـــيخ الـــتجار، دون تدخل من الراوي في توضيح سبب طاعة القائد للخياط، مما أثار فضول شيخ التجار والقارئ معاً وتساؤلهما.

إن الســؤال الســابق حوّل الشيخ الخياط من شخصية مروي عنها إلى شخصـــية راويـــة، وأصبح شيخ التجار مروياً عليه[٧٣]. والشيخ الخياط يروي قصـــته مـــع المـــرأة بضـــمير المتكلم، وهي القصة التي كانت سبباً في طاعة الآخرين له خوفاً من المعتضد. وقد قدمت، في إطار دورها الإنقاذي الذي تمثل فـــي محـــاولات الخياط المتكررة لإنقاذ المرأة وآذانه في منتصف الليل، أي ما قامـــت بـــه الشخصية من أفعال. فالراوي شاهد على الحدث ومشارك فيه، وقد أفســـح الخبر حيزاً لتحاور الشخصيات فيما بينها، سواء أكان هذا الحوار منقولاً على لسان الراوي من مثل الحوار الذي دار بين شيخ التجار والخياط[٧٤]، وهو الحـــوار الذي كان سبباً في تضمين الخبر قصة جديدة، أو الحوار الذي دار بين المعتضد والرجل التركي الذي ورد على لسان (الشيخ الخياط-الراوي) الذي بيّن من خلاله اتساع حال التركي وغناه وكثرة جواريه، إلا أن هذه النعم لم تكفه عن ارتكـــاب المعاصـــي، وخـــرق هيبة السلطان[٧٥]، كما أشار المعتضد، فتضمّن الحوار اعتراف التركي بما فعله، مما سارع في تنفيذ العقاب فيه، بعد أن ثبتت التهمة عليه باعترافه.

أخـــيراً، فـــإن الخبر يتضمن وصفاً للزمان الذي جرت فيه الحادثة، قد وظّف توظيفاً فنياً، فقد حدثت هذه الحادثة بعد صلاة المغرب، وخلو الشارع من الـــناس[٧٦]، فاســـتغل هـــذا الوصف لإبراز صعوبة خلاص المرأة من التركي "فكانـــت تستغيث ولا تجد من يغيثها، وتصيح ولا يمنعها منه أحد[٧٧]" كما كانت تشـــير إلى صعوبة موقفها تجاه بيتها وزوجها، وتردد العبارة الآتية: "فإن بيتّي هـــذا، أخرب بيتي، مع ما يرتكبه مني من المعصية، ويلحقه بي من العار"[٧٨]. واختـــيار هـــذا الزمان يبين صعوبة موقف الخياط، الذي وقف عاجزاً أمام هذه

الحادثة؛ ويهيئ القارئ لتقبل قرار الشيخ الخياط وهو رفع آذان الفجر في منتصف الليل. فلم يكن قراره مفاجئاً، بعد أن بذل كل ما في وسعه لإنقاذ المرأة. وكأنه أراد بهذا أيضاً الانتقال من ليل الشدة إلى فجر الخلاص، والإشارة أيضاً إلى سهر المعتضد -على الحقيقة- على أمن الناس حين قال للخياط : "فالعلامة بيننا أن تؤذن في مثل هذا الوقت، فإني أسمع صوتك فأستدعيك"[٧٩]. فالليل لا يمنع المعتضد من إقامة العدل. والخبر أخيراً يشير إلى الزمن التاريخي للحادثة التي تحيل إلى عهد المعتضد عهد الأمن والعدل.

أما الخبر الآخر، فيتحدث عن يقظة المعتضد ومعرفته لما يدور في أرجاء الدولة، لاسيما ما يفعله الوزراء، فهو يعلم بما يدور في مجالسهم الخاصة، وبالمال الذي يأخذونه لتسهيل معاملات الناس. إلا أنه لا يستغل هذه المعلومات للإساءة إليهم، لاسيما أنه ورد في النشوار خبرٌ يبين حسن معاملة المعتضد للعمال المصروفين[٨٠].

هذا الخبر يتحدث عن حب القاسم بن عبيدالله للغناء والشرب، إلا أنه كان يخفي هذا عن المعتضد، لئلا يتصوره بصورة حدث، متوفر على لذّاته، يخل بالعمل، فيفسد رأيه فيه[٨١]. وقد احتال القاسم في ليلة من الليالي، وجمع من المغنيات جمعاً كثيراً، وفيهن محظيته، وشرب على الورد، وخلط الورد بالدراهم ونثره ولبس ثياب قصب مصبغات من ثياب النساء، وليس معه غيرهن. إلا أن المعتضد استدناه، في اليوم التالي، إلى أن صار بحيث لا يسمعه غيره، وسأله قائلاً : "يا قاسم لو دعوتنا البارحة، فكنا نلعب معك شاذكلى[٨٢]، ولكنك احتشمت، لأجل المصبغات التي لبستها أنت وعشيقتك"[٨٣]، فكاد القاسم يموت جزعاً، إلا أن المعتضد طمأنه قائلاً : "لو علمنا أنه يلحقك هذا، ما أخبرناك بشيء، ولا آذيت قلبك، امض في ودائع الله"[٨٤]. فقرر القاسم معرفة المصدر الذي أتى المعتضد بالمعلومات؛ فإذا كان المعتضد يعرف هذا القدر من

أخـــباره الخاصـــة، فكـــيف تخفى عليه مرافقة (الرشاوى). وتطوع أحد رجاله لمعرفة هذا، فاكتشف أن المعتضد قد جنّد واحداً من رجاله لمعرفة أخبار القاسم بن عبيدالله الوزير.

والخـــبر يـــبدأ بوصـــف حب القاسم للشرب واللعب، وخوفه من معرفة المعتضـــد بذلـــك. وبعدها يسرد بشكل مكثف خبر الليلة التي شرب بها القاسم، ويشير فيه إلى معرفة المعتضد بها. ثم يتكفل الخبر فيما بعد بتفصيل تأثير إلقاء المعتضـــد لهـــذه المعلومة على مسامع الوزير، ويتضح هذا من قوله : "إن لم أعرف من رقى هذا الخبر، انشقت مرارتي، وقتلت نفسي"(٨٥). مما دفع الوزير في النهاية إلى تكليف شخص ليعرف صاحب الخبر الذي جنده المعتضد لمعرفة أخبار الوزير.

والخـــبر قـــائم في الأساس على الوصف، لأن الشخص الذي كلّفه القاسم اتخـــذ دور الملاحظ والمشاهد، فهو يصف ما يراه وما يسمعه دون تدخل منه، وهـــو يـــتابع الشخصية التي يراقبها، لأنه ملازم لها وينتقل معها من مكان إلى آخر(٨٦). وبعد أربعة أيام من مراقبته للأماكن المحيطة بدار الخلافة والدواوين، ومجـــالس أصحاب البريد والخبر، ولم يظفر بشيء، وقف في اليوم الرابع على دابـــته فـــي باب العامة ينتظر خروج الوزير، وإذا هو برجل شاب يحبو على ركبتيه زِمانة، كما يكون الزَمِن الذي يتصدق، وقد جاء قبل طلوع الشمس بشيء كثـــير، فـــزحف، ودخل على البوابين، فلـــم يمنعـــوه"(٨٧). فكان يتابع تحركات الشـــاب من حجرة إلى حجرة، ويصفها، فسمعه يسأل البوابين : "من بكّر اليوم إلـــى الدواويـــن؟ ومن دخل؟ ومن حجب؟"(٨٨)، فعلم أنه صاحب الخبر، فتابعه صاحب الخبر دون أن يراه، فدخل الزَمِن دهليز العامة، وتجاوزه إلى الصحن، ثـــم إلى باب الحرم، ودار الخلوة التي يخلو فيها الوزير...الخ. والراوي يصف بدقـــه مـــا يفعله في كل مكان يدخله يقول مثلاً: "ثم جاء إلى باب الحرم، فدعا

للخـــادم الموكل بالباب، فتصدق عليه، وأعطاه، وجلس هناك يتطايب، وكل من دخـــل وخرج، من جارية أو خادم يسأل عن خبره، ويولع به، ويهب لـــه شيئاً، ويســتخرجهم أخبار الدار، وينقل مافيه، ويقول : "قولوا لستنا فلانه تهب لي ما وعدتني به، وقولوا لستّي فلانة، تتصدق عليّ، وسلوا ستي القهرمانة الفلانية عن خـــبرها، وأقرؤوها سلامي، وأنا أشاهده، وأتعجب منه، حتى استنفد من أخبار جـــواري القاســـم، ومبيتة، وعند من بات منهم البارحة، وما بين الجواري من الســـرور والأنـــس، وأخـــبار كســـوتهم، وأشـــياء مـــن هذا الجنس، كل شيء طـــــريف"[٨٩]. وحين سأل صاحب الخبر البوابين ؛ تعرفون هذا؟ قالوا : "رجل زمـــن، أبلـــه، يجـــيء فيتصـــدق، وخلقه طيب، فكل من في الدار، يستطيبه، ويـــــبـــره"[٩٠]. ولم يتوقف صاحب الخبر عند هذا الحد، وإنما تابع الشاب إلى أن دخـــل خانـــاً، وظل الراوي يراقبه، فخرج منه "بريئاً، نظيفاً، بثياب مرويّة ولحية بيضاء، وطيلسان، وعمامة قد جعلها فوق حاجبيه، فلولا قرب عهدي به، وبرؤيـــته، لما عرفته، وإذ هو يمشي لا قُلّبه به. فتأملت لحيته، وإذا هي ملّبسه فوق لحيته، وقد أخفاها بعمامته... ومضى حتى أتى دار ابن طاهر، فخرج إليه الخادم، فما منهما من كلّم صاحبه، بأكثر من أنه أخرج رقعة لطيفة فسلمها إلى الخـــادم، ودخـــل الخادم، ورجع هو"[٩١]. فأعلم صاحب الخبر الوزير بما جرى أمامـــه من أمر الشاب، وعندما جاء الشاب الزمن في اليوم التالي، فلم يعرض أحدٌ له بشيء حتى دخل حجرة الخلوة، فأغلق عليه الباب، وأخبر الوزير بذلك. وحين سأله عن خبره قال: "أنا صاحب المعتضد عليك، منذ كذا وكذا شهراً"[٩٢]. فحبسه القاسم وقتله فيما بعد[٩٣].

مرحلة فاصلة بين الماضي والحاضر :

حقبة المقتدر نموذجاً :

حـــاول التنوخـــي في النشوار، كما أشرت، أن يقرأ عصره من خلال الموازنة بين الحاضر الذي يشهد تغيراً نحو الأسوأ، والماضي الذي يمثل صورة مشرقة ونموذجه حقبة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هــ)، وأن ينقب عن الأسباب التي أدت إلى ضعف عصره. فتوقف عند حقبة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هــ)؛ وهي حقبة فاصـــلة فـــي الـــتاريخ العباسي، كونها شهدت تحولات خطيرة على الصعيدين السياســـي والاجتماعـــي، مما أدى إلى انتقال المجتمع من النقيض إلى النقيض، الأمر الذي جعلها مسؤولة عن معاناة الناس فيما بعد. لهذا فقد أولى التنوخي هذه الحقبة عناية خاصة، وشغلت حيزاً مهماً من أخبار النشوار.

مـــن يرصـــد هذه الأخبار في مجملها يلحظ أنها تصف حقبة ينتفي فيها الأمـــان، ويســـودها الخـــوف والترقب الدائمين، ويعيش أفرادها، مهما اختلفت مستوياتهم الاجتماعية حياة قلقة غير آمنة، ومهددة دوماً بالمصادرة أو التعذيب أو القـــتل؛ بسبب التغيرات السياسية السريعة[٩٤]. وتمحورت هذه الأخبار حول الخلـــيفة ورجالـــه المقربين من وزراء وقواد وقضاة، وصراعهم على امتلاك السلطة، وكيفية إدارتهم للبلاد وعلاقاتهم بالرعية، وما ينتج عن هذه الصراعات مـــن ظلم وأحكام جائرة، فكثر الحديث عن استتار العمال والموظفين، وهربهم خوفـــاً مـــن المصـــادرة والتعذيب، وعن محاولاتهم العجيبة ووسائلهم المختلفة لـــتكديس المال وإخفائه خوفاً من المصادرة وتحسباً لها[٩٥]. فالخليفة يعيش حياة عابـــثة لاتهمـــه ســـوى مصلحته الشخصية، ولذا كان إسرافه وتبذيره للأموال موضوعاً لغير خبر[٩٦]؛ إذ بلغ إسرافه حداً دفعه إلى بيع ضياعه للإيفاء بمطالب غلمانـــه بالمـــال[٩٧]. والـــوزراء يملكـــون صلاحيات واسعة تمكنهم من الثراء الفـــاحش، بســـبب استيلائهم على أموال المصادرات[٩٨]، واستباحتهم لأمـــوال

الدولـــــة[٩٩]، وأخذهم الرشاوى، التي تسمى بالارتفاق، ثمناً لخدمات يقدمونها للـــنـــاس[١٠٠]. وقد عبّر عبيدالله بن سليمان عن هذه الصلاحيات قائلاً: "من قال لـــك إنـــه يجلـــس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعل شيء على وجه الأرض فقد كذبـــك"[١٠١]. وقـــد بلغـــت هذه الصلاحيات حداً دفعت الوزراء إلى الحكم على بعض العمال بعدم التصرف أبداً[١٠٢]. فقد هدد أبو الحسن بن الفرات واحداً من العمال قائلاً : "فلا تتصرّف ـــوالله"[١٠٣]. أما الوزير ابن مقلة فكان يستحث كاتبه علـــى الحصول على المال بأي وسيلة، فكان يخصه بالأعمال التي تكسبه مالاً، ثـــم يقدم لـــه نصيحة يقول فيها "إذا قال لك السلطان، هات لأغرف لك، فابسط حجرك، ولا تنتظر غضارة، إن صرفني الخليفة الليلة عن الوزارة، كيف تصل أنـــت إلى المـــال؟ إن مـــت..."[١٠٤].

وكان ابن مقلة هذا، في بداية أمره، كاتباً لأبي الحسن ابن الفرات، فكان يعطيه نسبه معينة من غلات السواد، وحين تسلم هذا المال أول مرة حدثته نفسه بـــالوزارة والســـعي فـــي طلبها، للمكاسب التي سيجنيها من هذا المنصب[١٠٥]. وعلـــى الـــرغم من هذه الصلاحيات إلا أن ما يلفت الانتباه في هذه الحقبة هو ضـــياع هيـــبة الوزراء، فكان يخلع على الوزير ثم يصادر ويعذب أو يُنفى، ثم يعـــود إلـــى الوزارة مرة أخرى، وهكـــذا[١٠٦]. أما عن القضاء، فقد كانت هذه الحقـــبة البداية الحقيقية لانحلال القضاء، عندما "أدخل –ابن الفرات– فيه قوماً بالذمامـــات، لا علـــم لهـــم، ولا أبـــوة فـــيهم"[١٠٧]. فظهر الظلـــم في قبض المواريـــث[١٠٨]، وجـــباية الخراج، مما دفع ببعض علماء المعتزلة إلى تحريم العمل مع السلـــطان[١٠٩]، بسبب الظلم في تطبيق نظام الخراج، ولأن العمل مع الســـلطان فـــيه مساعدة للظالم على تطبيق الأحكام الجائرة. فأبو علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي المعتزلي (ت٣٠٣هـــ) ينصح أبا القاسم ابن أبي علان كاتب ديوان الأهواز وعاملها بترك التصرف خوفاً عليه من النار فيقول لـــه : "والله، لئـــن مـــتَّ علـــى هذه الحال، لا رحت رائحة الجنة"[١١٠]. وحين يحتج ابن أبي

علان، بأنه ليس إلا ناسخ، ويأخذ أجره من بيت المال، يجيبه أبو علي الجبائي ؛ إن الله لا يخادع، لأن العامل على دراية بالطريقة التي يجبى بها الخراج، فيضرب، ويصفع، ويقيد، ويأمر وينهى، ويزيد وينقص. لذا فإنه يطلب من العامل أن يجعل من جعفر بن حرب (ت٢٣٦هـ)، وهو معتزلي بغدادي، مثله الأعلى. وكان جعفر هذا يتقلد كبار أعمال السلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزراء، فترك هذا كله، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات[١١١]. وهذا أبو زهير الجبائي الفقيه على مذهب أبي حنيفة يعارض أن يأخذ الفقيه من السلطان رزقاً، أي أنه يرفض اعطيات السلطان الجائر الذي تحفه شبهة الحرام. فاحتج أبو الحسن الكرخي عليه، بأن الحسن البصري ﷺ، أخذ من بنى أمية، فقال أبو زهير له ؛ "ذهاب هذا عليك أطرف، بنو أمية، كانت مصائبهم في أديانهم، وجبايتهم الأموال سليمة، لم يظلموا في العشر، ولا في الخراج، وكان الفقهاء يأخذون الأموال مع سلامتها. وهؤلاء مع سلامة أديانهم، أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش"[١١٢].

فالأخبار تتضمن إدانة واضحة لهذه الحقبة، التي عبّر عنها صراحة، الخبر الذي يبين آراء القضاة والوزراء بالمقتدر نفسه. فعلى الرغم من الحياد في رواية هذه الآراء إلا أنها تتضمن إدانة لتقلباته[١١٣]، وشغفه بالنبيذ وحبه للشهوات. يقول والد المحسِّن التنوخي رداً على من وصف المقتدر بالجهل :"فإنه لم يكن كذلك، وما كان إلا جيد العقل، صحيح الرأي، لكنه كان مؤثراً للشهوات"[١١٤]. أما أبو الحسن علي بن عيسى (ت٣٣٤هـ)، الذي وزر للمقتدر غير مرة، وكان يتناوب هو وأبو الحسن علي بن الفرات (ت٣١٢هـ) على الوزارة، فقد قال : "ما هو إلا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة، حتى يصح ذهنه، ... وما يفسده غير متابعة الشرب، ولا يخبّله سواها"[١١٥].

رؤية التنوخي لحقبة المقتدر :

والسؤال الآن ؛ كيف قدمت هذه الرؤية في أخبار النشوار؟ وقبل الإجابة عنه، علينا أن نتذكر أن ملامح حقبة المقتدر قد قدمت على شكل نبوءة، تنبأ بها المعتضد، وأشار فيها إلى سقوط الدولة على يد ابنه المقتدر؛ لما عرف عنه من تبذير واستخفاف بالأموال، وسيطرة النساء عليه. فكانت هذه النبوءة بمثابة إعلان من المعتضد عما ستؤول الدولة إليه، بعد موته، وبعد انقضاء مدة خلافة ابنه المكتفي (٢٨٩-٢٩٥هـ)، وتسلم المقتدر مقاليد الخلافة.

وتعد هذه النبوءة استشرافاً أو استباقاً[١١٦] يقوم بوظيفة الإعلان، لأنه يخبر صراحة عن سلسلة الأحداث التي سيشهدها الخبر في وقت لاحق والأخبار الأخرى، فيكون دور الإعلان خلق حالة انتظار في ذهن القارئ، ويحسم هذا الانتظار في الأخبار التي تروى عن إسراف المقتدر، وإسراف والدته، وعن سيطرة الديلم فيما بعد، وشكوى الناس من ظلمهم، فكان "الناس يتمثلون إذا ظلموا، فيقولون : أي شيء خبرنا؛ في يد الديلم نحن أم في يد الأتراك، فصاروا في ممالكهما وأيديهما"[١١٧]. كما في الأخبار التي تشير إلى سقوط الدولة وضعفها، فمن مظاهر انحلال سياسة الملك، فساد القضاء، وفساد الوزارة، مما أدى إلى سقوط الخلافة.

ولا يكتفي الخبر الذي يتحدث عن فساد القضاء وفساد الوزارة، بما قدمه من أسباب كافية لإدانة المنصبين. وإنما يصف مشهداً يجتمع فيه الناس لمشاهدة قراد وقرد، وفيه يسأل القراد قرده عن الوظائف التي يرتضيها لنفسه أو يتمنى أن يعمل بها فيسأله : "تشتهي أن تكون بزازاً؟ فيقول : نعم، ويومئ برأسه، فيقول تشتهي أن تكون عطاراً ؟ فيقول : نعم، برأسه، فيعدد الصنائع عليه، فيومئ برأسه، فيقول له في آخرها : تشتهي أن تكون وزيراً؟ فيومئ برأسه :

لا ويصيح، ويعدو بين يدي القراد، فيضحك الناس"[١١٨]. مما يشير إلى سقوط الوزارة، واستخفاف الناس بها، لدرجة أن القرد لا يرتضيها مهنة له.

أما عن فساد القضاء فيروى التنوخي خبراً عن تقليد ابن الفرات لأبي أمية الأحوص، وهو بزاز، وكيفية حصوله على هذا المنصب. وكان هذا البزاز قد أحسن لابن الفرات في أيام استتاره من السلطان، فسأله ابن الفرات : إن وليت الوزارة، أي شيء تحب أن أعمل بك؟، "تقلدني شيئاً من أعمال السلطان"[١١٩]، وحين يجيبه ابن الفرات : "ويحك، لا يجيء منك عامل، ولا أمير، ولا صاحب شرطة، ولا كاتب، ولا قائد، فأي شيء أقلدك؟. فتبلغ حيرة الأحوص مداها، فيقول له : لا أدري، ما شئت. فيقول له : أقلدك القضاء، فيرضى الأحوص بذلك"[١٢٠]. وكأن القضاء شيء هيّن؛ مع أن خط القاضي ينفذ في الأموال والفروج والدماء[١٢١]. والملاحظ أن الأحوص لا يملك سوى ألفاظ لا يدرك معناها. فهو يقبل بالمنصب لأنه لا يستطيع الاختيار؛ فهو يريد أن يتقلد شيئاً من أعمال السلطان، ولا يدرك ماهية هذه الأعمال. وحين ولى ابن الفرات الوزارة قلده القضاء.

من المهم أن يشار إلى أن حسن الصنيع وقت الشدة في أخبار "الفرج بعد الشدة" يعد محمدة تستحق التقدير والمكافأة، إلا أنه يجعل من مكافأة الأحوص على هذا النحو إدانة للنظام؛ لأنه بهذه الأعمال، كان يسارع في فساد الدولة وانحلالها.

وبعدها يختم الراوي هذا الخبر "ثم انحدر أبو أمية إلى أعماله، فأراد أن يغطي نفسه، وقلة علمه، ويصل ذلك بشيء يتجمل به، فعّف عن الأموال، فما أخذ شيئاً، وتصوّن وتوفّر، واقتصر على الأرزاق، وصلات ابن الفرات الدارة، فسدّ ذلك جميع عيوبه"[١٢٢].

وبعـد هـذا الخـبر يرد خبر آخر يتحدث عن عفة هذا القاضي وحسن سـيرته، ويشـير إلـى أنـه مات في السجن بعد أن قُبض عليه في نكبة ابن الفـرات[١٢٣] الأخيرة. والمفارقة في الخبرين أن تحقيق العدالة في هذه الحقبة تمت على يد قاضٍ يجهل القضاء، فلا أبوة له فيه ولا علم.

الملاحظ في الخبرين السابقين الحوار بين الشخصيات الذي أورده الراوي عـبر صـيغة السـؤال والجواب، إذ يلقي السؤال، ثم تسمع الإجابة فيما بعد، فالـراوي يتحدث من خلال الشخصيات، إلا أنه يوهم بعدم تملكه لهذا الرأي أو الحقيقة، إلا أن ترتيبه الحوار على هذا النحو يوحى أنه قُدم ضمن خطة مقصودة من أجل الوصول إلى الفكرة التي يراد اثباتها. وكذا الأمر حين يروي عن رجل يتحامق، ويعرف بأبي الرطل، ولا يتكلم إلا بالسجع، هزلاً كله. فيشير من خلال السـجع والتـندر والتحامق معاً إلى إدانته للخلفاء الذين يسرقون وللقضاة الذين يحنقون، فإذا سمع العامة يقولون: ديوك لا تغرق، قال هو : "والديك لا تسرق، وسّنور لا يزلق، ونور لا يعبق، وذرة لا تسرق، حتى لا تغرق، ونار لا تحرق، وخليفة لا يسرق، وقاضٍ لا يحنق"[١٢٤].

وعلـى الرغم من الصورة القاتمة التي رسمت لهذه الحقبة، إلا أن هناك إشـارات إلـى بعـض الجوانـب المضيئة فيها. ويمكن تبين هذه الجوانب في المواقف الإيجابية لبعض كرماء هذه الحقبة، ومن بينهم علي بن عيسى الوزير، وابـن رزق الـتاجر فالوزيـر كان يعمل على تفقد أحوال أسرى المسلمين في الـروم، ويعمـل علـى إزالة الأذى وسوء المعاملة عنهم؛ بإرسال الكتب إلى الـبطرك والقاثليق لأن أمرهما ينفذ على ملك الروم، للاطمئنان عليهم، وإرسال الرسل لتفقد أحوالهم في أماكن أسرهم[١٢٥]. في حين كان ابن رزق التاجر يعمل على الإنفاق على هؤلاء الأسرى[١٢٦].

الحاضـــر :

شـــهد الحاضـــر – وأعني به في هذا البحث الحقبة المحددة بدخول معز الدولة البويهي إلى بغداد ٣٣٤هـ، حتى الانتهاء من تأليف النشوار – تحولات عنيفة دفعت المحسِّن التنوخي إلى البحث عن تفسير لما يحدث من ضعف وسوء حال أو تراجع، لاسيما بعد ظهور منصب إمرة الأمراء سنة ٣٢٤هـ، ودخول الديلـم إلـى العراق[١٢٧]. فاتجه للماضي ممثلاً بحقبة المعتضد، ثم توقف عند الحقــبة التالية له وهي حقبة المقتدر، فوجد أن التغير نحو الأسوأ كان استمراراً لــبوادر الــتدهور الذي ظهر في حقبة المقتدر ونتيجة طبيعية له؛ كما تجلى في الأخــبار التي أوردها التنوخي عن هذه الحقبة. لهذا السبب نالت هذه التحولات ونــتائجها عــناية التنوخي في أخباره، فقدم رؤيته لتحول المجتمع والتاريخ في عصره.

حقبة معز الدولة البويهي :

تظهــر هذه الحقبة[١٢٨] كما قدمها المحسِّن التنوخي، مثقلة بالسلطة التي تحكم قبضتها على جميع مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ وقد تجلّــى هذا في أساليب القهر التي مارستها على المجتمع بجميع طبقاته بدءاً من الــوزراء وانــتهاءً بالمســاجين، بل كانت سلطة أمير الأمراء سيفاً مصلتاً، في بعــض الأحــيان، علــى رقاب الخلفاء[١٢٩]. فالمهلبي مثلاً أمر بطرد محمد بن الحســن بن عبد العزيز الهاشمي وهو من وجوه بني العباس من مجلسه – كما يــروي المحسّــن التنوخــي عن حادثة شاهدها أمامه سنة (٣٥٠هــ)، يقول : "فجرّت رجله ونحن حاضرون،فرأيت قلنسوة كانت على رأسه وقد سقطت"[١٣٠]. وبعــيداً عن الخلفية التي دفعت المهلبي إلى مثل هذا التصرف، وهو حدوث ثــورة العيارين التي كانت بسبب عربدة وقعت بين رجل عباسي وآخر علوي،

فإن ما تضمنه كلام المهلبي قبل أن يأمر بالطرد، يشير إلى جملة التغيرات التي حدثت في البنية السياسية، بعد مجيء الديلم، ودخول معزالدولة إلى بغداد، وأهمها ضعف الخليفة العباسي، وتسلط الأمراء، يقول المهلبي موجهاً خطابه لمحمد بن الحسن الهاشمي: "وما تظن، إلا أن المتقدر على السرير، وأنا أحد وزرائه، ولا تعلم أن صاحب السرير اليوم، هو الأمير معزالدولة الديلميّ، يرى أن في سفك دمك قربة إلى الله تعالى، وأن وزنك عنده كوزن الكلب"(١٣١).

فالأمير معزالدولة هو صاحب السرير وليس الخليفة، بل إن المطيع لله الخليفة، راسل الوزير في أمر الرجل العباسي للعفو عنه. يضاف إلى هذا، فضلاً عما سلف، المهانة التي يتعرض له كل من تسول له نفسه الاعتراض، وكان العباسي قد اعترض على خطاب المهلبي، فوزنه عند معزالدولة كوزن الكلب، ويرى في سفك دمه قربة إلى الله تعالى. ولعل في هذه إشارة إلى تعاطف معز الدولة في بداية أمره مع العلويين، ومحاولة إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة لمعز الدين العلوي، أو لغيره من العلويين، لكنه عدل عن هذه السياسة "لما قد يتعرض له سلطانه من خطر، بسبب وجود خلافة علوية، يطيعها الجند، ويعترف بها الديلم، ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء(١٣٢). وإذا كان المهلبي قد مارس تعسفه وظلمه على الرجل العباسي، فإنه لم ينجُ من سلطة الأمير معزالدولة حين أمر به، فبطح، وضرب مقارع كثيرة -ثم أمُر بخنقه- فجُعل في عنقه حبل؛ وأمسكه ركابيون فوق السور، ليشيلوه، فيخنق"(١٣٣). ولولا مبادرة خواصه من الأتراك والقواد بتقبيل الأرض بين يدي معز الدولة، ومسألته الصفح عنه، لقضى نحبه في الحال؛ مما يدل على سقوط هيبة الوزارة، ويدل أيضاً على فظاظة الطبع عند معز الدولة(١٣٤).

ولـــم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إنما كان الخوف من أمير الأمراء يدفع بالكثيرين إلى قتل الأبرياء، خوفاً من عقابه، كما في الخبر الذي يروى عن أمير الأمـــراء بَجْكم الذي أمر بعض غلمانه بقتل قوم من المساجين الأعراب، وحمل رؤوســـهم إليه بالتعاون مع العامل في الأنبار. إلا أنهم فقدوا رأساً مما كان في المخالـــي؛ فـــأجمعوا على اعتراض أول رجل كائناً من كان فقتلوه وجعلوه في المخـــلاة. خوفا من اتهامهم بأخذ المال من المسجون وتهريبه. وتم ذلك بعد أن "اســـتقبلهم رجل شيخ حسن الشيبة والثياب، له سجادة وسمت"(١٣٥). فأوقعوا به وقتلوه، وبعدها اكتشفوا أن الرأس المفقود ملقى بين أرجل الدواب. وعلى الرغم مـــن أن الخـــبر يشير فيما بعد إلى أن الشيخ الذي قتلوه ما هو إلا خناقٌ شداخ، وأنـــه يستحق القتل، إلا أن الخوف من أمير الأمراء كان دافعهم الأول والأخير للقـــتل. وكـــذا الأمر في الخبر الذي يروى عن انفصال سجين من مجموعته، وهـــربه من الحراس، وكان صاحب الشرطة الابزاعجي، فقرر الحراس البحث عـــن شخص مشؤوم، حانت منيته ليوثق ويصلب، كما أمر الابزاعجي بعد أن اســـتأذن معـــزالدولة بصـــلب المســـاجين وقـــتلهم، مع سائر المسجونين، لأن الابزاعجـــي، لا يقيل عثرة، ولا يقبل عذراً، وسيتهم رئيس الحرس، بأخذ المال من السجين؛ فيأمر بضربه حتى الموت(١٣٦).

يمكـــن تبيـــن مظاهر هذه السلطة في تحكم رجالات الدولة في الأموال العامـــة وصرفهم إياها في الوجوه التي يرونها مناسبة لهم. وقد كثرت الأخبار التـــي تروى عن مطالبة الوزراء بتحصيل الأموال، مهما كان مصدرها، بغض النظر عن نتائجها السلبية على الناس. فحين بنى الأمير معزالدولة قصره، قدّر لـــــه ألوف الدراهم، إلا أن النفقة زادت على ذلك التقدير أضعافا، فكان يطالب وزيـــره المهلبي بتوجيه وجوه الأموال لذلك، مع قصور الدخل عن الخرج(١٣٧). وكذلـــك كـــان الأمـــر في مطالبته لوزيره أبي جعفر الصيمري، خمسمائة ألف ديـــنار، فقال له الصيمري : فإذا لم يكن في الدخل فضلاً لذلك عن الخرج، فمن

أين أحصل عليه؟ فجرد عليه معزالدولة. ولولا ظُرف الصيمري وإجابته الماجنة فـيما بعـد، لما نجا من العقاب(١٣٨). وهكذا أصبح الاستغلال وانتهاز الفرص، للحصـول على المال، مهما كانت الوسيلة، هاجساً لدى الكثيرين فالمهلبي مثلاً لايـتورع عن أخذ غلات التجار وغلات كثير من الناس وبيعها؛ بسبب ضائقة حلت به(١٣٩).

نتـيجة لذلـك، كـان الثراء الفاحش من نصيب رجالات الدولة، من قواد وكـتاب ووزراء، ويسـتدل على هذا من الأخبار التي تروي نماذج من أنفاقهم الأموال الطائلة على المغنيات(١٤٠) أو في مجالس الشرب(١٤١).

وإزاء هـذا الواقع عانى كثيرون من الفاقة والعوز؛ مما دفع بامرأة وفي وقـت الغلاء إلى أن تشوي ولدها لتأكله(١٤٢)؛ لأن الكرَّ المعدل من الحنطة بيع بعشرين ألف درهم في سنة ٣٣٤هـ(١٤٣)، وهي السنة التي دخل فيها معزالدولة إلـى بغداد، ولا يملك التنوخي إلا أن يعوذ بالله من مثل هذه الأحوال. وقد كثر الحديث عن التصرف والتنقل بين البلدان طلباً له، كما في الخبر الذي يروى عن سـائل سافر أربع دفعات بين الصين والأبلة(١٤٤) يبحث عن رزقه، ولم يجده إلا من الكدية، فعجب الراوي من شدة حرمانه(١٤٥).

كيفية تعبير التنوخي عن حقبة معز الدولة البويهي :

وأمـام هذا الواقع، لم يجد الناس أمامهم من سبيل إلا الشكوى من الزمن تصـريحاً أو تلميحاً، أو التصبر وانتظار الفرج وتحقيق العدالة، على الرغم من إدراكهم خطورة مايحدث.

تذاكـر المحسن التنوخي مع الكاتب الأهوازي أحمد بن محمد بن عبدالله بـن الحسـين، تصـرف الزمان، وفساد الأخوان فيه، وقلة المودات، فاستذكر الكاتب الأهوازي مقولة أبي الحسن بن الفرات عندما قال : "جزى الله عنا من لا

نعــرفه ولا يعرفنا خيراً، ثم قال : "أحصيت ما أنا فيه من المكاره، فما وجدت مــنه شــيئاً لحقني، إلا ممن أحسنت إليه"[١٤٦]. ويزيد الكاتب الأهوازي -وهو صاحب خبرة واسعة في الحياة ومعاشرة الناس على اختلاف أجناسهم، لكثرة ما تقلــده مــن مناصب، فقد كان والياً على الأهواز لمدة طويلة. وهو من معقلي الناس وفضلائهم، عقلاً، ونبلاً، وبراعة في صناعته- قائلاً : "لأنه على علم بك، فأمّــا الضرر ممن لا تعرفه، فبعيد جداً، مثل لصوص يقطعون عليك الطريق، غرضهم أخذ المال منك، أو من غيرك، وما يجري هذا المجرى، وعلى أن أشد الضرر من اللصوص، ما وقع عن يقين، وعلى معرفة بالإنســان"[١٤٧].

ويشــير التنوخــي في خبر آخر إلى ضيق أحوال الناس وفقرهم، بحيث صــار الــبخل مســتحباً، وصــار الناس يوصون بعضهم بعضاً بالإمساك عن الإحســان إلــى الآخــر، وإغاثــة الملهوف أو التنفيس عن مكروب، وهي من الأخــلاق التــي دعــا إليها الرسول ﷺ. ويذكر حادثة وهي أن واحداً من أهل البيوتات جاءه وذكر أن صلاح أمره في نيف وثلاثين درهماً وأنه لم يجد مبتغاه عند أحد. فقال التنوخي "فما طمعت لــه فيها من أحد، ولا عرفت من أعلم أنني إن خاطبتــــه فيها أجاب"[١٤٨].

يمكن القول إن استحباب البخل بسبب ضيق الأحوال ليس بالأمر الغريب، ولكن ما يدفع إلى العجب والغرابة أن أصحاب معزالدولة وهم على درجة عالية مــن الثراء، يعدون أحاديث الكرم والكرام، حيلاً نصبها الشحاذون على دراهم الناس لا أصــل لــها[١٤٩]، أما الجواد فهو متاجر بجوده[١٥٠]. فطلب المال في هــذا العصر كما يقول التوحيدي : "لا آخر له، والمصطنع مستزيد، والمحروم ساخط..." [١٥١].

هـذه الأخبار قصيرة في مجملها وتعبر عن الفكرة مباشرة؛ لاسيما أنها تـرد في سياق رواية التنوخي لما يدور في المجالس الخاصة من أحاديث يكون فيها محاوراً ومشاركاً، وأحياناً نجد هذه الأفكار مضمنة في بعض رسائله(١٥٢).

وأحياناً يروي أخباراً بحياد تدعو المرء من خلالها إلى إدانة ما حدث في هـذه المرحلة، من مثل الأخبار الكثيرة التي تروى عن رعب الناس من الديلم قـبل دخولهم بغـداد(١٥٣)؛ لأنهم يدركون ما سيحدث لهم في المستقبل؛ بالنظر إلى سياسات أمرائهم من مثل معزالدولة البويهي؛ فعلى الرغم من أن شخصيته وصفت بحياد في هذه الأخبار من مثل "وكان حديداً، سليم الباطن مع ذلك، وإذا أخـرج حدته، وانقضت سورة غضبه يندم على فعله"(١٥٤)، إلا أن تدخل الراوي في هذا الوصف، تدفع المتلقي إلى إدانة هذه الشخصية، حين قال "ولكن من يقوم على تلك الحدة"(١٥٥). وكذا الأمر حين يرد في النشوار أخبار تدين هذه المرحلة من مثل ما ورد عن كردك النقيب الديلمي -وهو رسول الأمير معزالدولة- أنه اغتال مستأمناً طمعاً في ماله؛ فوضع الأمير يده على ضياع الرجل وباعها(١٥٦)، أو عن الأخبار التي تروى عن أحد قواد الديلم الذي كان يضمن القمار والفجور بـبغداد ويحمـي اللصـوص بألـفى درهـم في الشهـر(١٥٧)؛ فكانت تمارس الفاحشة علانية في داره ولايحرك ساكناً(١٥٨).

وعلى الرغم من شدة الأمير معزالدولة وخوف الناس منه، إلا أن دكين الـبدوي، استطاع أن يسرق فرسه من اصطبلاته الخاصة، ويبيعها فيما بعد إلى سيف الدولة. ويقدم الراوي وصفاً دقيقاً لهذه المغامرة؛ إذ يختار دكين الليل زمناً لمغامـرته، ويتـنكر بلـباس السـائس المكلف بحراسة الفرس؛ بعد أن وجدها مطروحة إلى جنبه وهو نائم؛ ثم استيقظ معزالدولة، وجاء يتفقدها، فأوهم دكين الـبدوي معزالدولة أنه السائس، فصاح عليه معز الدولة بالفارسية، ففهم معناه الـبدوي؛ "حسـبه مـن الشـعير، لاترده إلى رأسه. فترك المخلاة ثم قال لـه

بالفارســية أيضاً؛ قصدّ عليه فأهوى يده إلى الرسن، فجلّه، موهماً أنه يقصره، فاســتوى على ظهر الفرس، وخرج ومعز الدولة ينظر إليه[١٥٩]. وبعد مغامرة طويلة مع عسكر معز الدولة، استطاع أن يهرب بها إلى الشام ويبيعها إلى سيف الدولة الحمداني.

ولمــا كانــت الأخبار التي تتحدث عن الحاضر، تشير بشكل عام، إلى غياب الوفاء وقلة المودة بين الناس لضيق الأحوال وتواتر النوائب، فإن الأخبار التــي تتحدث عن الفرج، تشير إلى حضور الوفاء عند الحيوان، وإلى حرصه على تقديم المساعدة للإنسان، وانقاذه من المهالك. فالكلب مثلاً يكشف عن قاتل سيده، لاسيما أنه الشاهد الوحيد على الجريمة التي حدثت أمامه. والخبر يصف محاولات الكلب المتكرره للكشف عن القاتل، من مثل مهاجمة القاتل والتعلق به كلمــا شاهده، مما دفع بأم القتيل إلى اتهام الرجل بقتل ولدها؛ ولما أنكر الرجل، تتبعه الكلب إلى داره وإلى الموضع الذي دفن فيه سيده، وظل يصيح... إلى أن جــاء رجــال الشــرطة فأخذ الرجل فقتل هو والباقون الذين اشتركوا معه في الجريمة[١٦٠].

ومــع أن هــذه الأخبار تنحو نحو السرد المتتابع لحوادث دالة على وفاء الحيوان ومساعدته للإنسان، إلا أن بعضها كان يستخدم الاستباق نمطاً للسرد إذ تذكــر (الشخصــية أو الــبطل) جملة، يتكهن فيها بما سيحدث له في المستقبل القريب، مما يسمح للقارىء أن يتقبلها فيما بعد، وسرعان ما يتحقق هذا التكهن. كمــا في الخبر الذي يروى عن خروج الناس متخفين لزيارة الحائر[١٦١]، خوفاً مــن الحنابلة؛ ومن بينهم صديق الراوي الذي يقول لـــه : "إن نفسي تحدثني أن السبع يخرج الساعة فيفرسني دونك، إن كان ذلك، فخذ حماري، وقماشي، فأده إلــى منــزلي"[١٦٢]، وبعدها يقول الراوي: "فما استتم الكلام، حتى خرج سبع،

فحيـــن رآه الرجل، سقط، وأخذ يتشهد، وقصده السبع، فما كذب أن أخذه وجره عن الحمار"[١٦٣]. وعلى الرغم من هذا الحادث، إلا أن الخبر يشير فيما بعد إلى نجـــاة الرجل من السبع، بعد أن رأى خنـــزيراً فقصده وترك الرجل. مما أتاح لـــــه فرصـــة الهـــرب. وفي طريق عودته، رأى جيف ناس، وبقر وغنم من افترسهم السبع، فوجد هيماناً وإذا به ألف دينار فأخذها"[١٦٤].

أمـــا الخـــبر الآخر فيجعل من التوكل على الله السبب في نجاة (الراوي- الشخصـــية) من الهلاك. وكان الراوي قد ركب البحر مع جماعة من الصوفية، فكسر المركب، فوقعوا على ساحل بعيد، فلم يجدوا ما يأكلونه، فأحسوا بالهلاك. فاجتمعوا وقالوا لبعضهم : "تعالوا حتى نجعل الله عز وجل، على أنفسنا، إن هو خلصـــنا مـــن هـــذا المكـــان، وأحياناً، أن ندع لـــه شيئاً[١٦٥]، فلعله أن يرحمنا فيخلصنا من هذه الشدة. ثم ذكر كل واحد منهم شيئاً من مثل : صوم الدهر، أو ترك الكذب، أو الصلاة الكثيرة. فقال خواص الصوفي – الراوي : "لا آكل لحم فيل أبداً"[١٦٦]. فاستغربوا هذا العهد، وظنوه يهزل، إلا أنه قال: "والله، ما تعمدت الهـــزل، ولكنـــي مـــنذ بدأتم، أعرض على نفسي شيئاً، أدعه لله عز وجل، فلا تطاوعنـــي نفســـي، إلا غير هذا الذي لفظت به، وما قلت إلا ما اعتقدته"[١٦٧]. فصار هذا العهد تمهيداً لما سيحدث للجماعة فيما بعد، لأنه –العهد– سيكون سبباً فـــي خلاص الشخصية من الهلاك ورجوعه إلى أهله. وصارت الجماعة بعدها تطلـــب شـــيئاً للأكـــل، فلم تجد إلا فرخ فيل، فذبحوه، وشووه، فأكل الجميع إلا خـــواص الصـــوفي، للعهد الذي أخذه على نفسه. وما أتمت الجماعة الأكل، إلا وفيل ضخم أقبل على الجماعة، وجعل يقصدهم واحداً واحداً، فأتلفهم جميعاً إلا خواص الصوفي، الذي كان يشاهد ما يجري، شاغلاً نفسه بالدعاء والاستغفار. وبعدهـــا لفّ الفيل خرطومه عليه، وشاله في الهواء حتى انتصب خواص راكباً على ظهر الفيل. وظل يعدو به إلى أن أوصله إلى بلد من بلدان الهند[١٦٨].

وعلـــى الرغم من أن الخبرين السابقين يتحدثان عن الفرج، إلا أن الأول يتضمن إدانة لما يفعله الحنابلة بزوار الحائر –قبر الحسين عليه السلام– لاسيما أنـــه يشير إلى رئيس الحنابلة الحسن بن علي بن خلف البربهاي مرتين، الأولى يأمر فيها بقتل نائحة تنوح على قبر الحسين بن علي(١٦٩)، والأخرى يسخر فيها مـــن جهلـــه ولحنه، فيقول للقاهر مثلاً: "يا أمير المؤمنين إهلك الهاشميين، فقال القاهـــر : أفعـــل، وإنما أراد أن يذكره بهم (ليحسن إليهم)، ويقول : أهلك"(١٧٠). ويتضمن الآخر الدعوة إلى التوكل على الله، والصدق في إخلاص النية تجاهه، لأنـــه بهـــذا وحده يستطيع المرء النجاة من المهالك، ويحقق ما يرغب فيه. هذه الأخـــبار تلح على فكرة واحدة هي حتمية حدوث الفرج، فالفرج آت مهما طال الـــزمان(١٧١)، إلا أنـــه مشـــروط بالصـــبر والتوكل(١٧٢)؛ فكثيـــراً ما يسخر الحـــيـــوان(١٧٣)، فـــيكون وسيلة لحدوث الفرج وتحققه. لذلك كانت العامة تمني نفسها بالفرج وتنتظره بفارغ الصبر، فكانت تنسحب من ضغط الواقع عليها إلى عالم جميل يتحقق فيه أملها بالتغير والعدل.

ممـــا يدفعنا إلى القول إن فكرة التأليف في كتاب الفرج بعد الشدة، ليست فكـــرة طارئـــة على التنوخي، إنما بذورها كانت في كتاب النشوار؛ لاسيما أن التنوخـــي نفسه تعرض لغير محنة، وهو يعمل على النشوار فثمة نصوص غير قليلة مشتركة بـــين الكتابيـــن(١٧٤)، وكان يمنـــي نفسه أيضاً بالفرج.

حقبة سيف الدولة الحمداني نموذجاً :

على الرغم من الصورة المعتمة التي رسمت للحاضر في أخبار النشوار، وعلى الرغم من الإدانة الواضحة لهذه المرحلة. إلا أنه قيض للحاضر أن يعيش لحظات مشرقة على يد سيف الدولة الحمداني (٣٢٤-٣٥٦هـــ)، كان لها الأثر الـــبالغ في الناس ومن بينهم والد المحسّن التنوخي. ولقد نال سيف الدولة عناية

المحسّن التنوخي في النشوار؛ لأنه كان رمزاً من رموز الكرم والعفو والشجاعة فـــي هـــذه الحقـــبة، كما في الخبر الذي يشير فيه إلى عفوه عن أحد المقربين، ويعـــرف بالناظري، والإحسان إليه، وإعادته إلى سابق عهده في خدمة سيف الدولـــة. وكان سيف الدولة قد استولى على ضيعة الناظري، وصادره، فضاقت به السبل؛ فهرب إلى كافور الأخشيدي، فأجرى عليه جراية، إلا أنه قطعها بعد أن أشـــيع عـــنه أنـــه "بغّاء" فكلم سيف الدولة في أمره، وشرح الندماء لـــه ما تعـــرض لـــه الناظري من ضائقة في مصر. وكان سيف الدولة يتشوق لسماع أخبار المصريين وما يحدث في مصر، فأذن للناظري بالعودة إلى حـــلب(١٧٥). وكذا الأمر حين أحسن سيف الدولة على ضرير، وأكرم مثواه، وأجزل لـــه في العطـــاء، لأن الضـــرير كـــان لـــه حرمة وجوار أيام مقام سيف الدولـــة في الموصل(١٧٦).

وتتبدى صورة سيف الدولة المشرقة في هذه الأخبار، حين يورد التنوخي خبراً يتحدث فيه عن شجاعة أبي فراس وكرمه، وما يكنه هذا الأخير من تقدير لســـيف الدولـــة، ويرجع التنوخي سبب هذا "لأنه يعني أبا فراس نشأ في تربية ســـيف الدولة وحجره"(١٧٧) أو حين يشير إلى ما ورد عن سيف الدولة أنه قال حين كاتبته الروم أن يفتدي أبا فراس بقوم من عظماء الروم "لا أفدي ابن عمي خصوصـــاً وأدع باقـــي المسلمين، ولايكون الفداء إلا عاماً للكافة، والأيـــــام تتدافع"(١٧٨).

وتظل صورة سيف الدولة مشرقة، لا تشوبها شائبه، من وجهة نظر هذه الأخـــبار، حـــتى لو مارس القتل ضد الآخرين، لأنه بهذا الفعل أو السلوك أراد تعلـــيم الندماء المقربين أدب الجلوس مع الملوك، من مثل ما روى عنه أنه أمر بقتل رجل فقتل في الحال. ولم يلبث أن ثار في وجوه القوم قائلاً : "أمرت بقتل رجـــل مســـلم لايجـــب عليه القتل، وإنما حملتني السطوة والسياسية لهذه الدنيا

النكدة، على الأمر به، طمعاً في أن يكون فيكم رجل رشيد فيسألني العفو عنه، فأعفو، وتقوم الهيبة عنده وعند غيره، فأمسكتم حتى أريق دم الرجل، وذهب هدراً"(١٧٩). فعللوا سكوتهم بالخوف منه، ولم يمسك عنهم إلا بعد الاعتذار.

إن الصورة التي رسمت لسيف الدولة، جاءت ربما، بتأثير من سوء العلاقة بين المحسِّن التنوخي وعضد الدولة، لذا أظهر التنوخي إحسان سيف الدولة إلى المقربين وعفوه عنهم. والأخبار في مجملها سعت إلى الكشف عن جوانب من شخصية سيف الدولة من مثل شوقه إلى سماع أخبار المصريين، لاسيما التي تذمهم؛ فقد أعجب سيف الدولة مثلاً بوصف الراوي -أحد ندمائه- للمصريين بأن "أكثرهم بغائين"(١٨٠). وأن الأعجمي، وهو واحد من كتاب مصر المشهورين يعمل حكماً بينهم، ولم يكن حديث الراوي عن المصريين في هذا الخبر مقحماً، وإنما جاء في معرض طلبه من سيف الدولة السماح للناظري بالعودة إلى حلب، بعد أن اتهم بالبغاء في مصر وتشير هذه الأخبار، فضلاً عما سلف، إلى سمة في طبعه وهي "أنه يحب أن يُسأل فيعطي، وأن يستزاد فيزيد، وأن يطالب ويناظر"(١٨١) ويتضح هذا من قول الراوي "فغمزني الأسمر في الاستزاده"(١٨٢) ثم بيّن هذه السمة في نهاية الخبر صراحة، "وكان يعجبه أن يماكس، فيجود مع المسألة، والدخول عليه مدخل المزاح في ذلك، والطيبة"(١٨٣). "وكان يعجبه إذا أمر لإنسان بشيء، أن يحضره إلى حضرته، بحيث يراه، ثم يعطيه لمن وهبه له"(١٨٤).

أخيراً، إن ما أورده التنوخي من أخبار في النشوار، تشير إلى موقفه من التغير والإصلاح في المجتمع. فهو يرى أن التغيير والإصلاح لايحدثان، إلا بقدرة إلهية أو سلطة سياسية قوية. لأن العامة - مع أنها مادة للسياسية، وصانعة للعمران، ولابد منها لانتاج الخيرات ولعمارة الأرض(١٨٥) - لاتملك

القدرة على التغيير وليست مؤهلة لـــه يقول ابن المقفع مثلاً : "الرأي إلى ولاة الأمر، ليس للناس في ذلك الأمر شيء، إلا الإشارة عند المشورة، والإجابـــة عـــنـــد الدعـــوة"(١٨٦). فينبغـــي عليها التحلّي بالصبر وانتظار فرجها أو أملها بالعدالة والإصلاح من العناية الآلهية.

ولمـــا كـــان الإصلاح لا ينتظر من العامة، فإن السلطة السياسية تصبح مســؤولة عنه، لأنها قادرة على التغيير، وهو موقف أغلبية الكتاب القدماء(١٨٧)، الذيـــن كـــانوا يتوجهون في أدبهم إلى رأس السلطة أملاً في أن يصلح بصلاحه الجميع(١٨٨). لهذا كله نالت أخبار الخلفاء والوزراء حظاً من عناية التنوخي، لأنه كان يدرك دورهم في التحولات التي حدثت في عصره، وكانت سبباً في معاناة الناس.

ويمكـــن القـــول أيضاً، إن هذه الأخبار تضج بالحنين إلى زمن الحكمام الأقويـــاء، والرغـــبة فـــي الاســـتظلال بظل حاكم قوي؛ ممن يشجعون الأدباء والمقربيـــن ويغدقـــون عليهم كالمعتضد أو سيف الدولة الحمداني، والبقاء تحت رعايـــته؛ لأن التنوخي صاحب بضاعة؛ وبما أن بضاعته الأدب والمعرفة، فهو مضـــطر أن يـــتوجه بها إلى سوق السلطان ليتخطى عتبته ويدخل إلى مجلسه ويـــبقى فيه، كما توجه أبو يوسف القاضي والأصمعي ببضاعتهما إلى هارون الرشيد، فتخطيا العتبة، ودخلا مجلسه، وضمنا البقاء فيه، يقول الجاحظ "السلطان ســـوق. وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها... وقد نظرت في التجارة التي اخترتها، والسوق التي أقمتها، فلم أر فيها شيئاً ينفق إلا العلم، والبيان عنه"(١٨٩).

وعلـــى الرغم من أن التنوخي تخطى عتبة السلطان – بعد أن توطدت علاقـــته مـــع عضد الدولة البويهي–إلا أنه لم يستطع البقاء في مجلسه طويلاً، بالنظر إلى طغيان السياسة على الثقافة. فنفض يديه من حكام عصره، "لأن من

يـــنظر إلـــى الأمام والسلطان، سيرى فرقاً يوحش القلب، ويورث الأسف"(١٩٠)، وراح يبحث لنفسه عن عزاء في الأخبار الماضية.

فالكاتب موزع بين مصيرين إما الانسحاق تحت أهواء السلطان، مقابل ما قد يناله من مال وجاه، أو على الأقل تأمين لقمة العيش، وإما الزهد في كل هذا والغـــنى بالنفس، ومعناه قبول الفقر. وقد عبّر عن هذا أبو حيان التوحيدي حين قـــال عن الدنيا "هذه العاجلة، محبوبة، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكـــل حول وقوة مخطوبة... والعزلة، محمودة، إلا أنها محتاجة على الكفاية... وتـــرك خدمـــة الســـلطان غير الممكن، ولا يستطاع إلا بدين متين، ورغبة في الآخـــرة شديـــدة، وفطـــام عـــن دار الدنـــيا صعب"(١٩١).

الهوامـــش

١- النشوار ١: ١٠.

٢-نفسه ١: ١٠.

٣-نفسه ١: ٨.

٤-نفسه ١: ٨-٩.

٥- الفرج ١: ٢٣٩-٢٤٢؛ ٣؛ ٢٦٦؛ تجارب الأمم ٢: ٢٦. يقول مسكويه عن الوزيـــر أبي الفرج محمد ابن العباس "كان الواحد منهم -الرعية- إذا تظلمّ مـــنه لـــم ينصـــف وردّ عليه أمره، فيبسط المكروه عليه، فصارت الرعية تشكره على طريق الخوف منه" (تجـــارب الأمم، ٢: ٢٦٠).

٦-لـــم يعد للعراق في هذه الحقبة الهيمنة الفكرية، بسبب ظهور إمارات قوية إلـــى حد ما، إذ حاولت عاصمة كل منها أن تصبح منافسة لبغداد. (انظر؛ اللحظات الفاصلة في الأدب العربي، تصور جديد للعصور الأدبية، ريجيس بلاشـــير، ت ؛ أحمد درويش، ضمن كتاب الاستشراق الفرنسي في الأدب العربي، ص ٥٩).

٧- البطـــيحة؛ وهـــي أرض واســـعة بين واسط والبصرة، كانت خارجة عن طاعـــة السلطـــان زمن دولة الديلـــم، والدولـــة السلجوقيـــة. (معجم البـــلدان ١: ٤٥٠-٤٥١؛ وبلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢،٦٢).

٨- الفرج ١: ١٧٣-١٧٤؛ وتجارب الأمم ٢؛ ٣٨٠.

٩- كان المحسّن التنوخي يحظى بعلاقات جيدة مع كل من الخليفة الطائـــع (٣٦٣-٣٨١هـــ) وعضـــد الدولـــة البويهي (ت ٣٧٢هـ)؛ فقد توثقت علاقـــته بالأخير بسبب صراعات سياسية، بعد فساد العلاقة بين المحسّن

وابن بُقّية وزير عز الدولة بختيار ابن عم عضد الدولة ومنافسه. فقام التنوخي خطيباً في حفل زواج الطائع من ابنة عضد الدولة. وقد زوج هذا الأخير ابنته من الخليفة الطائع أملاً في أن تلد له حفيداً، فتصير الخلافة والملك في بني بويه، إلا أن الطائع أبعد هذه الزوج عن فراشه. وحين علم والدها بذلك، اختار التنوخي ليكون وسيطاً بينه وبين الطائع، وينقل رسالة على لسان والدة الصبية تقول "إنها مستزيدة لإقبال مولانا عليها" فتذرع التنوخي بالمرض، فلم يغفر له عضد الدولة ذلك، لاسيما أن التنوخي أفشى قبل ذلك سراً له يتعلق بعزمه القبض على الصاحب بن عباد. (انظر: ذيل تجارب الأمم ٣: ١٩-٢٠؛ ومعجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ٥: ٢٢٨٩-٢٢٩٣).

١٠- ذيل تجارب الأمم ٣: ١٨؛ ومعجم الأدباء، مرجع سابق، ٥: ٢٢٨٩-٢٢٩٣.

١١- العقد الفريد١؛ ٢.يقول الحصري عن كتابة زهر الآداب وثمر الألباب؛"وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله، تدل على تخلّفه أو فضله" ١: ٣٦.

١٢- النشوار ٣:٨.

١٣- نفسه ١: ٩؛ وسرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٩.

١٤- نفسه ١: ١١.

١٥- سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٩-٢٠.

١٦- النشوار ١: ١١.

١٧- نفسه ٢: ٢٥٠.

١٨- النشـــوار، مقدمـــة المحقـــق، ١: ١٨؛ يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر للثعالـــبي ٢: ٣٠٩؛ معجم الأدباء، مصدر سابق، ٥: ٣٣٣.

١٩- النشوار ٣:٨.

٢٠- نفسه ١: ٨.

٢١- نفسه ١: ١٢.

٢٢- نفسه ١: ١٢.

٢٣- نفسه ١: ٢٥٢-٢٥٣.

٢٤- نفسه ١: ٢٥١.

٢٥- نفسه ٨: ١٩.

٢٦- نفسه ٨: ١٩.

٢٧- نفسه ٣ ١٠٤-١١٢. والعود الهندي ضرب جديد من الطيب يتبخر به.

٢٨- نفسه ٨: ٦٧.

٢٩- نفسه ٢: ٢٥-٢٧، ٨: ١١٤-١١٥.

٣٠- نفسه ٢: ٢٦-٢٧.

٣١- نفسه ٣: ٨٥-٨٦.

٣٢- نفسه ٢: ٦٩.

٣٣- نفسه ١: ١٨-١٩.

٣٤- نفسه ١: ١٦، ١٧.

٣٥- نفسه ٨: ٢٤٧.

٣٦- النشوار ٨: ٢٤٥.

٣٧- نفسه ٨: ٢٤٧.

٣٨- نفسه ١: ٢٨٧-٢٩١.

٣٩- نفسه ١: ٢٦٧، وانظر أيضاً ١: ٣٣٤-٣٣٧.

٤٠- نفسه ١: ٢٦٩

٤١- نفسه ١: ٧٥.

٤٢- نفسه ٨: ٧٦-٧٧.

٤٣- نفسه ١: ٢٤٥.

٤٤- نفسه ١: ٣١٩.

٤٥- نفسه ١: ٣٢١.

٤٦- نفسه ١: ٢٨٨. يعد التنوخي بني بويه من الديلم؛ فنجده يقول مثلاً الأمير معز الدولة الديلمي. النشوار ١: ٨٧. في حين يذكر صاحب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية عن بني بويـــــه ما يأتي ؛ "أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد من ملوك الفرس حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بـــن إســـحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذلك إلى آدم أبي البشر، وليســـوا من الديلم وإنما سمّوا بالديلم، لأنهم سكنوا بلاد الديلم، (الفخري، ص ٢٧٧).

٤٧- النشوار ١: ٣٣٠.

٤٨- نفسه ١: ٣١٢-٣١٨.

٤٩- نفسه ١: ٣١٧-٣١٨.

٥٠- النشوار ٨: ٩٢.

٥١- نفسه ١: ٧٦، ٧٧، ٧٨.

٥٢- نفسه ١: ٣٣١-٣٣٣.

٥٣- مروج الذهب ٥: ١٦١-١٦٢.

٥٤- نفسه ٥: ١٣٩-١٤٠.

٥٥- ما نقوله ليس بالحكم النهائي، ربما ذكر عن المعتضد غير هذا في أجزاء النشوار الضائعة.

٥٦- النشوار ١: ١٥٢.

٥٧- نفسه ١: ١٥٣-١٥٥.

٥٨- المنتظم ١٢: ٣٤٣.

٥٩- تاريخ الطبري ١٠: ٣٩؛ ومروج الذهب، ٥: ١٣٧. وورد في كتاب الوزراء ؛ "أن السواد لم يرتفع لأحد بعد عمر رضي الله عنه بمثل ما ارتفع له إلا المعتضد بالله"، ص ٢٠٩. وخلّف في بيوت المال تسعة آلاف ألف دينار، ومن الورق أربعين ألف ألف درهم". مروج الذهب ٩: ٣٣٢.

٦٠- النشوار ١: ٣١٩.

٦١- نفسه ١: ٣٢٠-٣٢١.

٦٢- نفسه ١: ٣١٩.

٦٣- نفسه ٣: ٦٥-٦٦.

٦٤- نفسه ٣: ٢٦٠.

٦٥- النشوار ٨: ٢١.

٦٦- نفسه ٨: ٢٢.

٦٧- نفسه ١: ٣٣١.

٦٨- نفسه ١:٣١، وانظر الخبر كاملاً في المصدر نفسه ١: ٣٣١-٣٣٣.

٦٩- معجم الأدباء، تحقيق : إحسان عباس ١: ١٥٨.

٧٠- النشوار ١: ٣٣٢-٣٣٣.

٧١- نفسه ١: ٣١٦.

٧٢- نفسه ١: ٣١٧-٣١٨.

٧٣- لمزيد من التفصيلات انظر؛ خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ص ٢٦٧-٢٦٩؛ ومقدمة لدراسة المروي عليه، جيرالد برنس، ت ؛ علي عفيفي، فصول، مج١٢/ع٢/١٩٩٣، ص ٧٥-٨٩.

٧٤- النشوار ١: ٣١٤.

٧٥- نفسه ١: ٣١٧.

٧٦- نفسه ١: ٣١٤.

٧٧- نفسه ١: ٣١٤.

٧٨- نفسه ١: ٣١٤.

٧٩- نفسه ١: ٣١٨.

٨٠- نفسه ٨: ٩٢.

٨١- نفسه ٣: ٢٧٦.

٨٢- شـــاذكلـــــي: خلــط الـــورد بالدراهم الخفاف، ونثره على الحاضرين. النشوار ٣: ٢٧٦.

٨٣- النشوار ٣: ٢٧٦-٢٧٧.

٨٤- النشوار ٣: ٢٧٧.

٨٥- نفسه ٣: ٢٧٧.

٨٦- لمـــزيد من التفاصيل انظر: وجهة النظر في الرواية على مستوى المكان والزمان،بوريس أبوسبنسكي، فصول ع١٥/ع٤/١٩٩٧، ص ٢٥٦-٢٥٨ .

٨٧- النشوار ٣: ٢٧٨.

٨٨- نفسه ٣: ٢٧٩.

٨٩- نفسه ٣: ٢٧٩.

٩٠- نفسه ٣: ٢٨٠.

٩١- نفسه ٣: ٢٨٠-٢٨١.

٩٢- نفسه ٣: ٢٨٢.

٩٣- نفسه ٣: ٢٨٣. ورد في الفرج أنه لم يقتله، وأن المعتضد أمر بإطلاقه، ووعد القاسم إلا ينّصب عليه صاحب خبر بعد ذلك، ٢: ٨٥-٩١.

٩٤- تغــيرت الوزارة في هذه الحقبة أربع عشرة مرة، وكان الوزير يعود إلى الـــوزارة مرة ثانية وثالثة من مثل أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات، وأبـــي الحسن علي بن عيسى بن الجراح.(انظـــــر: الفخـــــــري، ص ٢٦٥-٢٧٥).

٩٥- النشوار ١: ٢٤. "إن نظام المصادرة قد تقلب في أطوار، فكان في أوائل القرن الرابع ضرباً من ضروب العقاب، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً في نقاوة يده، فكان يصادر بين حين وآخر". (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١: ٢٢٠).

٩٦- النشوار ١: ٢٩٢، ٢٩٣-٢٩٤، ٢٩٥.

٩٧- نفسه ١: ٢٨٤.

٩٨- نفسه ٨: ٣٨-٤٢.

٩٩- نفسه ٢: ١٢٠-١٢١.

١٠٠- نفسه ٢: ٦٠-٦٦، ٨: ٢٧٠-٢٧١.

١٠١- نفسه ١: ٨٢.

١٠٢- نفسه ٨: ٢٦، ٢٨، ٢٩.

١٠٣- نفسه ٨: ٢٨.

١٠٤- نفسه ٢: ٦٥.

١٠٥- نفسه ١: ١٢٠-١٢١.

١٠٦- نفسه ٣: ١٨٤-١٨٦، ٨: ٩٣-٩٤.

١٠٧- نفسه ١: ٢٣١.

١٠٨- نفسه ١: ٣٨-٤٠.

١٠٩- شغلت مسألة العمل مع السلطان علماء الشيعة الإمامية، أيضاً، فبعضهم ذهب إلى تحريم قبول منصب من أي سلطان من سلاطين الجور؛ وعللوا ذلك غالباً، بأن العمل مع السلطان يعني مؤازرته في ظلمه،

ودعـــم نظـــام حكمه. ولأن العمل للسلطان الجائر سيرغم العامل على تنفـــيذ توجيهات وأوامر تتناقض والشرع والعدل، وسيعني هذا سقوط العامل نفسه في الجور والضلال. ولكن هناك فتوى تستثني هذا التحريم العـــام، وهـــي قبول المنصب تحت طائلة التهديد بالقتل... أو إذا كان غرض المتولي التخفيف عن أبناء مذهبه من الشيعة، ومساعدتهم لدى ولاة الأمـــور. (مسألة العمل مع السلطان، الشريف المرتضى، ولفريد مـــادلوفغ، ترجمة رضوان السيـــد، الفكـــر العربي، ٢٣٤/١٩٨١، ص ٢٠٨-٢١٣).

١١٠- النشوار، ١: ٢٢٢.

١١١- نفسه ١: ٢٢٣-٢٢٤. ورد في المنية والأمل، "وبلغ من زهده في آخر عمـــره، أن ترك ضياعه وماله وكل ما ملك، وتعرى وجلس في الماء فـــي بعض الأنهار، حتى مرّ به بعض أصحابه، وكساه قميصاً. وإنما فعل ذلك لأن أباه كان من أصحاب السلطان"، ص ٦٢.

١١٢- النشوار ٣: ٥٢.

١١٣- نفسه ٣: ٥٣.

١١٤- نفسه ١: ٢٨٢.

١١٥- نفسه ١: ١٨١.

١١٦- لمزيد من التفصيلات انظر: خطـــاب الحكـــاية، مرجـــع سابق، ص ٧٦-٨٦؛ وبنية الشكل الروائي، ص ١٣٢-١٣٧.

١١٧- النشوار ١: ٣٢٥.

١١٨- نفسه ١: ٢٣٢.

١١٩- نفسه ١: ٢٣٣.

١٢٠- نفسه ١: ٢٣٣.

١٢١- النشوار ١: ٦١.

١٢٢- نفسه ١: ٢٣٣.

١٢٣- نفسه ١: ٢٣٤-٢٣٧.

١٢٤- نفسه ٢: ٢٨.

١٢٥- نفسه ١: ٥٦، وعلي بن عيسى كان يأمر بالرفق في الجباية مثلاً، ويجتهد في رفع الظلم عن الناس؛ النشوار ٨: ١٢٠-١٢٨، ١٢٩-١٣٠.

١٢٦- نفسه١: ٥٦. وانظر مثلاً عن كرماء هذا العصر، النشوار١؛ ٦٧-٥٩، ٦٦-٦٧.

١٢٧- شملت التغيرات أيضاً عمارة بغداد "قال لي بعض مشايخ الحضرة ؛ عمارة بغداد، في سنة خمس وأربعين، عشر ما كانت عليه في أيام المقتدر، على تحصيل وضبط، يعني في الأبنية والناس".(النشوار ١: ١٣٠).

١٢٨- لمزيد من التفاصيل انظر: مجتمع القرن الرابع، مؤلفات أبي حيان التوحيدي، وداد القاضي، رسالة مخطوطة، ١٩٦٩، الجامعة الأمريكية.

١٢٩- النشوار ٣: ٢٠٦-٢٠٧.

١٣٠- نفسه ١: ٨٧.

١٣١- نفسه ١: ٨٧.

١٣٢- انظـر مـثـلاً: الكامل ٨: ٤٥٢؛ وتاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسـن،٣: ٤٤.

١٣٣- النشوار ١: ١٤٠.

١٣٤- الحضـارة الإسـلامية، ١: ١٧٧. وانظـر أيضاً ما فعله عضد الدولة بالوزير ابن بقية (النشوار ٨: ٢٠٩، وتجارب الأمم ٢: ٣٨٠).

١٣٥- النشوار ٢: ٨٠-٨١.

١٣٦- نفسه ٣: ٢١٤-٢٢٠.

١٣٧- نفسه ١: ١٤٠؛ وانظر أيضاً : ٣: ٧٥، ٧٩، ٨٣.

١٣٨- نفسه ١: ٩٨.

١٣٩- نفسه ٣: ١٣١.

١٤٠- نفسه ٢: ٦٥.

١٤١- نفسه ١: ٣٠٣-٣٠٤.

١٤٢- نفسه ١: ٣٥١.

١٤٣- النشوار ١: ٣٥٢.

١٤٤- الأبلـة : بلـدة على شاطئ دجلة في العراق، وهي أقدم من البصرة. معجـم البلدان، ١: ٧٦-٧٧؛ وذكر كي لسترنج أن اسم الأبلة يوناني، أصـلها أبلوغس (Apologos) بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٤، ٦٥؛ وانظـر موقعهـا الحالي على خارطة العراق، أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس (خارطة رقم ٦٢، ص ١١٥).

١٤٥- النشوار ٣: ٧٨.

١٤٦- نفسه ٢: ٢٥٤.

١٤٧- نفسه ٢: ٢٥٤.

١٤٨- نفسه ٢: ٢٧٦.

١٤٩- النشوار ١: ١٦.

١٥٠- نفسه ١: ٢١.

١٥١- الامتاع والمؤانسة ٢: ١١٥-١١٦.

١٥٢- النشوار ١: ١٩٢.

١٥٣- نفسه ٢: ١٥٩-١٦٠.

١٥٤- نفسه ١: ١٤٠.

١٥٥- نفسه ١: ١٤٠.

١٥٦- نفسه ١: ٣٤٧-٣٤٨.

١٥٧- نفسه ١: ٣٤٩.

١٥٨- نفسه ١: ٣٥٠.

١٥٩- نفسه ٣: ٢٦٤-٢٦٦.

١٦٠- نفسه ١: ٣٤٠-٣٤١.

١٦١- الحائر: قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء. انظر النشوار ٢: ٢٣٢.

١٦٢- النشوار ٢: ٤٤.

١٦٣- نفسه ٢: ٤٤؛ والفرج ٤: ١٣٥.

١٦٤- النشوار ٢: ٤٥.

١٦٥- النشوار ٣: ١٩٥؛ والفرج ٤: ١٣٠.

١٦٦- النشوار ٣: ١٩٥؛ الفرج ٤: ١٣٠.

١٦٧- النشوار ٣: ١٩٦.

١٦٨- نفسه ٨: ١٥٩.

١٦٩- نفسه ٢: ٢٣٣.

١٧٠- نفسه ٢: ٢٩٥.

١٧١- نفسه ٨: ١٥٨-١٥٩.

١٧٢- نفسه ٣: ٧٦-٧٨.

١٧٣- نفسه ١: ١٨٠، ٢: ٤٤-٤٥؛ ٣: ٣٦، ١٢٣، ١٦١، ١٩٣.

١٧٤- النشوار ١: ١٣٦-١٣٧، ٢: ٤٢-٤٣، ٤٤-٤٥، ١٥٢-١٥٣، ٢١٦-٢١٧، ٢٣٤-٢٣٩، ٢٤٣-٢٤٥؛ ٣: ١٦١-١٦٣، ١٦٤-١٦٥، ١٧٣-١٧٧، ١٧٨-١٨٣، ١٩٥-١٩٧، ٢٣٦-٢٤٣، ٢٧٦-٢٨٣؛ ٨: ١٥٨-١٥٩، ٢٤٠-٢٤٤، ٢٦٨-٢٦٩، وازن مع الفرج بعد الشدة ١: ٢٩٨-٣٩٩؛ ٤: ١٣٣-١٣٤، ١٣٥-١٣٨؛ ٢: ٢٢٣-٢٣٢، ٢٧٦-٢٧٨؛ ٤: ٢١٠-٢١٢؛ ٣: ٢٧٨-٢٨٥؛ ٢: ٨٥-٩١؛ ١: ٢٣٠-٢٣١؛ ٣: ٢٨-٣١، ٣٢-٣٣.

١٧٥- النشوار ٣: ١٧٣.

١٧٦- نفسه ٣: ٢١.

١٧٧- نفسه ١: ٢٢٥.

١٨١- النشوار ٣: ٣١٠.

١٨٢- نفسه ٣: ١٧٥.

١٨٣- نفسه، ٣: ١٧٧.

١٨٤- نفسه، ٣: ١٨٠.

١٨٥- السلطة الثقافية، والسلطة السياسية، علي أومليل، ص ١٠٥.

١٨٦- رسالة الصحابة، ص ١٩٩.

١٨٧- انظــر ما كتبه علي أومليل عن موقف الكتاب القدماء، من التغيير في كتابه "السلطة الثقافية والسلطة السياسية".

١٨٨- السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ص ١٢٨. قيل إن الرشيد سأل معن بن زائدة الشيباني مرة : "كيف زمانك يا معن؟ قال : يا أمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان"، العقد الفريد ١: ٢٢٢.

١٨٩- رسالة الفيتا ، ضمن رسائل الجاحظ، ١: ٢١٣-٢١٤.

١٩٠- البصائر والذخائر ٢: ٤٥٣.

١٩١- الأمتاع والمؤانسة ١: ١٣-١٤.

الفصل الثالث

المحسّن التنوخي

بين

الذاكرة الثقافية والتجربة

الفرج بعد الشدة نموذجاً

صـــنف المحسِّـــن التنوخي كتابي "الفرج بعد الشدة" و "المستجاد من فعلات الأجواد" استجابة لرغبة ذاتية في التصنيف؛ بعد انقطاعه عن الحياة العامة، وركونه إلى الاستقرار بعد حياة مليئة بالحركة والتنقل[١]. فجاء الأول بعد أن جُرد من جميع أعمالـــه، وألـــزم بالبقاء حبيساً في داره سنة (٣٧١هـ). ومع أن كتب التراجم لا تسـعفنا فـــي تحديد السنة التي بدأ فيها بتأليفه، فإنه يمكن القول إنه بدأ بالتأليـــف بـــين العامـــين ٣٧١هـ و ٣٧٣هـ[٢].

وفـــي هـــذه المدة تسنّى لـــه الاطلاع على ما صنّفه السابقون في موضوع الشدة والفرج، من أمثال المدائني (ت٢٢٥هـ) وابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، وأبي الحســين عمـــر ابـــن القاضي أبي عمر (ت٣٢٨هـ)، مما حفزه على أفراد كتاب مســـتقل يـــتعلق بهذا الموضوع، لاسيما أن تجربته مع عضد الدولة البويهي شكلت دافعاً قوياً للتأليف. إلا أن ما يميز كتابه عن المؤلفات السابقة حرصه على الإضافة وتجاوز جوانب التقصير التي شابت المؤلفات السابقة، بعد ذكره لعيوبها.

فكتاب "الفرج بعد الشدة والضيقة" للمدائني، ينقصه منهج التنظيم والتصنيف مع اقتدار مؤلفه على ذلك، فلم يسلك فيه سبل الكتب المصنفة ولا الأبواب الواسعة المؤلفـــة[٣]. ويرى المحسّن التنوخي أن ابن أبي الدنيا أخل بعنوان كتابه "الفرج بعد الشـــدة"؛ لأنـــه أدخل فيه مالا يستحق أن يدخل في كتاب مقصور على هذا الفن[٤]. ويلحـــظ المحسّن أن ابن أبي الدنيا وأبا الحسين القاضي أغفلا ذكر كتاب المدائني، فإنـــه كان الإغفال ناجماً عن عدم معرفة فهو طريف، وإن تعمدا ترك ذكره تنفيقاً لكتابيهما وتغطية على كتاب الرجل، فهو أطرف[٥].

تمثلـــت إضـــافة المحسّن، عدا عن سعة المادة المقدمة، في وضوح مغزى الكتاب وبيانه، وفي المنهج الذي انتقاه في الجمع والتأليف الذي يجنب القارئ الملل

والسـآمة[٦]. لأنـه نوع الأخبار وجعلها أبواباً، بينما أورد الثلاثة الذين سبقوه في التألـيف ما أودعوه كتبهم جملة واحدة كما ذكر في المقدمة. والتنوخي يعترف أنه وضع جل ما في الكتب الثلاثة في مواضعه من كتابه هذا، ويذكر أنه عزا ما أخذه من هذه الكتب لمؤلفيها تحرياً للأمانة.

أمـا كـتاب "المستجاد من فعلات الأجواد" فمن المرجح أنه بدأ بتصنيفه بعد الانـتهاء مـن تصنيف "الفرج"، ويبدو أنه جاء بعد أن اشتدت ضائقته المالية فألفه ليثـير به أريحية الرؤساء عسى أن يجودوا عليه بما يخفف عنه[٧]. والكتاب يروي تجارب غيرية، تتحدث عن الكرم ويعرض فيه صور الكرماء كما عرض الجاحظ صـور البخلاء[٨]. وهو "مساهمة عظيمة من مساهمات المؤلفين العرب في التأليف في موضوع الطباع الإنسانية"[٩].

والملاحظ أن كثيراً من أخباره وردت في كتاب الفرج، وتروى للدلالة على حدوث الفرج، لاسيما أن كثيراً من المحن يكون سببها الضائقة المالية ويكون المال أو الكرم حلاً لها، لهذا لا تفرد الدراسة له مبحثاً خاصاً، بل تشير إلى أخباره حيث يحتاج إليها.

الفرج بعد الشـدة :

يمثل هذا الكتاب ذاكرة التنوخي السردية والشفوية، وخلاصة ما مرّ به من تجـارب، بما يتضمنه من أخبار تتعلق بالمحن التي تنـزل بالمرء وما يعقبها من فرج بهدف "انشراح صدور ذوي الألباب، عندما يدهمهم من شدة ومصاب، إذ كنت قـد قاسيت من ذلك، في محن دفعت إليها، ما يحنو بي على الممتحنين، ويحدوني على بذل الجهد في تفريج غموم المكروبين"[١٠].

وعلى الرغم من إشارة المحسِّن هذه إلى تجاربه المؤلمة ومعاناته، فإن الكتاب لا يروي تجربة ذاتية، بل يروي تجارب غيرية تتلاقى في إطارها الواسع مع تجربته؛ فيستحضر بعضاً منها ويبوح بها في سياق ما يرويه من تجارب غيرية. ففي سياق حديثه عن أبدية الامتحان الإلهي يروي محنة يونس عليه السلام وخلاصه منها، لأنه أدام التسبيح في بطن الحوت. قال تعالى : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له، ونجيّناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (١١). وقد روى أن من أدام قراءة قوله عز وجل:﴿وذا النون إذا ذهب﴾... إلى قوله : ﴿المؤمنين﴾، في الصلاة، وغيرها، في أوقات شدائده، عجّل الله له منها فرجاً ومخرجاً"(١٢). وهذه الرواية دفعته إلى البوح بمحنته، فلم يفصل في كيفية حدوثها، واكتفى بالقول "وأنا أحد من واصلها في نكبة عظيمة لحقتني، يطول شرحها وذكرها عن هذا الموضع، وكنت قد حبست، وهددت بالقتل، ففرّج الله عني، وأطلقت في اليوم التاسع من يوم قُبض عليّ فيه"(١٣).

وكذا الأمر حين أشار إلى محنة ثانية في سياق حديثه عن فضل سورتي "الانشراح" و "الفيل"، فقال " دفعت أنا إلى شدة لحقتني شديدة، من عدو، فاستترت منه، فجعلت دأبي هذه السورة -يقصد الفيل- في الركعة الثانية من صلاة الفجر، في كل يوم، وأنا أقرأ في الأولة منها : ألم نشرح ... فلما كان بعد شهور، كفاني الله أمر ذلك العدو، وأهلكه الله من غير سعي لي في ذلك..." (١٤).

وأشار في موضع آخر إلى محنته مع الوزير أبي العباس، في سياق حديثه عن الرقاع التي كانت تكتب وتعلق إما في محراب المسجد من مثل أبي أيوب أحمد بن شجاع(١٥) وإما على قبر موسى الكاظم من مثل أبي نصر محمد بن محمد

الواسطي[١٦]يتظلمان بهما من الوزراء ويتوسلان للحصول على حقوقهما، فزال ما بهما من مكروه؛ وحصل الأول على ضيعته التي صادرها أبو العباس الوزير، في حين خرجت الضيعة من يد المحسن التنوخي، مع أن محنته ومحنة أبي نصر الواسطي واحدة.

وإذا كان المحسّن التنوخي يلمح إلى ما تعرض له من محن، فإنه يغيّب محنته على يد عضد الدولة، مع أنها شكلت دافعاً قوياً وسبباً مباشراً لتأليف الكتاب، فأخبار الكتاب المنتقاة[١٧] تكشف هذه المحنة وتدل عليها.

إن أخبار من صفح السلطان عنهم وأعادهم إلى مجلسه، بعد جفوة أو عداوة، تحظى باهتمامه وتستأثر بعدد وافر من الأخبار. فالأمير سيف الدولة يصفح عن أحد أتباعه، ويعيد إليه أملاكه[١٩]، والمأمون يصفح عن الفضل بن الربيع[٢٠]. ولعل أهم مثال على ما ذكرنا ما أورده من سلسلة أخبار تتحدث عن عفو المأمون عن إبراهيم بن المهدي[٢١]، على الرغم من خطورة ما أقدم عليه من خروج على المأمون والخطبة لنفسه بالخلافة، إلا أنه حظي بعفو المأمون؛ فعاد إلى داره ونعمته، في حين لم يشكل ما اقترفه المحسّن التنوخي بحق عضد الدولة من خطورة ما شكله خروج إبراهيم بن المهدي، لكنه لم يحظَ بعفو يماثل عفو المأمون.

كيفية تعبير التنوخي عن موضوع الشدة – الفرج :

يقول المحسّن : "ووجدت أقوى ما يفزع إليه من أناخ الدهر بمكروه عليه، قراءة الأخبار التي تنبئ عن تفضّل الله عز وجل، على من حصل قبله في محصله، ونزل به مثل بلائه ومعضله، بما أتاحه له من صنع أمسك به الأرماق، ومعونة حلّ بها من الخناق، ولطف غريب نجّاه، وفرج عجيب أنقذه وتلافاه، وإن خفيت تلك الأسباب، ... فإن في معرفة الممتحن بذلك، شحذ بصيرته في الصبر، وتقوية

عزيمـــته علـــى التسليم إلى مالك كل أمر"[٢١]. وبما أن الدهر أناخ بمكروهه على المحسِّـــن التنوخـــي وأنـــزل بـــلاءه به، فإنه اتجه إلى قراءة ما كتبه الآخرون في موضـــوع الشدة – الفرج، فاقتنع بأبدية الامتحان الإلهي، فالممتحن قريب من الله، والمحـــن بلاء منه تعالى، فهي "تأديب من الله، والأدب لا يدوم، فطوبى لمن تصبّر علـــى التأديـــب، وتثبت عند المحنة"[٢٢]، وهي ليست غضباً من الله على الممتحن، "فكان آدم عليه السلام، أول من دعا فأجيب، وامتحن فأثيب، وخرج من ضيق وكرب، إلى سعة ورحب"[٢٣]. ثم امتحن بعده غير واحد من الرسل والأنبياء[٢٤]، إلا أن صبرهم علـــى الشـــدائد، وتوكلهم على الله، والتمسك بطاعته، والإخلاص في خشيته أبدلت شدتهم فرجاً.

إن قناعـــته الســـابقة انعكســـت على المنطق الداخلي الذي اتبعه في تبويب الكتاب، الذي ينم عن نزعة دينية أخلاقية لديه[٢٥]، فالأبواب الثلاثة الأولى تتضمن أخـــباراً قصـــيرة ذات طابع وعظي، تروي أخبار الذين امتحنوا وصبروا وفازوا بالفـــرج، وتشير إلى الفرج في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأدعية. والباب الرابع يتعلق بالمحن الناتجة عن غضب السلطان. وفي الباب الخامس يورد الشـــدائد والمحن الناتجة عن الأسر أو الحبس، وهي قريبة الصلة من المحن التي تعرض لها، وكذا الأمر في بقية الأبواب. إلا أني أعدّ هذا التدرج، إضافة لما ذكر، تدرجـــاً فنـــياً ينتقل فيه من الأخبار القصيرة إلى الأخبار التي تنطوي على مظاهر القص ومكوناته.

بنية الأخـــــبار :

ومع أن الأبواب قسمت وفق تنوع الشدائد[٢٦]، فإن الأخبار تنهض في مجملها "علـــى ثنائية الطلب والتحقق. فهي تبدأ بتصوير الشدة التي يعاني منها شخص ما،

وتنتهي بحصوله على مرغوبة، فهو يتعرض لامتحان ويؤول أمره إلى النجاح في تجاوز العقبة"[٢٧]. وكان تودوروف أول من أشار إلى أنه "يوجد في القصة نوعان من الحلقات : حلقات تصف (حالة توازن أو اضطراب) وحلقات تصف الانتقال من حالة إلى أخرى... ويمكن للمتتالية أن تقطع في وسطها (انتقال من التوازن إلى الاضطراب، فقط أو العكس أو أن تقطع إلى أقسام أصغر"[٢٨]. إن القصة المثالية كما يراها تودوروف- تبدأ بوضعية هادئة تجعلها قوة ما مضطربة، وينتج عن ذلك حالة اضطراب. ويعود التوازن بفضل قوة موجهة وجهة معاكسة. والتوازن الثاني شبيه بالتوازن الأول، ولكنهما ليسا متماثلين أبداً[٢٩]. ويكون الانتقال من التوازن إلى الاضطراب مسبوقاً بنقص (من مثل فقدان المال أو فقدان عزيز) أو انتهاك ضمني لتحريم أو منع[٣٠] (تحريم قتل النفس أو تهديد حياة الآخرين وأمنهم بالاعتقال أو الأسر أو التعذيب). وتعد هذه البنية من أظهر علامات القص وأكثرها شيوعاً، لاسيما أنها الإطار الذي توضع في صلبه الأحداث فتقصر أو تطول لكنها لا تخرج عن هذا النسق. فهذا البناء يشمل أشكالاً قصصية مختلفة قديمة وحديثة[٣١]، بما يتضمنه كل شكل من مكونات قصصية تختلف من خبر لآخر من حيث الحضور والغياب، ومن حيث الانتقال من حالة إلى أخرى أو السرعة في تتابع الأحداث للوصول بها إلى أقصى درجات الانفعال لتشويق القارئ.

لقد توقف البشير الوسلاتي عند هذه المسألة في حديثه عن تجليات الأحداث في أخبار الفرج بعد الشدة[٣٢]، إلا أنه أغفل الحديث عن التمهيد الذي يسبق الحلقات التي تصف حالة التوازن أو الاضطراب. لذا سأتوقف عند بنية خبرين فقط، وانتقل بعدها للحديث عن التمهيد.

الأول[٣٣] يروى عن رجل ورث مالاً كثيراً، أنفقه على جارية كان يعشقها؛ كان في وضعية هادئة ومتوازنة، فانتقل إلى حالة عدم التوازن بسبب سوء التصرف في المال وفقدانه، وللتخلص من هذه الحالة اقترحت عليه الجارية أن يبيعها، فيعيش من ثمنها وتحصل هي على ما تريده من مال. وهكذا كان، إلا أن حالة التوازن الجديدة، كانت حلاً مؤقتاً وغير سليم. فبعد أن قبض ثمن الجارية، شعر بالندم، فلم يستطع الرجوع إلى البيت، فلما أخذ المال دخل المسجد يفكر ما عساه أن يفعل. ولما أعياه التعب نام فيه، إلا أنه تعرض للسرقة، فعاد مرة أخرى إلى حالة عدم التوازن لكنها أشد من حالته الأولى لأنه فقد المال وفقد الجارية؛ فقرر إنهاء حياته بإغراق نفسه في نهر دجلة، إلا أنه أنقذ وأعيد إلى منزله؛ واستقر رأيه على الخروج من بغداد إلى واسط، ليعمل محرراً بين يدي عاملها؛ لأنه من أولاد الكتاب، وخطه جيد، وأدبه صالح. وصادف في خروجه أن ركب في زلّال[٣٤] الرجل الهاشمي الذي اشترى جاريته وهو لا يعلم. وتعرف إلى الجارية حين سمع غناءها، فاحتال في الدخول إليها، واستغرقت الرحلة أياماً، وحدث أن توقف الزلال، ليأخذوا شيئاً من الراحة، فحمله السكر على النوم، سار الزلال وهو لا يعلم، وظل على الشاطئ وحيداً. وحين أصبح لم ير لهم عيناً ولا أثراً. فانتقل مرة أخرى إلى حالة عدم التوازن، فعمل عند بقال واستمر على ذلك لسنوات. وتزوج بابنة البقال فيما بعد. إلى أن رأى احتفال الناس بيوم الشعانين فخرج للتفرج. فشاهد أصحاب الزلال في نهر الأبلة، وإذا هم أصحابه فتعرف إليهم وسألوه عن حاله. فاعتق الرجل الهاشمي الجارية وزوجه بها واشترى له ضيعة، فتحول إلى حالة الاستقرار والتوازن بعد أن صار صاحب ضيعة ونعمة. والخبر يسير كما يأتي :

حالة توازن (هدوء) -->	اضطراب -->	توازن ناقص-->	اضطراب جديد ◄
امتلاك المال	فقدان المال	حصول على المال	فقدان المال
وجارية يحبها	فقدان الجارية	فقدان الجارية	فقدان الجارية

توازن ناقص (غير ثابت)-->	اضطراب جديد -->	توازن مؤقت--->	حالة التوازن الجديدة
لايعمل ولايملك مالاً	حصوله على عمل	عمله عند البقال	حصول على مال عظيم
رؤيته للجارية مع الرجل الهاشمي	فقدان الجارية مرة أخرى	وفقدان الجارية والزواج من أخرى	اجتمع شمله بالجارية وزواجه منها بعد أن اعتقها الرجل الهاشمي.

والخبر الآخر[٣٥] يروي توالي المحن على تاجر ثري، إذ فقد مالاً عظيماً؛ وهو يؤدي فريضة الحج، فوجده رجلاً فحفظه عنده. ثم توالت عليه محن مختلفة دون أن يذكر سببها. فانتقل من حالة مستقرة متوازنة إلى حالة مضطربة، فلم يجد حلاً سوى الهرب، وهو حل مؤقت، إلى بعض القرى، فنزل في خان خَرِب، فأصاب زوجته الطلق وكانت ليلة مطيرة، فخرج ليحضر لها ما تأكله فاشترى لها بدانق ونصف حلبة وزيتاً، وأعطاه البقال غضارة من عنده، فانزلقت رجلاه فانكسرت الغضارة، وذهب ما فيها. فورد عليه أمر عظيم، وصار يبكي ويلطم، فإذا برجل يسأله عن سبب بكائه، فشرح له القصة، فاستغرب أن البكاء بسبب دانق ونصف. وكان هذا الاستغراب وسؤال الرجل السابق حافزاً لكي يروي له الرجل الباكي ما حدث له منذ زمن حين فقد ماله في الحج. وحين سمع الرجل قصته، أدرك أنه صاحب المال الذي وجده. فسأله عن صفة هميانه، وكان الراوي قد وصفه منذ البداية، فوصفه. فطلب الرجل من التاجر أن يقيم عنده ويشاركه في تجارته، فقبل،

فأخبره بعدها أن ماله الضائع محفوظ لديه. فينتقل إلى حالة توازن جديدة. ولعل ما يلحظــه المرء في هذا الخبر السرعة في وصف حالة عدم التوازن ؛ فاضطر إلى الهرب، فنــزل في خان، فأصاب زوجته الطلق، فخرج، فاشترى، فانزلقت رجلاه، فانكسرت، فورد عليه ...الخ. والخبر يسير كما يأتي ؛

توازن —> بداية الانتقال إلى عدم التوازن—> حالة اضطراب .... <ـــــ تـــــــــــوازن جديد

توازن	بداية الانتقال إلى عدم التوازن	حالة اضطراب	توازن جديد
تجارة	تجارة	توالي المحن :	الحصول على المال الضائع
ومال	وفقدان جزء من المال	فقدان المال كله، الهرب، الطلق	وتجارة جديدة
		الذي أصاب الزوجة، انكسار الغضارة	وولادة طفل

التمهيـــــد :

إذا كانــت الأخــبار السابقة تروي تجارب الآخرين وتلتزم بنسق الشدة – الفــرج مــنذ بدايــة الخــبر، بعد ذكر الإسناد، فثمة أخبار لا تروي هذه التجارب مباشــرة، بــل يمهــد لها داخل الخبر بوصف عادات الشخصية أو وصف الغنى المفاجــئ لثانية أو وصف سلوك غريب لثالثة، أثار فضول الحاضرين أو اتصاف شخصية –أخيراً– بسمة تدفعه للحديث عن تجربته في الشدة والفرج. وترى سيلفيا بافل أن الكثير من حكايات ألف ليلة وليلة تبدأ قبل ظهور عنصر عدم التوازن وهو ما يسمـــى بالتمـــهيد Re-Recit. وهذا الأخير "يمكن فصله عن النص الرئيس بوصــفه ســرداً مســتقلاً"[٣٦]. إن الالتفات إلى التمهيد أسهم في فهم ظاهرة التوالد الســردي (التضــمين) فــي الليالي، إضافة لما ذكره تودوروف[٣٧]، ويتخذ التمهيد المشــار إلــيه أشكالاً مختلفة في الليالي[٣٨]، لا مجال لذكرها. أما في "الفرج" فإن عبيدالله بن السريّ (ت٢٥١هـــ) مثلاً كان من عاداته على الطعام أن يعزل بيده من كــل شــيء يقدم إليه ويتصدق به. "فقدمت إليه ذات يوم عناق سمينة[٣٩]، في أول

الطعـــام، فضرب بإصبعه في جنبها، فشخبت حتى ملأت الخوان دسماً فأمسك يده، وقال ؛ الحمدلله، ذكرت بهذا شيئاً أحدثكم به"(٤٠). فالوصف السابق للطعام الذي قدم إليه وما سبقه كان تمهيداً للخبر الذي سيرويه عليهم المتعلق بأيام الشدة التي دفعته إلى بيع مقنعة أمه للحصول على الطعام تارة وإلى أكل القطط طوراً. إلا أنه تجاوز الشدة وتولى ولاية مصر فيما بعد.

والتمهيد الذي يصف التحول المفاجئ للشخصية وانتقالها من الفقر إلى الغنى كمـــا فـــي التمهيد الآتي "كنت أحج دائماً، وأنزل على رجل علوي، حسيني فقير، مســتور، فألطفـــه، وأتفقّـــده. فتأخرت عن الحج سنة، ثم عاودت، فوجدته مثرياً، فســـررت، وســـألته عن سبب ذلك"(٤١). إن غنى العلوي المفاجئ دفع الراوي إلى ســؤاله عن سبب ذلك؛ فسرد لـــه العلوي كيفية انتقاله من الفقر إلى الغنى. وكان العلـــوي قد تعرض للسرقة وهو يؤدي فريضة الحج فنـــزلت به شدة عظيمة؛ لأنه انتقل إلى حالة الاضطراب بسبب فقدان ما لديه من دريهمات وأصبح معدماً. وبقي ثلاثـــة أيـــام ما طعم شيئاً، وفي اليوم الرابع تذكر قول الرسول ﷺ "ماء زمزم لما شرب منه" فخرج إلى الشرب، وفي طريق عودته وجد هميانا(٤٢) فيه ما يزيد على ألفـــي ديـــنار. هـــنا يتوسع في وصف مشاعره حين وجد المال، فهو لا يستطيع التصـــرف فـــيه على الرغم من شدة حاجته إليه، ولا يستطيع تركه خوفاً عليه من الضـــياع "فلمـــا حصـــل في يدي، ندمت، وعلمت أن اللقطة حرام -ما لم تعرّف- حـــرام. وقلت ؛ إن تركته الآن، كنت أنا المضيع له، وقد لزمني أن أعرفه، ولعل صـــاحبه، إذا رجـــع إليه، أن يهب لي شيئاً اقتاته حلالاً"(٤٣). بعدها يصف حرصه الشـــديد علـــى البحـــث عن صاحب المال إلى أن وجده(٤٤)، فأعطاه الهميان إلا أن صـــاحب المـــال رفـــض أن يهب للعلوي من المال شيئاً. فغاب قليلاً ثم عاد يسأل العلوي عن نسبه وموطنه، وحين علم أنه من ولد الحسين بن علي وهب لـــه المال

كلـــه، لأن الهميان ليس لـــه، واشترط صاحبه أن يُعطى لرجل علوي حسيني فقير مســـتور. فأخذ ينفق المال باقتصاد إلى أن اتفق لـــه ضيعه، فابتاعها بالمال فأغلّت وأثمرت، "وأنا -كما يقول- من الله عز وجل في نعمة جزيلة، وخير كثير والحمدلله على ذلك"(٤٥).

أمـــا التمهـــيد الـــذي يتعلق بوصف سلوك إحدى الشخصيات فنجده في أحد الأخـــبار الـــذي يشير فيه إلى امتناع رسول الوزير المهلبي ومستحثه على مطالبة العمـــال بحمـــل الأموال، من مؤاكلة عامل شيراز عندما جاء إليه، وحين ألحّ عليه العـــامل أكـــل بأطـــراف أصابعه، ولم يخرج يده من كمه(٤٦). فظن به الحاضرون الظنون. وقالوا ؛ لعل به برصاً أو جذاماً. وظل هكذا في أيام إقامته عند العامل إلى حين دعاه أحد الحضور، وسأله إخراج يده والانبساط في الأكل، وحين كشفها "فإذا فيها وفي ذراعه أكثر من خمسين ضربة، بعضها مندمل، وبعضها فيه بقية، وعليها أدوية، وهي على أقبح منظـــر"(٤٧). إن قبح منظر يد رسول الوزير كانت سبباً في الامتناع عن الأكل أو الانبساط فيه، مما دفع الحاضرين إلى السؤال عن سبب تلك الضـــربات؛ فقـــال : "هـــو أمر طريف أخاف أن لا أصدّق فيه. فقلت له ؛ لابد أن تتفضل بذلك"(٤٨). فروى لهم قصتها، وهذه القصة هي التي تدخل في نسق الشدة - الفـــرج، وما يسبقها كان تمهيداً لها. وتتلخص في تعرض قافلته إلى هجوم قوم من الأعـــراب في صحراء السماوة بعد أن تواطأ معهم قوم كانوا معه. فقتل جميع من معـــه، أما هو فناله من الضربات ما وصفه، فوقع مغشّياً عليه. وإمعانا في وصف شـــدته، أشار (الراوي-البطل) أنه حين أفاق من غشيته وجد في نفسه قوة، إلا أن العطـــش اشتد به، فقام يطلب في القافلة قربة ماء، فلم يجد شيئاً، إلا أنه عثر بشيء فـــي الظلمة: "فإذا أنا منبطح عليه بطولي وطوله. فثار من تحتي، وعانقته، وقدرته رجلاً من الأعراب، فإذا هو أسد"(٤٩). فظل متمسكاً به وهو يحث الخطى حتى نزل

إلـــى الفـــرات، فسبح قليلاً، فتخلص منه إلى أن جاء قوم وحملوه إلى بلده. والخبر يفـــيض بوصـــف مشاعر خوف الرجل وفزعه اللذين سيطرا عليه وهو على ظهر الأسد، ويتابع "فحين علمت ذلك طار عقلي، وقلت : إن استرخيت افترسني، فعانقت رقبته بيدي، ونمت على ظهره، وألصقت بطني بظهره، وكانت دمائي تجري، فحين داخلني ذلك الفزع العظيم رقأ الدم، وعلق شعر الأسد بأفواه أكثر الجراحات، فصار سداداً لها، وعوناً على انقطاع الدم... وأنا أحسّ بروحي تخرج، وأعضائي تتقصف مـــن شدة جريه، ولم أشك أنه يقصد أجمة بالقرب فيلقيني إلى لبوته فتفترسني"(٥٠). وعلى الرغم من مشاعر الخوف التي انتابته، إلا أن الأسد كان سبباً في نجاته، لأن المسافة بين الموضع الذي قطع عليه فيه الطريق، والموضع الذي وضعه فيه الأسد مسافة أربعين فرسخاً(٥١).

وأخيراً يمهد لنسق الشدة–الفرج، بوصف سمة وصفت بها الشخصية المروي عنها فيكون هذا الوصف دافعاً لسرد قصته في الشدة–الفرج، من مثل : "وحكى أنه قيل للفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، قد أفسدت جودك بكبرك، فقال ؛ والله ما لي حيلة في النـــزوع عنه، وما كان سبب حصوله فيّ إلا أنني حملت نفسي عليه، لما رأيـــت من عمارة بن حمزة(٥١)، فتشبهت به، فصار طبعاً، ولا أقدر على الإقـــلاع عـــنه"(٥٢). فسمة الكبرياء في شخصيته التي سئل عنها دفعته إلى الاعتراف بسبب تشبهه بعـــمارة بـــن حـــمزة (ت١٩٩هـ). والسبب في هذا أن والد الفضل أصيب بضائقة مالية بعد أن ساء رأي المهدي فيه، فلجأ الفضل إلى عمارة بن حمزة وحين قابلـــه لـــم يعره اهتماماً، إلا أنه وهب لـــه مالاً أخرجه من ضائقته. يقول واصفاً عمارة بن حمزة "فدخلت، وهو مضطجع وقد غاص في فرش لـــه، ما يكاد يبين إلا وجهه، فوالله ما تحرك، وسلّمت، فأومأ إليّ بالجلوس، فجلست بعيداً منه، فلم يعرني الطرف، فانكسرت نفسي ... فقصصت عليه القصة، فوالله ما أجابني بحرف، أكثر

من قوله؛ إمضِ، فإن الله يكفيك"[٥٣]، إلا أنه وهب له ما يكفيه من المال للخروج من ضائقته.

تصنيف الأخبار :

قسـم سعيد يقطين الأخبار وفقاً لعلاقتها بالتجربة الإنسانية. "التي تتمثل في العلاقـة التـي يـتخذها الإنسـان مع مختلف العوالم الكائنة والممكنة، المحسوسة والمعقولـة، وهو يتفاعل معها بمختلف حواسه الظاهرة والباطنة، وبمختلف وسائط الإدراك التـي يمتلكها. وقد جاءت على النحو الآتي؛ الخبر = التجربة، والخبر > الـتجربة، والخبر < التجربة، وهذه الأنماط تنطلق من الأليف إلى العجيب مروراً بالغريب[٥٥]، وعمد إلى تعريف كل نمط [٥٦] منها.

وبمـا أن الأنمـاط السابقة تتحقق في أي كلام[٥٧] بغض النظر عن اللسان والـتاريخ. فقـد التزمـت بالمصـطلحات التي ذكرها لكل قسم، لاسيما أن هذه المصـطلحات قـد وردت في كتب التراث العربي. إلا أني لم ألتزم بالضرورة بما ذكره من تعريف لكل واحد منها. وقد صنفت أخبار الفرج إلى ما يأتي؛

أ- الأليف، ويضم معظم أخبار الكتاب.

ب- العجيب، ويضم الأخبار الخاصة بالحيوان.

ج- الغريب، ويضم المنامات.

أ-الأليـف :

حين يكون الخبر موازياً للتجربة، فيتساوى كل الناس في إدراكه وتمثله"[٥٨]. تولـي هذه الأخبار اهتماماً واسعاً بالحدث وتطوره، لأنها تروي تجارب في الشدة وطـرق الخلاص منها. وعلى الرغم من هذا، فالناظر فيها يلحظ حضوراً لوصف

المكـان ووصـف اللـون، لاسـيما أن المكان عنصر من عناصر تشكيل النسيج القصصـي للخـبر، ولا يعـيش منعزلاً عن باقي العناصر، لأنه يتصل بلحظات الوصف، وهي لحظات متقطعة تتناوب في الظهور مع السرد أو مقاطع الحوار[٥٩].

وصف المكان :

يقصـد بالمكان الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال أو يفترض أنهم يتحركون فـيه[٦٠]. فـأي حدث لا يمكن تصوره إلا ضمن إطار مكاني معين. وهذا التأطير يخـتلف مـن خـبر إلى آخر. فأحياناً يكتفي بالإشارة إلى المدينة التي تجري فيها الأحـداث ولا يكون لهذه الإشارة أهمية تذكر من مثل ؛ الرملة أو دمشق أو بغداد. فـي حيـن نجـد هـذا الوصف يعمل أحياناً على دفع الأحداث لارتباطه بمصائر الشخصـيات، وتهيئة القارئ لتقبل نهاياتها فيما بعد، كما في وصف دار أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، يقول : "وكان لداري أربع عشر باباً، إلى أربعة عشر سـكة، وشـارعاً وزقاقاً نافذاً، ومنها عدة أبواب لا يعرف جيرانها أنها تفضي إلى داري، وأكثرها عليه الأبواب الحديد"[٦١].

إن تصميم داره على النحو الموصوف يؤكد خوف الشخصية وتوقعها للشر في أية لحظة، الأمر الذي ذكره صراحة قبل وصف داره[٦٢] على الرغم من مكانة الشخصـية في الدولة، لا سيما أنها كانت تعيش في الحقبة التي سبقت دخول معز الـدول إلى بغداد. وطوراً يصف الخبر تنقلات الشخصية من مكان إلى آخر، من مثل انتقال منارة رسول الرشيد من بغداد إلى دمشق لإحضار شامي عظيم الجاه من بقايـا بنـي أمية[٦٣]. وأخيراً نجد وصفاً للمكان في المنام يستند فيه إلى مرجعيات دينية وثقافية محددة، كالإشارة إلى الطريق الأخضر، المزهر بأنوار، وبعدها يشير إلى تحقق الرؤيا في فصل الربيع، والدنيا على الحقيقة خضراء بنوار الربيع[٦٤].

والناظر في هذه الأخبار يلحظ أن حركة الوصف تتخذ من السجن والمجلس (بـلاط الخلافـة، مجـالس الـوزراء والقـادة) موضوعاً لها. وإذا أخذنا بمفهوم الاسـتقـطاب[٦٥] للبحـث عـن تشكلات المكان، فيمكن القول إن هذين المكانين يشـكلان ثنائية ضدية دالة على الضيق والاتساع لما يمثله السجن من تقييد للحرية وعـزلة وإهانـة ولمـا يمـثله المجلس من غنى وسلطة، وعيش هانئ وكأنهـما يجسـدان (شدة – فرج).

السجن :

علـى الرغم من حضور السجن في هذه الأخبار، إلا أن المتأمل في وصفه يجـد أن الخبر لا يقدم وصفاً جاهزاً له. فلا يقف عند تقديم الوصف المادي ورسم الحدود الجغرافية للمكان، إنما يختلف باختلاف الشخصية المروي عنها، واختلاف تجربـتها واختلاف وجهة النظر. فالوصف المقدم لواحد من سجون المعتصم مثلاً يمتزج فيه السماع بالمشاهدة، فالراوي سمع أن المعتصم أمر ببناء سجن في بستان موسى، وكان القيم عليه مسرور مولى الرشيد، ثم يتدرج في وصفه من الخارج إلى الداخـل، لاسيما أنه شاهده مراراً، يقول "حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس في بسـتان موسى، كان القيّم به مسرو مولى الرشيد. وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها، إذ كان كالبئر العظيمة، قد حفرت إلى الماء، أو قريب منه، ثم بنى فيها بناء على هيأة المنارة، مجوّف من باطنه، وهو من داخله مدّرج، قد حفر فيه، فـي مواضع من التدريج، مستراحات، وبنى في كل مستراح شبيهاً بالبيت، يجلس فـيه رجـل واحد، كأنه على مقداره، يكون مكبوباً على وجهه، لا يمكنه أن يجلس فـيه، ولا يمـد رجلـيه"[٦٦]. إن الوصف السابق يجعل المتلقي يتخيل المعاناة التي يـتعرض لهـا السـجين، إلا أن الراوي لا يترك له هذه الفرصة، بل ينهض بهذه الوظـيفة، ويشـير فـيما بعد إلى تفصيلات تتعلق بتأثير السجن في محمد العلوي

الصــوفي، الذي خرج على المعتصم بالطالقان، وسجن في بيت في أسفل السجن كمـا يتعلق بمدى المعاناة التي تعرض لها، لاسيما أن السجن صمّم على هذا النحو لإيقـاع الأذى بالنـزلاء وإهانتهم وعزلهم عن الآخرين "فلما استقر فيه أصابه من الجهـد لضيقه، وظلمته، ومن البرد أمر عظيم، لنداوة الموضع ورطوبته، فكاد أن يـتلف من ساعته"(٦٧). إن وصف تأثير السجن على الشخصية مع ما يصاحبه من ممارسـة صـنوف العذاب كان مدار الوصف في أخبار أخرى. يقول ابن الفرات الوزيـر واصفاً الدار التي سجن فيها "كنت في دار ضيقة، في حرّ شديد فأمر –أبو الهيـثم العـباس بـن محمد بن ثوابة الأنباري– بكشف البواري حتى صرت في الشـمس، ونحّـي الحصـير مـن تحتي، وأغلق أبواب البيوت، حتى حصلت في الصّحن، ثم قيدني بقيد ثقيل، وألبسني جبة صوف قد نقعت في ماء الأكارع، وغلني بُغـلّ، وأقفل باب الحجرة وانصرف، فأشرفت على التلف"(٦٨). إن صنوف العذاب التي مورست على ابن الفرات دفعته إلى التأمل في أعماله السابقة وإدانتها وما كان يعامل به الناس، "من المصادرة، ونهب المنازل، وقبض الضياع، وتسليم الناس إلى أعدائهم، وحبسهم، وتقييدهم، وإلباسهم جباب الصوف، وهتك حريمهم، وإقامتهم في الشموس، وإفرادهم في الحبوس"(٦٩).

وفـي بعـض الأحـيان يغيِّب الخبر الممارسات القهرية التي تمارس على السـجين، ويكتفـي بالإشـارة إلـى يأسه بسبب العزلة وطول مدة السجن، فتتردد العبارات الدالة على اليأس من الفرج من مثل "ونحن آيس ما كنا من الفرج"(٧٠)، أو حتى يئست من الفرج.

أخـيراً إن الإنسـان قد يُدفع إلى أن يتخذ لنفسه سجناً اختيارياً خوفاً عليها. ومـع أنـه يختلف عن السجن المعروف للجميع، إلا أن ما يجمع بين المكانين هو العـزلة، وتحديـد إقامـة النـزيل، فابن شيرزاد يختار مثلاً منـزل خالة المقتدر

للاختـــتفاء خوفـــاً من بَجْكم، فيتنكر بلباس امرأة، ويدخل إلى بيتها ومعه عجوز من داره يقـــول "فســلكت بي، وبالمرأة العجوز، إلى موضع من الدار، فدخلتْ حجرة، فأقفلــتها بيدها، ومشت بين أيدينا، حتى انتهت بنا إلى سرداب، فأنزلتنا فيه، ومشينا فيه طويلاً، وهي بين أيدينا، حتى صعدت منه إلى درجة طويلة، أفضت بنا إلى دار فـــي نهايـــة الحســـن والسرو، وفيها من الفرش، والآلات، وكل شيء حسن"(٧١). فأمضـــى فـــي هـــذا المكان شهرين لا يخرج من عنده أحد، ولا يدخل إليه أحد إلا جاريـــة كانت تخدمه. ومع أنه يصف أيامه مع هذه الجارية بأنها أطيب من عيشه أيـــام الدولـــة(٧٢)، فإنه كان على شوقٍ دائم لمعرفة ما يحدث في الخارج ولا يطيق البقاء على هذه الحالة، فكان يرسل عجوزاً لهذه الغاية. وحين علم بمقتل بَجْكم على يد الأكراد وزال الخطر عن حياته عاد إلى داره.

حركة المفاتيــــــح :

تعد مفاتيح الأبواب وأقفالها من أبرز متعلقات السجن ورموزه، لأن المفاتيح تـــتخلى عـــن وظيفتها في المحافظة على الذات ضمن مكان مغلق "لتحقيق الأمان الشخصـــي للـــناس حين يغلقون عليهم بيوتهم طلباً للنوم أو العزلة، فإنها في حالة الســـجن لا تصبح أداة يرجى من استعمالها التستر على الذات أو الاختلاء بالنفس، وإنمـــا تـــتحول إلـــى ممارســـة قهرية يفرضها قانون السجن لإماتة ذات النـــزيل والإجهـــاز علـــيه تدريـــجياً(٧٣). وكان صرير الأبواب وهي تغلق أو تفتح وحركة المفاتيح بداخلها مدار وصف غير خبر، لأنها تشكل الحد الفاصل بين عالمين؛ عالم الحـــرية والحـــياة وعـــالم العزلة والموت، فيكون صوت فتح الأبواب تارة بشرى بالفرج وزوال الشدة، فهذا يعقوب بن داود وزير المهدي يقول وقد طال حبسه، أنه رأى فـــي المنام كأن قائلاً يقول لـــه : "قل ؛ يا رفيق، يا شفيق، أنت ربي الحقيق،

ادفــع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير. فقلتها، فما شعرت إلا بالأبواب تفتح ثــم أدخلــت على الرشيد"[٧٤]. فالخبر يشير إلى فتح الأبواب والإفراج عنه، مع أن أغلــب الأخــبار تشير إلى أنه سجن في بئر بنيت عليه قــبة"[٧٥]. وفي خبر ثانٍ، يشير أحد الكتاب إلى إطلاق سراحهم من سجن الواثق قائلاً : "لم نشعر إلا والباب يــدق دقــاً شديداً، وصاح بنا صائح : البشرى، قد مات الواثق، اخرجوا"[٧٦]. وفي خــبر ثالــث، يصف سليمان بن وهب ما عاناه في السجن قائلاً : "فأخذني إسحاق، وقيدنــي بقــيد ثقيل، وألبسني جبة صوف، وحبسني في كنيف، وأغلق عليّ خمسة أبــواب، فكنــت لا أعرف الليل من النهار. فأقمت على ذلك عشرين يوماً، لا يفتح علــيّ الــباب إلا دفعة واحدة من كل يوم وليلة، يدفع إليّ فيها خبز وملح جريش، ومــاء حار، فكنت آنس بالخنافس، وبنات وردان[٧٧]، وأتمنى الموت من شدة ما أنا فيه"[٧٨]. وبعد أن تضرع إلى الله بالدعاء والصلاة قال : "فما استممت الدعاء حتى ســمعت صوت الأقفال تفتح، فلم أشك أنه القتل، ففتحت الأبواب"[٧٩]، ففتح الأبواب كــان بداية الانتقال من السجن إلى دار يستطيع فيها لقاء من يحب من أهله وولده وحاشيته ومن ثم خروجه فيما بعد.

أخــيراً يكون لحركة لمفاتيح في الأبواب وفتح أقفالها دلالتان متناقضتان في الخبر الواحد، كما في الخبر الذي يروى عن سجن أبي عمر القاضي وزميليه أبي المثــنى القاضي ومحمد بن داود بن الجراح القائد كما يشير أبو عمر القاضي "فلما كــان ذات ليلة، وقد غلقت الأبواب، ونام الموكلون بنا، ونحن نتحدث في بيوتنا، إذ حسســنا بصــوت الأقفال، تفتح، فارتعنا، ورجع كل واحد منا إلى صدر بيته. فما شــعرنا إلا وقد فتح الباب عن محمد بن داود، فأخرج، وأضجع ليذبح... (فذبح)... فما مضت إلا ساعات يسيرة، حتى سمعت أصوات الأقفال تفتح، فعاودني الجزع، وإذا هــم قــد جــاؤوا إلــى بيت أبي المثنى القاضي، ففتحوه، وأخرجوه، ... ثم

أضـــجعوه، فذبحـــوه"[٨٠]، ويضـــيف: "فلمـــا كان وجه السحر، وقد سمعت صوت الدبـــادب، وإذا صوت الأقفال تفتح، فقلت : لم يبق غيري، وأنا مقتول، فاستسلمت، وفـــتحوا الأبواب عني، وأقاموني إلى الصحن.." [٨١]، إلا أن واحداً منهم "أسرّ إليّ، فقال : لا بأس عليك، فقد تكلم فيك الوزير –ابن الفرات– وأنت مسلّم إليه، فسكنت قلـــيلاً، وجاؤونـــي بخفّي، وطيلساني، وعمامتي، فلبست ذلك، وأخرجت ...."[٨٢]. فالخـــبر يشـــير إلى صوت الأقفال وهي تفتح ثلاث مرات في الأولى والثانية كان صوتها يشكل موضوع رهبة وينذر بالقتل، فيكون الموت مصيراً للسجين (فدلالتها سلبية)، وكان صوتها في المرة الأخيرة يبشر بالفرج لأن عناية الوزير ابن الفرات بأبي عمر القاضي أنقذته من موت محقق.

المجلـــــــــس :

إذا كـــان الضيق سمة السجن فإن سمة المجلـــس الاتســـاع يقـــول ابن جـــامـــع (ت١٩٢هـــ) واصـــفاً دار الرشيد "وحملت إلى دار الخليفة على دابة، فعرفتها بالحرس والتكبير، والنيران، فجاوزت مقاصير عدة، حتى صرت إلى دار قوراء، وسطها أسرّة، قد أضيف بعضها إلى بعض"[٨٣]. ويصف المنذر بن المغيرة الدمشـــقي مجلـــس يحيى بن خالد البرمكي "فأدخلوا داراً ذات دهليز طويل، فدخلت معهم، وأفضينا إلى صحن واسع، وإذا شيخ بهيّ، فإذا هو يحيى بن خالد، على دكة أبنوس في صحن الدار، في وسط البستان، وله ميدان عنده بركة، وقد نصب عليها كراســـي أبـــنوس"[٨٤]. وإلـــى جانب الاتساع يلحظ المرء البذخ الدال على الثراء، فالمجـــالس الموصوفة تذكر بالقصور في ألف ليلة وليلة فقضبان الذهب تحيط بكل رخامتيـــن مـــن أرضية دار هشام بن عبدالملك وحيطانها، والأواني التي بين يديه مصـــنوعة مـــن الذهب كما يقول حماد الراوية (ت١٥٥هـ) "فدخلت عليه في دار

قـوراء، مفروشـة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك"[٨٥]، وفـي مجلـس يحـيى البرمكي يرتدي الخدم أفخر الثياب، وعليهم مناطق الذهب المرصعـة بالجوهـر[٨٦]. أما عن ساكني هذه المجالس أو مرتاديها فإنهم ينعمون بالراحة والاسترخاء وطيب العيش؛ فهشام بن عبدالملك "جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خزّ حمر، وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يده مسك مفتوت في أواني الذهـب، يقلّـبه، فتفـوح رائحـته"[٨٧]. في حين يكون السجين مكبوباً على وجهه يتمـنى الموت لشدة ما يناله من العذاب. أخيراً فإن المجلس يضج بالحركة والحياة فالخدم يدخلون ويخرجون وهم يحملون مجامر من الفضة فيها فتات المسك، وبنادق العنـبر، ثم يعودون وفي يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار، مخلوطة بالمسك، فتوضع بين يدي كل رجل في المجلس[٨٨]. أما السجين فيعيش في عالم من العزلة والنسيان.

وصـف اللون :

تقـدم بعض الأخبار وصفاً للون الأسود في مجالس الخلفاء العباسيين. وإذا مـا تذكرنا أن السواد كان عنواناً للدولة العباسية[٨٩]، فإن التركيز على وصفه في الخبر غالباً ما يدل على التسلط أو تنفيذ الأحكام أو حدوث أمر جلل كما في الخبر الذي يصف مجلساً عاماً للرشيد "ثم جلس الرشيد جلوساً عاماً، في مضرب خزّ[٩٠] أسـود، اسـتدارته أربعمائه ذراع، في أركانه أربع قباب، مغشّاة بخزّ أسود، وهو جـالس في فـازة[٩١] خزّ أسود، في وسط المضرب، والعمد كلها سود، وقد جعل مكـان الحديد فضة، والأوتاد، والحبال، كلها سود، وعليه جبة خزّ سوداء، وتحتها فـروة فـنك[٩٢]، قد استشعره، لما هو فيه من شدة البرد والعلة، وفوقها درّاعة خزّ أسـود، مبطـنة بفـنك وقلنسوة طويلة، وعمامة خزّ سوداء"[٩٣]. فهذا المجلس أعدّ

لمطالبة بكر بن المعتمر بالكتب السرية التي بعثها الأمين إلى الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح وغيرهما يأمرهم بها "بالقفول إلى بغداد، إن حدثت الحادثة بالرشيد، والاحتياط على ما في الخزائن، وحمله"(٩٤). وفي هذا المجلس أحضر للرشيد هارون وهو أخٌ لرافع بن الليث وقرابته الذي كان معه، فأمر بجزارين فقطعا عضواً عضواً لأنهما ساعدا رافع في خروجه على الرشيد سنة ١٩٣هـ. فالسواد في هذا الخبر دالٌّ على التسلط وإنفاذ الحكم فالرشيد يقول بلهجة قاطعة وعبارة قصيرة: عليّ بجزارين. وبعدها يقول الراوي "فنحيا، وأمر بهما، فقطعا عضواً، عضواً" (٩٥). وفي بعض الأحيان يسبق إصدار مثل هذه الأوامر وصف لليل أو الإشارة إلى أنها حدثت في منتصف الليل. يقول نديم المعتمد "فلما انتصف الليل، إذا بالخدم يدقون باب حجرتي، فانتبهت مرعوباً، فقالوا : أجب أمير المؤمنين"(٩٦). أو حين يشير نديم إسحاق بن إبراهيم المصعبي رئيس شرطة بغداد: "أن إسحاق استدعاه ذات ليلة، في منتصف الليل. قال ؛ فهالني ذلك، وأفزعني، لما كنت أعرفه منه، من زعارة الأخلاق، وشدة الإسراع إلى القتل"(٩٧). ومع أن الحالتين السابقتين قد انتهتا إلى خير، إلا أنهما يشيران إلى خوفهما من الاستدعاء في الليل، لأنه مدعاة للفزع.

من المهم أن يشار في هذا السياق إلى أن تغيير اللباس كما يظهر في بعض الأخبار، هو انتقال من التسلط وممارسة الحكم إلى الانبساط واللهو. لهذا تتضمن الأخبار إشارات واضحة إلى تغيير اللباس حين تصف مجالس الأنس. يقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي واصفاً مجلساً لجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي "فسرنا إلى مجلسه، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجواري،... فلما رفع الطعام، وجيء بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخلوق(٩٨)، فتخلّق، وخلّقني، وجعل يغنيني، وأغنيّه"(٩٩). وحين دخل عليهم

عبدالملك بن صالح الهاشمي : "... نزع قلنسوته فرمى بها مع طيلسانه جانباً -على الرغم من جلالة قدره وتقشفه- ... ودعا بعدها بقميص حرير، وخلوق، فلبس وتخلّق..."(١٠٠)، لهذا فقد قوبل خروج المعتضد إلى قتال وصيف الخادم بالقباء الأصفر، باستغراب كما يروي التنوخي الوالد "فخرجت في جملة الناس، فرأيته وعليه قباء أصفر بلا سواد، وسمعت رجلاً يقول : الخليفة بقباء أصفر بلا سواد؟... فقال له أحد الجيش : هذا كان عليه وهو جالس في داره ببغداد، فجاءه الخبر بعصيان وصيف، فخرج ... فعسكر، وحلف أن لا يغير هذا القباء، أو يفرغ من أمر وصيف ... فهو عليه إلى الآن"(١٠١). وتتضح دلالة تغيير اللباس في موقف للمأمون من عمه إبراهيم بن المهدي، حين سمعه يغني :

صونوا جيادكم واجلوا سلاحكم وشمّروا إنها أيام من غلبا

فاستعاده المأمون مراراً، وبان في وجهه الغضب والهم، وزوال الطرب، فترك القدح الذي في يده ونهض، فظن الحاضرون، أنه يريد الوضوء. "فما شعرنا إلا وقد استدعانا إلى مجلس آخر؛ فإذا هو جالس على سرير الخلافة، بقلنسوة، وثياب الهيبة، وبين يديه إسحاق بن إبراهيم المصعبي، وجلة القواد. فاستدعى إبراهيم بزيه، فحضر بأخس صورة وأقبحها، وعليه ثياب المنادمة، يفضحه بذلك. فلما وقف بين يديه، قال له : يا إبراهيم، ما حملك على الخروج عليّ، والخطبة لنفسك بالخلافة"(١٠٢). فاللباس، إذاً، " يتغير حسب الظرف، وقيمته الرمزية واضحة، لأنه يعني اطّراح كل المحرم المتعلق باللباس والمحرمات الأخرى التي تتحكم في السلوك...وكأن التغيير يحرر الجسد من الانحباس والتيبس، وينتقل من حال إلى حالة مضادة، ليعود مرة أخرى إلى حال الوقار(١٠٣).

ب- *العجيب*[١٠٤] :

"من العجب وهو الحيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عــن معــرفة كيفية تأثيره فيه"[١٠٥]. وقد درس تودوروف العجائبي جنساً أدبياً مســتقلاً، وعنى به "التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما يواجه حدثاً فوق طبيعي حسب الظاهر"[١٠٦]. فيلتقي التعريفان في الحيرة أو التردد الــذي يعــرض للمــرء دون الدخول في التفصيلات التي ذكرها تودوروف[١٠٧]، ويحــدث العجــب عند رؤية الإنسان حيواناً غريباً أو فعلاً خارقاً يتحير فيه عقول العقــلاء، وتدهش فيه نفوس الأذكياء، مما يدفعه إلى التسبيح[١٠٨]. فالعجب يخاطب فــي الإنسان منطق الغيب لا ليزعزعه، بل ليثبته ويزكيه"[١٠٩]. لذا فقد قام أركون بــتعديل مفهــوم العجيــب المدهش بإدخال مفهوم الانبهار أمام معجزة الخلق التي تــتجاوز الإنسان ولا يستطيع تفسيرها والتي تتطلب "تدخل الخالق. أنه بمعنى آخر الانبهار بعجيب خلــق الله والافتتــــان بـــــه"[١١٠].

وقــد انــتقى المحسّــن التنوخــي في "الفرج" مجموعة من الأخبار المتعلقة بالحيوان ليؤكد من خلالها أهمية الإيمان بحتمية الفرج وحدوثه بتفضل من الله عز وجــل، وإن خفيــت الأســباب. لا سيما أن الحيوان يمثل في هذه الأخبار الفاعل الأساسي في تشكيل الأحداث ودفعها نحو التعقيد وانفراجها فيما بعد[١١١]. وغالباً ما يمــارس الحــيوان دوراً إيجابــياً لمصلحة الإنسان الممتحن، فلا يتوقف دوره عند تخلــيص الإنســان من مأزقه وإنما يتعداها إلى معاقبة الأشرار والمعتدين، كما في الخــبر الذي يروى عن العقاب الذي أوقعه فيل على كل من شارك في صيد فرخه وشــارك فــي أكله، في حين أبقى على حياة من أحجم عن أكل ابنه، وساعده على الخــروج مــن الجزيرة التي كان فيها بعد موت أصحابه، يقول "ثم لف خرطومه علــيّ، وشــالني فــي الهــواء، فظننته يريد قتلي، فجهرت بالاستغــفار. ثم لفني

بخـــرطومه فجعلنـــي فـــوق ظهره، فانتصبت جالساً ... وانطلق الفيل يهـــــرول تـــــــــارة، ويســـعى تـــارة..."[١١٢]، إلى أن أنزله عن ظهره برفق في أقرب بلد مـــأهول بعـــد أن سار به في تلك الليلة مسيرة أيام. وكأنه مسخر لعمل الخير فقط. وكـــذا الأمـــر حين افترس السبع صاحب الدين وأبقى الغريم حياً، على الرغم من وجودهمـــا معاً ساعة الافتراس، وكأنه يعلم أن الغريم مظلوم ولا يجد مالاً يعطيـــه لصـــاحـــب الدين[١١٣]. والحيوان يمارس دوره ليكون سبباً في إنقاذ إنسان لا حول لـــه ولا قوة، ولكن الظروف دفعته ليكون في مواجهة هذا الحيوان أو ذاك. كما في الخبر الذي يروي وقوع الرجل على الأسد، وكان هذا الأخير سبباً في إنقاذه. وكأن الأســـد ينفّذ دوراً محدداً هو تأمين حياة الشخصية وإنقاذها أو إبلاغها إلى مأمنها. ومـــن عجيب أفعال الحيوان في هذه الأخبار أنها تحفظ للإنسان المعروف، فحدث أن أعـــان صـــياد فـــيلة الفيلة على قتل ثعبان، فدله الفيل الكبير على غيضة غير معروفة وفيها فيلة ميتة، فمازال يتتبع الأنياب، ويجمعها، حتى لم يدع هناك ناباً إلا جمعـــه، ثـــم أركـــبه على ظهره، وأخذه إلى طريق العمارة، واتبعته الفيلة ومعها أحمالها، فأنزله برفق، وتركه عند الأنياب، وقد صارت تلاً هائلاً، فحصل منها على مال عظيم، أغناه عن صيد الفيلة[١١٤].

يضـــاف إلـــى هـــذا ما روي عن مهاجمة أسد لأبي القاسم العلوي وغلامه، فافـــترس الأســـد الغلام، وترك أبا القاسم حياً، وكأنه يعلم أنه من أبناء فاطمة، وأن لحومهم محرمة على السباع، لاسيما أن الخبر[١١٥] يشير فيما بعد إلى هذه المعلومة، ويقـــدم حجـــة علـــى صدقها وهي ما روي من خبر زينب الكذابة – المشهور عند الشـــيعة– مـــع علي بن موسى الرضا عليهما السلام. فيبادر مؤلف الفرج ويسأل الـــراوي عـــن خـــبرها، فيروي لـــه أن زينب أدّعت أنها علوية، فدفع نسبها أمام الســـلطان، إلا أنهـــا أصرت، فدعيت إلى دخول بركة السباع هي وعلي بن موسى

الرضا، وذكر أمامها ما روي عن الرسول ﷺ قوله: "أن لحوم ولد فاطمة صلوات الله علـــيها محـــرمة علـــى الســـباع، فمن أكلته فهو دعي"(١١٦). فلم تقبل، فأجبرها السـلطان علـى ذلك. وحين نزلت وثبت عليها السباع فافترستها ومزقتها فعرفت بزينب الكذابة وأقعت السباع على أذنابها حين شاهدت علي بن موسى الرضا، "فدنا مـنها، ولم يزل يمسح رأس كل واحد منها ويمر بيده إلى ذنبه، والسبع يبصبص، حتى أتى على آخرها"(١١٧).

إن مـا قامت به الحيوانات من أدوار فاعلة في هذه الأخبار، يدفع بالمتلقي إلـى الاندهـاش أمـام هذه المخلوقات الأعجمية المسخرة. لما قامت به من أفعال خارقـة، لأنهـا خرقت عاداتها في الأكل والافتراس، وأدت دور المساعد والمنقذ والجلاد والشاهد، لتؤكد حدوث الفرج العجيب بقدرة الله عز وجل وتسخيره.

ج- الغريـب(١١٨):

"وهـو كل أمر عجيب، قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفـة"(١١٩). يرى القزويني أن الغريب يحدث بتأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكـية أو أجـرام عنصرية. كل ذلك بقدرة الله تعالى وإرادته ويدخل في الغريب معجـزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكرامات الأولياء الأبرار، فـإن تأثير نفوسهم يتعدى إلى غير أبدانهم(١٢٠)، ثم يورد أمثلة على ذلك. الذي دعا إلـى اختـيار هذا التعريف هو إشارته إلى وقوع الأشياء المخالفة للعادات المألوفة والمشـاهدات بتأثير نفوس قوية من مثل الأنبياء والأولياء. كما هي الحال في تأثير الشخصـية التي تظهر في المنام للإنسان النائم، فيصبح هذا الأخير أسيراً لما ظهر لـه في المنـام؛ فيعمل بهدي منه ولا يخالفه.

المنامـــــات :

والمــنامات فـــي هذا الباب تنتمي في أغلبها إلى ما يسمى "بالرؤيا" وليس الحلــم، لاســيما أن اللفظة وردت في غير خبر[١٢١]، يتضح هذا من العنوان الذي وضــعه للــباب السادس "من فارق شدة إلى رخاء، بعد بشرى منام لم يشب صدق تأويلـــه بكذب الأحلام"[١٢٢]. يضاف إلى ما سبق أن الشخصية التي تظهر في المنام تنتمـــي إلـــى بيـــت النبوة، "والرؤيا في حقيقتها: فعل باطني، وتعني مجموعة من الأحـــداث المتخيلة في النوم، لا يمكن أن تستنبط دلالتها أو تتكشف إلا حين تتحول إلى سرد يقوم به الرائي ويتواصل به قصاً أو حكياً مع طرف آخر... وحين تتحول هذه الأحداث المتخيلة إلى سياق سردي قصصي، يصبح التأويل ممكناً"[١٢٣].

إن تحـــول الأحـــداث المتخـــيلة إلى سياق سردي قصصي، هو الذي سوّغ وجودهـــا في كتاب الفرج بعد الشدة، ليوظفها في فكرة الكتاب الأساسي، إلا أن هذا التوظـــيف لا يمـــنع من أن تتضمن المنامات مضامين أخرى. فيكون المنام حافزاً لسرد حكايات المظلومين في السجون، وكيفية الإفراج عنهم لاسيما ممن ينتمون إلى الطبقات الدنيا في المجتمع، كما في الأخبار، التي تروى عن جمّال وحدّاد وصاحب فيج[١٢٤].

إن الناظر في أخبار هؤلاء يلحظ أنهم اتهموا بجرائم قتل لم يرتكبوها. وسبب الاتهام أن ظروفهم السيئة قادتهم إلى مكان الجريمة، فألقى القبض عليهم، ولم يكن لهـــم متظلم ولا مُذِّكر ولا متكلم فطال حبسهم[١٢٥]. على غرار ما فعله ابن الفرات، الوزيـــر مـــع أبـــي عمر القاضي[١٢٦]، أو ما فعله ابن أبي دؤاد من تذكير للواثق بإخراج الكتاب من حبسه[١٢٧]. ولم ينقذهم من السجن إلا ظهور الرسول ﷺ للخليفة المعـــتمد في المنام يأمره بإطلاق سراح الجمّال والحداد، وظهور مفاجئ لشيخ بهيّ في الليل أمام صاحب شرطة بغداد قائلاً لـــه : "في حبسك فيج مظلوم"[١٢٧] وبغدها

أرشــده إلى القاتل الحقيقي. فكانت الرؤيا سبباً في خلاص المظلومين. لذا سأل ابن حمــدون المعــتمد : "كيف تكلف أمير المؤمنين النظر في هذا بنفسه، في مثل هذا الوقــــت"(١٢٨). فذكر لــه المعتمد ما رآه في الحلم. ومن الطريف أن المعتمد في الــيوم التالــي لــم يــتذكر ما رآه في الحلم ولا ما حدث بعد ذلك من الإفراج عن المحبوسين بحضور صاحب الشرطة ونديمه والخدم. فقال : "والله ما أذكر من هذا شيئاً، ما كنت إلاّ سكران، نائماً طول ليلتي، وما انتبهت"(١٣٠).

والمنام شكلّ إطاراً ملائماً للإشارة إلى ما تعرض له العلويون من ظلم، على الــرغم من عدالة ما يدعون إليه، فالمهدي يطلق علوياً من الحبس لأن الرسول ﷺ أمــره فــي المنام بإطلاقه. وتزامنت رؤية المهدي للرسول ﷺ في المنام مع رؤية العلــوي لــه وهو يقول له : "يا بني ظلموك فيجيبه ؛ نعم يا رسول الله"(١٣١). أما المعتضد فإنه لم يتعرض للعلويين بسوء في أيام خلافته، ولا قتل منهم أحداً، بعد أن رأى علــي بن أبي طالب ﷺ في المنام وطلب منه أن يحفظه في ولده(١٣٢). فالمنام إذاً، يمثل صوت الضمير(١٣٣)، ويكون غرضه التكفير عن الذنب(١٣٤).

أخـيراً يتضمن منام المعتضد سبب اتخاذه هذا اللقب، وفي هذا إشارة إلى ما قالــه علــي بن أبي طالب ﷺ لــه في المنام " إن هذا الأمر صائر إليك، فاعتضد بالله، واحفظني في ولدي"(١٣٥).

سمات الشخصية في المنام :

تتضمن الأخبار وصفاً لسمات الشخصية التي تظهر في المنام؛ ويختلف هذا الوصــف مــن خــبر لآخر، باختلاف الشخصية. فإذا كانت هذه الأخيرة شخصية الرسولﷺ، فإن الخبر يبتعد عن وصف ملامحه الخارجية، ويكتفي بنقل ما أمر به وتقيــيده. فلا نسمع إلا صوتاً من مثل ؛ "أدرك أبا محمد الأزرق الأنباري، وأصلح

شـــأنه، بما يبلغه مقصده"[١٣٦]، أو "أغث أبا حسان الزيادي"[١٣٦]، أو "أطلب من ابن الراهبونـــي دفتراً خلقاً عنده، على ظهره دعاء، فادع الله به، فإنه يفرج عنك"[١٣٨]. فلا تملك الشخصية النائمة إلا الامتثال لأمر الرسولﷺ، والملاحظ أن هذه الأوامر فـــي الخبريـــن الأول والثاني (مضمون المنام) لا تتعلق بالنائم نفسه، وإنما تدعوه لمســـاعدة آخـــر وإخراجه من محنته، وليس شرطاً أن يكون الآخر معروفاً للنائم، فالرســـول ﷺ يأمر الصابوني –الدمشقي بإغاثة أبي محمد الأزرق، وهو لا يعرفه، لـــذا بحث عنه في دمشق، وحين وجده عوضه عن خسارته بعد أن قطع اللصوص قافلته وهو في طريقه إلى مصر.

وأحـــياناً تظهـــر الشخصية الواحدة في المنام لاثنين مختلفين، فيحلمان الحلم عيـــنه في آن واحد. فالعطار الكرخي يقصد الوزير علي بن عيسى ليساعده بعد أن رأي الرســـول ﷺ فـــي منامه وقال له : "اقصد علي بن عيسى". وفي الوقت نفسه، كـــان الوزير يبحث عن العطار ليعطيه مالاً، بعد أن رأى الرسول ﷺ وقال لـــه : "اعطِ فلان بن فلان العطار الكرخي أربعمائة دينار يصلح بها شأنه"[١٣٩]. وكثيراً ما يرافق ظهور الرسول ﷺ في المنام دعوة إلى الصلاة والدعاء[١٤٠].

وكذلـــك لا تتوقف أخبار رؤية علي ﷺ في المنام عند ملامحه العامة، وثمة خـــبر يشـــير إلى قدرته الخارقة على إيقاف ماء دجلة بيده. يقول المعتضد "فرأيت رجـــلاً جالســـاً علـــى الشاطئ، يدخل يده في الماء، فيقبض عليه، فتقف دجلة، ولا يخرج من تحت يده قطرة من الماء، حتى يجف ما تحت يده، ويتزايد الماء فوق يده ويقـــف كالطود العظيم، ثم يخرج يده من الماء، فيجري، يفعل ذلك مراراً"[١٤١]. أما الملامح العامة للحسين وفاطمة عليهما السلام، فتتوقف عندها بعض الأخبار كما في الخـــبر الـــذي يصـــف الحسين "في صورة كهل، حسن الوجه، بدراعة وعمامـــة وخف"[١٤٢] وفاطمه بإنها "متنقبة بنقاب أبيض وملحفة بيضاء"[١٤٣].

أخيراً تشير بعض الأخبار إلى ظهور مفاجئ لشيخ بهيّ، يتكلم بكلمات معدودة، ثم يختفي فجأة... وكأن الرائي في حلم، فيبحث عن الرجل فلا يجده فيكون ظهوره سبباً في خروج بعد شدة كإنقاذ رجل مظلوم وإرشاد صاحب الشرطة إلى براءته أو يكون هذا الظهور السبب في إنقاذ مظلوم وحقن دمه. وغالباً ما يظهر الشيخ على الصورة الآتية الدالة على النقاء والطهارة "فإذا بشيخ أبيض الرأس واللحية عليه ثياب بيضاء، وهو قائم يصلي"(١٤٤) أو "فرأيت شيخاً بهياً، نظيف الثوب، على رأسه قلنسوة لاطية(١٤٥)، في يده عكاز"(١٤٦). هذه الصورة المرسومة تذكر بوصف الشخصيات التي ظهرت في الحلم في الكتابات التي تنتمي إلى السياق الثقافي الذي ظهرت فيه كتب المحسِّن التنوخي من مثل كتب ابن أبي الدنيا والمسعودي والنديم. فقد أورد الأول رؤيا مالك بن دينار للحسن في المنام "رأيت الحسن في منامي مشرق اللون، شديد بياض الوجه، تبرق مجاري دموعه من شدة بياضها على سائر وجهه"(١٤٧). أما الثاني، فقد وصف الشبح الذي يظهر للمعتضد "فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان ... وتارة شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار"(١٤٨). أما الأخير فقد أورد حلم المأمون الذي رأى فيه المعلم أرسطو، فكانت هذه الرؤية سبباً في كثرة كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد كما يذكر النديم ، أحد الأسباب في ذلك "أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون، مشرباً حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلح(١٤٩) الرأس، أشهل(١٥٠) العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره، قال المأمون ؛ وكأنني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت : من أنت؟ قال أنا أرسطاليس"(١٥١).

على الرغم من النهايات السعيدة لأخبار الفرج، وعلى الرغم من أن نسق الشدة – الفرج يحكم الكتاب ويوجهه توجيهاً صارماً، بدءاً من الأخبار المقتضبة في

صـــدر الكتاب، ووصولاً إلى الحكايات الطويلة"(١٥٢). إلا أن الكتاب يتضمن أخباراً يتداخل في نهاياتها الشدة بالفرج. فما يعد فرجاً لشخصية يكون سبباً في شدة أخرى فـــي الخبر نفسه. ففي الوقت الذي يشير فيه الخبر إلى نجاة ابن قمير الموصلي من غضـــب سيده وعقابه، لأنه أسقط كتاباً له في الماء، فإنه يشير إلى أن غضب سيده وعقابه سرعان ما وقع على غلام آخر. والملاحظ أن (الراوي – ابن قمير) لايجد في هذا بأساً، إنما يعده خروجاً من ورطة يقول "فحمدت الله عز وجل، على استتار أمري من حيث لا أحتسب، وكفايتي ما كنت أخافه"(١٥٣).

وأحياناً يسلط الراوي الضوء منذ البداية على شخصية معينة فيصف محنتها ولا يعير اهتماماً للشخصيات الأخرى، غير أن هذا لا يمنع من تجاور الشدة والفرج فـــي الخبر والواحد. فيحدث أن يدخل أبو العتاهية سجن المهدي لامتناعه عن قول الشعر، ويكون في الوقت نفسه صاحب عيسى بن زيد بن علي مسجوناً معه، إلا أن أبا العتاهية يتخلص من السجن بعد أن يعود إلى قول الشعر، في حين يضرب عنق صـــاحب عيسى بن زيد لامتناعه عن ذكر مكان صاحبه. ومع أن الخبر يروى من وجهة نظر أبي العتاهية ويشير إلى أهمية تخلصه من السجن، فإن وصفه لصاحب عيســى وطريقــته فـــي إلقاء الشعر، والطريقة التي حوكم بها تجعل من فرج أبي العتاهية شيئاً باهتاً، وتبقى في الأذهان صورة السجين الذي مات دفاعاً عن موقفه. يقـــول : "فلما أدخلته –السجن– دهشت، وذهل عقلي، ورأيت منظراً هالني ... فإذا أنـــا بكهـــل حسن السمت نظيف الثوب، تبين عليه سيماء الخير؛ فقصدته..."(١٥٤) وبعدهـــا يـــتوجه بالكلام إلى أبي العتاهية قائلاً بعد أن رأى الحيرة على وجه هذا الأخير: "أنت إنما تركت قول الشعر الذي كان فيه قوام جاهك عندهم، وسببك إليهم، فحبســـوك حتى تقوله، وأنت لابد أن تقوله، فتطلق، وأنا يدعى بي الساعة، فأطالب بإحضـــار عيســـى بن زيد، وهو ابن رسول الله ﷺ، فإن دللت عليه، لقيت الله عز

وجل بدمه، وكان رسول الله، خصمي فيه، وإن لم أفعل، قتلت، فأنا أولى بالدهش والحيرة منك، وأنت ترى احتسابي وصبري"[١٥٥]. وهكذا كان. وما يعد فرجاً لبكر بن المعتمر من غضب الرشيد وتوعده بالقتل كان سبباً في التعجيل في مقتل هارون بن الليث وقرابته، لأن الأخيرين حضرا إلى مجلس الرشيد في الوقت الذي كان فيه الرشيد يتوعد بكر بن المعتمر ويطالبه في مجلس عام بالكتب التي أرسلها الأمين[١٥٦].

أخيراً، لعل من أكثر الأخبار التي يتداخل فيها الشدة بالفرج ما ورد عن المرأة النباشة التي كانت ترتدي جلد ماعز بشعره، وتستعمل كفاً من حديد، وتمشي على أربع كالذئب لتنبش القبور، وتسرق أكفانها. فيكشف أمرها قادم من العراق؛ أراد المبيت في بعض القباب التي على القبور، لأنه يدخل الرملة لأول مرة. وحين سمع بالنبش ضرب يدها بالسيف، فقطعها، فاكتشف أن النباش امرأة. فلاحقها، فعلم أنها ابنة قاضي البلد. فأبلغ والدها بأمرها، فعرض عليه والدها الزواج منها، فقبل بعد أن استتيبت الفتاة، فتابت وحلفت ألا عادت تفعل شيئاً من ذلك. إلا أن الأحداث سرعان ما اتخذت اتجاهاً آخر، حين هددت الفتاة زوجها بالقتل إن لم يطلقها، فاستجاب لها وترك البلد. إن ما انتهت إليه أحداث هذا الخبر لايمكن أن تعد نهاية سعيدة لأي طرف من الأطراف. فمحنة المرأة مزمنة، فقد وقع في نفسها منذ سنين أن تنبش القبور، فكانت تجد في خروجها إلى المقابر ونبشها القبور لذة لاسبب لها، أكثر من إصابتها بهذه المحنة. ونفذت هذه الرغبة بالتعاون مع جاريتها. ومحنة الرجل أنه أحب هذه المرأة، وتزوجها، ومما زاد في محنته أنها أقامت، معه شهوراً وهي نافرة منه. فكان يعتذر لها عما فعله بيدها حين داهمها في المقبرة، فكانت تظهر قبول عذره، إلا أنها لم تغفر له يوماً فعلته. ويبدو أن حنينها للخروج إلى المقابر قد عاودها مرة أخرى، لاسيما أن سرّ لذتها يصعب تحديده، وكانت تجد في

الــزواج قــيداً يمنعها من الخروج، فانتهت الأمور على النحو المذكور. وقد توقف محسن جاسم الموسوي عند هذا الخبر وعدّ ما جاء فيه يشكل مادة لما يتعارف عليه الــيوم بقصص "مصاصي الدماء"، لاسيما أن ملامح المرأة النباشة التي وصفت في الخبر هي رديفة المرأة المصاصة من حيث السرانية والرعب والحدة القاطعة وعدم خلودها للحياة الزوجية(١٥٧).

وإذا مــا حاولــت التكهن بسر لذة المرأة، فيمكن القول إنها مصابة بمرض الاســتذآب Lyconthropsy أو الجــنون الذي يخيل لصاحبه أنه تحول إلى ذئب، وهــذا الــتحول لا يحــدث إلا مع اكتمال القمر، فإذا ما فقد الشخص المتحول إلى حــيوان مــتوحش يده أو قدمه، فإنه يفقد قوته معها مؤقتاً(١٥٨). وهو ما يشير إليه الخبر فالليلة كانت مقمرة، لذا نجح في ملاحقتها وتتبع آثارها إلى أن دخلت بيتها. ويشير الخبر أخيراً إلى أن الرجل نجح في قطع يدها فظنت أنها فقدت قوتها، وأنه ظنها في بداية الأمر دابة يقول ؛ "فرأيت دابة كالذئب تمشي"(١٥٩).

إن مــا ظهــر في أخبار الفرج من إيمان بحتمية حدوث الفرج مهما طال الزمــن، لاينفي وجود الظلم وإنما يؤكد تعايش الظلم والعدل، الشدة والفرج. فالظلم قائم منذ الأزل، والإنسان ممتحن منذ آدم وإلى ما شاء الله، ولا يغير هذا إلاّ صبر الإنســان على المكارة والتقرب إلى الله بالعبادات. وهذا الأمر لا يمنع من التصدي للظلــم ومــنع حدوثــه، ولو تطلب هذا استخدام القوة أو الحيلة. كما فعل العلوي الصــوفي الــذي دبــر وسيلة للهرب من سجن المعتصم(١٦٠)، وكما فعل المعتزلة لإخراج زميلهم من السجن، إذ تجمعوا أمام الوالي مطالبين إما بإخراج زميلهم وإما بحبسهم جميعاً. فخاف الوالي من الفتنة فأطلقه(١٦١).

الهوامـــــــش

١- القاضي التنوخي وكتاب النشوار، ص ١٨.

٢- ســنة ٣٧١هــــ، هي السنة التي غضب فيها عضد الدولة عليه، وتوفي عام ٣٧٢هــــ، فســمح للمحسّن التنوخي بعد ذلك بحرية التنقل وممارسة حياته الطبيعية.

٣- الفرج ١: ٥٢.

٤- نفســه ١: ٥٣. وانظر كتاب "الفرج بعد الشدة"، ابن أبي الدنيا الذي يتضمن أحاديث عن انتظار الفرج والصبر. تح؛ مصطفى عبدالقادر عطا.

٥- الفرج ١: ٥٣.

٦- نفسه ١: ٥٤.

٧- القاضي التنوخي وكتاب النشوار، ص ٢٥.

٨- المستجاد، مقدمة المحقق، ص ٣.

٩- المستجاد من فعلات الأجواد، صلاح جرار، مرجع سابق، ص ٨٩.

١٠-الفرج ١: ٥٢.

١١-سورة الأنبياء، الآية ٢١.

١٢-الفرج ١: ٧٤.

١٣-نفسه ١: ٧٤.

١٤-نفسه ١: ١٠٦.

١٥-نفسه ١: ٢٣٧-١٣٨.

١٦-الفرج ١: ٢٣٩-٢٤٢.

١٧-أشار المحسّن أنه لم يستقص كلّ أخبار الشدّة - الفرج، ولو فعل ذلك لجاء الكتاب في "ألوف الأوراق لطول ما مضى من الزمان، وإن الله بحكمته أجرى أمور عباده، وأغذياء نعمته، منذ خلقهم، وإلى أن يقبضهم، على التقلب بين شدة ورخاء ... وفرج وكرب"، لهذا كله اقتصر على أحسن ما روي، وأصح ما بلغه من المعاني. (الفرج ١: ٥٤-٥٥).

١٨-الفرج ٤: ٦٣-٦٨.

١٩-نفسه ١: ٣٨٦-٣٨٧؛ ٤: ٢٩٣-٢٩٩.

٢٠-نفسه ٣: ٣٢٩-٣٣٢، ٣٣٤،٣٣٣-٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠-٣٤١، ٣٤٢-٣٤٤، ٣٤٥-٣٤٦، ٣٤٧-٣٥٠، ٣٥١-٣٥٢؛ والمستجاد، ص ٧٤-٨٥.

٢١-الفرج ١: ٥٢.

٢٢-نفسه ١: ١٦٢.

٢٣-نفسه ١: ٦٥.

٢٤-نفسه ١: ٦٥-٨٥.

٢٥-القص في أخبار الفرج بعد الشدة، مرجع سابق، ص ٩٧.

٢٦-نفسه ص ٩٥.

٢٧-الخبر في الأدب العربي، ٣٥٩. تتوافق البنية المذكورة أعلاه مع معنى الحكاية التي عرفها بروب بأنها "متتالية من الوظائف تتطور من فعل الشر أو الفقدان من خلال الوظائف الوسيطة إلى الزواج أو الوظائف الأخرى كحل

لعقدة الحكاية". مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة ؛ أبو بكر باقادر وأحمد عبدالرحيم نصر، ص ١٨٠.

٢٨-الشعرية، ترجمة ؛ شكري المبخوت ورجاء سلامة، ص ٦٩. وانظر بالتفصيل ؛ الفصل الخاص بقواعد السرد، The Grammar of Narrative في كتاب : The Poetics of Prose Tzvetan : Todorov Cornell University Press، 1977، PP 108-119.

٢٩-المراجع السابقة نفسها.

٣٠-الشعرية، مرجع سابق، ص ٦٨.

٣١-الشعرية، ص ٦٩؛ والقص في أخبار الفرج...، ص ١١٠.

٣٢-القص في أخبار الفرج...، ص ١١٠-١٢٦.

٣٣- انظر الخبر كاملاً في الفرج ٤؛ ٣١٦-٣٢٧.

٣٤-الزلاّل: نوع من السفن. يقول الصابئ "أرزاق الملاحين في الطيارات والشذآءات... والزلالات وزاوريق المعابر" (الوزراء، ص)١٩.

٣٥-الفرج ٢: ٣٧٣-٣٧٧.

٣٦-توالد السرد في ألف ليلة وليلة، سيلفيا بافل، فصول مج ١٣/ع١/١٩٩٤، ص ٥٠.

٣٧-أشار تودوروف إلى أن كل ظهور لشخصية جديدة في القصة يستدعي قصة جديدة يتم تضمنيها في القصة الأولى. وفي كثير من الأحيان لا تفهم هذه القصص إذا فصلت عن بعضها بعضاً. انظر بالتفصيل ؛ الناس- الحكايات،

تزفيتان تودورف، ترجمـــــــة، موريـــس أبو ناضر، مواقف ع ١٩٧١/١٦ ، ص ١٤٢-١٥١.

٣٨-تو الد السرد...، مرجع سابق، ص ٤٨-٥٧.

٣٩-عناق سمينة: الأنثى من المعز قبل استكمالها السنة.

٤٠-انظر الخبر كاملاً في الفرج ٣: ٢٨٥-٢٨٦.

٤١-الفرج ٣: ٢٨٧ وما بعده.

٤٢-الهميان : لفظة فارسية؛ وهي حزام عريض يودع في باطنه المال ويشد على الوسط.

٤٣-الفرج ٣: ٢٨٨.

٤٤-نفسه ٣: ٢٨٨-٢٨٩.

٤٥-نفسه ٣: ٢٩٢.

٤٦-نفسه ٤: ١٣٩-١٤٠.

٤٧-نفسه ٤: ١٤٠.

٤٨-نفسه ٤: ١٤٠.

٤٩-نفسه ٤: ١٤٢.

٥٠-نفسه ٤: ١٤٢-١٤٣.

٥١-نفسه ٤: ١٤٤-١٤٥. وانظر أيضاً : ٣: ٣٨٦-٣٨٨.

٥٢-عمـــارة بـــن حمزة: كاتب أبي جعفر المنصور ومولاه، وكان معجباً كريماً بلـــيغاً، فصـــيحاً. وكان أبو جعفر والمهدي يقدمانه ويحتملان أخلاقه لفضله

وبراعته ووجوب حقه، وولي لهما الأعمال الكبار. وله رسائل مجموعة من جملتها رسالة الجيش التي تُقر لبني العباس. الفهرست، ص ١٨٩.

٥٣-الفرج ٤: ٢٢.

٥٤-نفسه ٢: ٢٣.

٥٥-الكلام والخبر، ص ١٩٩-٢٠٠.

٥٦-يحدد سعيد يقطين الأنماط من خلال علاقة الكلام (الخبر) بالتجربة التي تنطلق من الأليف إلى العجيب مروراً بالغريب. الكلام والخبر، ص ٢٠٠.

٥٧-الكلام؛ يقصد به مختلف الممارسات اللفظية، وهو الاسم الجامع الذي يستوعب النظم والنثر. أما إذا قسمنا الكلام من جهة صاحبه، رأينا أنه لا يخرج عن كونه أحد اثنين؛ فهو إما قول يضطلع به متكلم، أو إخبار يقوم به راو. (الكلام والخبر، انظر على التوالي، ١٣٣، ١٣٤، ٢٠٦).

٥٨-الكلام والخبر، ص ١٩٩.

٥٩-بنية النص السردي، حميد الحمداني، ص ٦٢-٦٣.

٦٠-نفسه ص ٦٢.

٦١-الفرج ٤: ٣١.

٦٢-نفسه ٤: ٣١.

٦٣-انظر الخبر كاملاً في الفرج ٢: ٣٤- ٤٣.

٦٤-نفسه ٢: ٢٩-٣٠.

٦٥-أشـــار باشـــلار إلـــى الاستقطاب بين القبو والعلية وجدل الداخل والخارج. (جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، ص ٣٥-٥٩، ١٩١ -٢٠٦).

٦٦-الفرج ٢: ١٧٦.

٦٧-نفسه ٢: ١٧٦.

٦٨-نفسه ٢: ٤٦.

٦٩-نفسه ٢: ٤٦.

٧٠-نفسه ٢: ٦٢.

٧١-نفسه ٤: ٣٨.

٧٢-نفسه ٤: ٣٩.

٧٣-بنية الشكل الروائي، ص ٥٧.

٧٤-الفرج ٢: ٢٣٣.

٧٥-نفسه ٢: ٢٣٤.

٧٦-نفسه ٢: ٢٦٠.

٧٧-بنــت وردان؛دويــبة كريهة تعيش في أماكن القذارة.(الحيوان ٣٧١،٣:١٣؛ ٣٩:٤،٢٧٢). ويقــال لها في مصر خنفس (معجم الحيــوان، أمين معلوف، ص ٣٦).

٧٨-الفرج ١: ٣٠٩-٢١٠.

٧٩-نفسه ١: ٢١٠.

٨٠-الفرج ٢: ١٣٢-١٣٣.

٨١-نفسه ٢: ١٣٣-١٣٤.

٨٢-نفسه ٢: ١٣٣-١٣٤.

٨٣-نفسه ٣: ٨.

٨٤-نفسه ٣: ١٦٩.

٨٥-نفسه ٢: ٢٨٨.

٨٦-نفسه ٣: ١٦٩.

٨٧-نفسه ٤: ٢٨٨.

٨٨-نفسه ٣: ١٦٩-١٧٠.

٨٩-انظر مثلاً الفرج ٣: ٢٥٢، ٤: ٢٧٦.

٩٠-خزّ: ثياب تنسج من الصوف والابريسم. (لسان العرب؛ مادة خزز).

٩١-فازة: بناء من خرق وغيرها تبنى في العساكر والجمع فاز، أو مظلة تمتد بعمود. (لسان العرب؛ مادة فوز).

٩٢-فنك: دابة يلبس جلدها فرواً (لسان العرب؛ مادة فنك) والفنك من الدواب ذوات الفراء والوبر الكثيف الناعم، المرغوب فيه، والمنتفع به. (الحيوان ٦: ٢٧).

٩٣-الفرج ٣: ٣٥٩-٣٦٠.

٩٤-نفسه ٣: ٣٥٨.

٩٥-نفسه ٣: ٣٦١.

٩٦-الفرج ٢: ٣٤٤.

٩٧-نفسه ٤: ٥.

٩٨-خلوق: ضرب من الطيب، أعظم أجزائه من الزعفران.

٩٩-الفرج ١: ٣٦٢.

١٠٠-نفسه، ١: ٣٦٣-٣٦٤. وانظر هذا الخبر في المستجاد، ص ١٥٣-١٥٦، ويكون في المجلس إبراهيم بن المهدي وليس، إسحاق بن إبراهيم الموصلي.

١٠١-النشوار ٢: ٢٤٨.

١٠٢-الفرج ٣: ٣٤٨-٣٤٩.

١٠٣-المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ص ٣٤-٣٥.

١٠٤-العجيب عند سعيد يقطين "عندما يتجاوز الخبر التجربة ويفوقها، فيتم خلق عوالم جديدة تقوم على "التخيل".وذلك من خلال اختراع أشياء لا حقيقة لها بخروجها عن عوالم التجربة الواقعية العادية". الكلام والخبر، ص ٢٠٠.

١٠٥-عجائب المخلوقات، زكريا القزويني، ص ٣١. يشار إلى أن محمد أركون أدخل في هذا التعريف معنى الغريب عند القزويني. (انظر فصل "العجيب الخلاب في القرآن الكريم"، الفكر الإسلامي،قراءة علمية، ص ١٨٩-٢٠٧) في حين سأفرد للغريب قسماً خاصاً به.

١٠٦-مدخل إلى الأدب العجائبي، تزفيتان تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، ص ٤٤.

١٠٧-يحـــدد تودورف ثلاثة شروط للعجائبي. أولاً: أن يحمل النص القارئ على اعتـــبار عـــالم الشخصـــيات كعالم أشخاص أحياء وعلى التردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق – طبيعي للأحداث المروية، ثانياً: قد يكون هذا التردد محسوســاً بالتســاوي مـــن طرف الشخصية؛ على ذلك يكون دور القارئ مفوضاً إلى شخصية وفي نفس الوقت يوجد التردد دور القارئ مفوضاً إلى شخصـــية وفـــي نفـــس الوقت يوجد التردد ممثلاً، حيث يصير واحدة من موضـــوعات الأثر. ويتوحد القارئ مع الشخصية في حالة قراءة ساذجة، أخيراً ينبغي أن يختار القارئ موقفاً معيناً تجاه النص؛ إنه سيرفض التأويل الالـــيغوري مـــثل التأويل الشعري، مدخل إلى الأدب العجائبي، ص ٤٩. ويستغرق العجائبي زمن التردد أو الريب، وهو تردد مشترك بين الشخصية والقـــارئ، وحين يختار المرء هذا الجواب أو ذاك فإنه يغادر العجائبي إلى جنس مجاور هو الغريب أو العجيب، نفسه، ص ٤٤.

١٠٨- عجائب المخلوقات، ص ٣٢.

١٠٩- شعرية الرواية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، ص ٧٤.

١١٠- الفكر الإسلامي، ص ٢٢٣.

١١١- ورد فـــي بعض الأخبار أن الحيوان كان سبباً في هلاك الإنسان وقتله كما في الخبر –مثلاً– الذي يروى عن الأفعى التي كانت سبباً في موت أخوين وقطع إبهام الثالث. (الفرج ٤: ١٥٦-١٥٩).

١١٢- الفرج ٤: ١٣١؛ والنشوار ٣: ١٩٧.

١١٣- الفرج ٤: ١٥٤-١٥٥.

١١٤- نفسه ٤: ١٧٤-١٧٦.

١١٥- وانظر الخبر كاملاً الفرج ٤: ١٧٠-١٧٣.

١١٦- الفرج ٤: ١٧٢.

١١٧- نفسه ٤: ١٧٣.

١١٨- الغريب عند سعيد يقطين: عندما يصبح ما يقدمه لنا الخبر يفوق أو يوازي التجربة، نصبح أمام عوالم جديدة تتميز بغرابتها عما هو أليف وتنزاح عما هو متداول ويومي. إن هذا الانزياح يجعلنا في منطقة التماس بين ما هو واقعي وما هو تخييلي. (الكلام والخبر، ص ١٩٩-٢٠٠).

١١٩- عجائب المخلوقات، ص ٣٨.

١٢٠- نفسه ص ٣٨.

١٢١- الفرج ٢: ٢٢٠، ٢٢٢.

١٢٢- نفسه ٢: ٢٠٩.

١٢٣- الرؤيا في النص السردي العربي، نصر حامد أبو زيد، فصول مج ١٣/ع٣/١٩٩٤، ص ١٠٨.

١٢٤- الفرج ٢: ٢٤٥-٢٤٦، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٩٧-٣٠٠. الفيج؛ تطلق على كل من اتخذ من نقل الرسائل صناعة. فقد ورد في أحد الأخبار المروية في الفرج "فإذا فيج. وهو الساعي قد جاء، فوضع مخلاته وعصاه... ثم فتح مخلاته فميز ما فيها من الكتب، فرأيت كتاباً على وعليه اسم منزلي واسمي وكنيتي" الفرج ٣: ٢٦٩.

١٢٥- الفرج ٢: ٢٤٦.

١٢٦- نفسه ٢: ١٣٧.

١٢٧- الفرج ٢: ٤٢، ٢٣٠-٢٤٩؛ والمستجاد، ص ١٤١-١٤٤.

١٢٨- نفسه ٢: ٢٩٨.

١٢٩- نفسه ٢: ٢٤٧.

١٣٠- نفسه ٢: ٢٤٨.

١٣١- نفسه ٢: ٢٣٩ ، وانظر الخبر كاملا من الكتاب نفسه ٢: ٢٣٩-٢٤٠

١٣٢- نفسه ٢: ٢١٠-٢١٢.

١٣٣- محاورات أفلاطون، محاورة فيدون ٣: ٣٦٦-٣٦٧؛ الحكايات والأساطير والأحلام، إريش فروم، ص ٨٩.

١٣٤- باب الأحلام، علي كمال، ص ٥٠٣.

١٣٥- الفرج ٢: ٢١٠.

١٣٦- نفسه ٢: ٢٥٨.

١٣٧- الفرج ٢: ٢٣١؛ والنشوار ٢: ٢٣٨.

١٣٨- الفرج ٢: ٢٦٦.

١٣٩- نفسه ٢: ٢٧٦-٢٧٧.

١٤٠- نفسه ٢: ٢٣٩-٢٤١.

١٤١- نفسه ٢: ٢١٠.

١٤٢- نفسه ٢: ٢٩٠.

١٤٣- نفسه ٢: ٢٩٠.

١٤٤- الفرج ١: ٢٠٢.

١٤٥- لاطية: قلنسوة صغيرة تلطأ أي تلصق بالرأس.

١٤٦- الفرج ٢: ٢٩٨.

١٤٧- المنامات، ص ٣٧.

١٤٨- مروج الذهب ٤: ٢٦٠.

١٤٩- أجلح: ذهاب الشعر من مقدم الرأس. قال أبو عبيد : إذا انحسر الشعر عن جانبـــي الجبهة، فهو أنزع، فإذا زاد قليلاً، فهو أجلح (لسان العرب، مادة جلح).

١٥٠- أشهل: الشهلة في العين أن يشوب سوادها زرقة. يقال عين شهلاء إذا كان بياضاها ليس بخالص فيه كدرة (لسان العرب ، مادة شهل).

١٥١- الفهرست، النديم، ص ٣٩٧.

١٥٢- السردية العربية، ص ١٧٨.

١٥٣- النشوار ٢: ٦٨. وانظر أيضاً؛ ٢: ٨٥-٩١ من الكتاب نفسه؛ والنشـــوار ٣: ٢٧٦-٢٨٣.

١٥٤- الفرج ٢: ١١٦.

١٥٥- نفسه ٢: ١١٧. وانظر الخبر كاملاً في ٢: ١١٦-١١٨ من الكتاب نفسه.

١٥٦- نفسه ٣: ٢٦٣.

١٥٧- سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص ٢٤-٢٥.

١٥٨- الإنسان وقواه الخفية، كولن ولسن، ص ٢٧٨؛ وانظر أيضاً موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، عبدالمنعم حفني، ١: ٢٤٢، وموسوعة علم النفس، أسعد رزق، ص ٣٥.

١٥٩- الفرج ٣: ٣٧٨، وانظر الخبر كاملاً ٣: ٣٧٨-٣٨٥؛ والنشوار ٣: ٢٣٦-٢٤٣.

١٦٠- الفرج ٢: ١٧٥-١٧٩؛ وانظر ٢: ١٠٨-١١١ من الكتاب نفسه.

١٦١- نفسه ٢: ٣٢-٣٣.

الخاتمـــــــــــة

سعت هذه الدراسة إلى دراسة الخبر عند المحسِّن التنوخي بين القص والتأريخ وخلصت إلى ما يأتي :

انطلق المحسِّن التنوخي في مصنفاته من بعد ذاتي هو تجربة المحنة التي ظهرت جليّة في "الفرج بعد الشدة"، بيد أن بذورها كانت في النشوار، لاسيما أن هذه الأخبار أصبحت، فيما بعد، جزءاً من أخبار الفرج بعد الشدة. يضاف إلى ما سلف، ارتباط التاريخ الشخصي للمحسِّن بالتحول الذي شهده عصره. فكان مشروعه الكتابي يعبر عن وعيه بهذا التحول، وكان يتوسل بالتاريخي ليعبر عن الحاضر، لأنه أراد أن يقرأ الحاضر من خلال الموازنة بينه وبين الماضي، ويتوسل بالأليف والعجيب والغريب ليعبر عن تجربته. غير أن ما يميز أخباره أنه انتقل من الهم الشخصي إلى الهم العام فابتعد عن المباشرة في التعبير والإغراق في الذاتية إلى التعبير عن الهم الإنساني العام.

للمحسِّن –فضلاً عما سلف– هدف إنساني عام هو تدوين الموروث الإخباري وتخليده لاتخاذ العبرة ومجابهة فساد الزمن لاسيما أنه حاول أن يحصر سبب الفساد في أمرين : الأول أن مأساة العامة تتمثل بانشغالهم بالمعاش، والآخر أن مأساة الخاصة تتمثل بانهماكهم في الملذات البهيمية.

إن الخبر عند التنوخي لا يخضع لإطار واحد، إذ كان ينتقل من الأخبار القصيرة إلى الأخبار الطويلة، ومن البنى البسيطة إلى البنى المركبة؛ بمعنى أن الخبر يتضمن بداخله قصة أولى وثانيه بما يسمى بالتضمين. ويتفاوت حضور المكونات القصصية من خبر إلى آخر، باختلاف التجربة المروي عنها. ففي الأخبار التي تنضوي تحت الأليف كان لوصف المكان ووصف اللون حضور ظاهر. وكان يهدف من هذا الحضور التعبير عن مكانين مختلفين : يمثل الأول

عـالم السـجن وما فيه من إهدار لحرية الإنسان وكرامته، ويمثل الآخر عالم المجلـس ومـا يتمتع به صاحبه أو زائره من نعيم وراحة وسلطة في كثير من الأحيان. وقد ارتبط بهذا المجلس وصف اللون الأسود الدال على إصدار الأحكام وتنفـيذها. وكان للحيوان، في العجيب، دور الفاعل الرئيسي فيها لإحداث الفرج وتخلـيص الإنسـان من محنه. أما في الغريب فكان للشخصية التي تظهر في المـنام دور هام في التأثير على الشخصيات وعلى مجريات الأحداث في الخبر ونهاياتها.

أمـا عـن السـياق الذي أورد فيه الأخبار فقد تضمنت كتبه غير نظام لتسلسـل الأخـبار وتداعـيها كالتنضيد والتجاور والتعاقب السببي والخلط في "النشـوار" والنظام العرضي في "الفرج والمستجاد" لأحداث المفارقة أو التعبير عـن إدانـته لمـا يحدث في عصره ولإدانة الشخصيات التي شاركت في تلك الأحـداث وبـيان موقفـه مـن بعض الخلفاء كالأعجاب بالمعتضد مثلاً وإدانة المقتدر، مما يبعد عنها الاعتباطية في التسلسل.

وبعـد اسـتطاع الخبر، لهذا، أن يستوعب المضامين المختلفة في كتب المحسّن والآراء التي أراد التعبير عنها.

المصادر والمراجع

أولاً : أعمال المحسّن التنوخي :

١-جامع التواريخ أو نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، التنوخي، الجزء الثامن، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٣٠م.

٢-الفرج بعد الشدة، تحقيق، عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢

٣-المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق، محمد كرد علي، دار صادر، بيروت ١٩٩١م.

٤-نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق، عبود الشالجي، دارصادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

ثانياً : المراجع العربية :

أ-الكتب القديمة:

٥-أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان، وكيع القاضي، تحقيق، عبدالعزيز مصطفى المراغي، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٠م.

٦-الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة، عبدالله بن المقفع، شرح يوسف أبو حلقّة، مكتبة البيان، بيروت، ١٩٧٠م.

٧-إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، شهاب الدين، أحمد بن محمد القسطلاني، ضبط وتصحيح، محمد عبدالعزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

٨-ألف ليلة وليلة، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٩٧م.

٩-الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط وشرح، أحمد أمين وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩-١٩٤٤م.

١٠-البخلاء، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق، طه الحاجري. دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٧٦م.

١١-البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق، وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.
١٢-تـاريخ بغـداد أو مدينة السلام، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق، مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
١٣-تـاريخ الرسل والملوك، أبوجعفر، محمد بن جرير الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦٨م.
١٤-تـأويل مختلف الحديث، أبومحمد، عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق محمد زهدي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
١٥-تجارب الأمم، أبو علي، أحمد بن محمد مسكويه، اعتنى بالنسخ والتصحيح، هـ.ف آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
١٦-تحفـة الأمراء في تاريخ الوزراء، أبو الحسن، الهلال بن المحسّن الصابي، تحقيق، عبدالستار أحمد فراج. دار إحياء الكتب العربية،القاهـرة،١٩٥٨م.
١٧-الحـيوان، أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق، عبدالسلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.
١٨-ذم الهـوى، أبـو الفـرج، عبدالرحمـن ابـن الجوزي، تحقيق، مصطفى عبدالواحد، مراجعة، محمد الغزالي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٢م.
١٩-ذيـل كتاب تجارب الأمم، أبوشجاع، محمد بن الحسين الروذراوي، اعتنى بالنسخ والتصحيح، هـ.ن آمدروز، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.
٢٠-رسـائل ابـن حـزم الأندلسـي، تحقيق، إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
٢١-رسائل الجاحظ، تحقيق، عبدالسلام هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة،١٩٦٥م.
٢٢-زهـر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري، ضبط وشرح زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢.

٢٣-شـــرح مقامـــات الهمذاني، أبوالفضل، أحمد بن الحسين الهمذاني، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، الرياض، ط٢، ١٩٧٠م.
٢٤-عجائـــب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا القزويني، تقديم وتحقيق، فاروق سعد، دارا لآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٥-العقـــد الفريد، أبوعمر، أحمد بن محمد بن عبدربه، شرحه ورتب فهارسه، أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣،١٩٦٥م.
٢٦-الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، محمد بن علي بن طباطبا، ابن الطقطق، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٧-الفرج بعد الشدة، أبو بكر، عبدالله بن أبي الدنيا، تحقيق، مصطفى عبدالقادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٣م.
٢٨-الفهرســـت، أبوا لفرج، محمد بن أبي يعقوب النديم، ضبط وشرح، يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٩-الكـــامل في التاريخ، أبو الحسن، علي بن محمد (عزالدين ابن الأثير)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥-١٩٦٧م.
٣٠-كشـــاف اصـــطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.
٣١-كشـــف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، وكالة المعارف، القاهرة، ١٩٤١م.
٣٢-اللـــباب فـــي تهذيـــب الأنساب، أبو الحسن، علي بن محمد (عزالدين ابن الأثير)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.
٣٣-لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨؛
٣٤-مـــروج الذهب، ومعادن الجوهر، أبو الحسن، علي بن الحسين المسعودي، عني بطبعه بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، نقحه وصححه، شارل بلاّ، منشورات الجامعة اللبنانية (١١)، بيروت، ١٩٧٣م.

٣٥-مسألة العمل مع السلطان، الشريف المرتضى، نشر وتقديم، ولفريد مادلوفغ، ترجمة، رضوان السيد، الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع٣/ ١٩٨١م.
٣٦-معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ونشره د.س. مرّجليوث، القاهرة، ١٩٢٣-١٩٣٠، ونشرته المطبعة الهندية بالموسكي.
٣٧-معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
٣٨-المنامات، أبوبكر، عبدالله بن أبي الدنيا، دراسة وتحقيق، عبدالقادر أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٣م.
٣٩-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج، عبدالرحمن ابن الجوزي، تحقيق ودراسة، محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٢ م.
٤٠-المنية والأمل، عبدالجبار الهمذاني، جمع، أحمد بن يحيى المرتضى، تحقيق، عصام الدين محمد علي، دار المعرفة الجامعية، بيروت، د.ت.
٤١-يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر، أبومنصور، عبدالله الثعالبي، مطبعة الصاوي، ط١، القاهرة، ١٩٣٤م.

ب- الكتب الحديثة :

٤٢-الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٧١م.
٤٣-أشكال التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
٤٤-أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، الزهراء للإعلام،القاهرة،١٩٨٧م.
٤٥-باب الأحلام، علي كمال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سلسلة أبواب العقل الموصدة، بيروت، ١٩٩٤م.

٤٦-بناء النص التراثي، دراسات في الأدب والتراجم، فدوى مالطي دوغلاس، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بغداد، القاهرة، د.ت.
٤٧-بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
٤٨-بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
٤٩-تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة، د.ت.
٥٠-تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م.
٥١-تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤م.
٥٢-الخبر في الأدب، دراسة في السردية العربية، محمد القاضي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨م.
٥٣-الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، علي أومليل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ١٩٨٥م.
٥٤-السرد في مقامات الهمذاني، أيمن بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
٥٥-سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، محسن جاسم الموسوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
٥٦-السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
٥٧-السلطة الثقافية، والسلطة السياسية، علي أومليل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٦م.

٥٨-شعرية الراوية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.

٥٩-الفرج بعد الشدة للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي، انتقاء وترتيب دراسة محمد حسن عبدالله، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٩٣م.

٦٠-فـن القـص في النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، القاهرة، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

٦١-الفن القصصي العربي القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع، عزة غنّام، الدرا الفنية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩١م.

٦٢-القاضي التنوخي وكتاب النشوار، بدري فهد محمد، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٦م.

٦٣-الكـتابة التاريخية والمعرفة التاريخية (مقدمة في أصول التأريخ العربي)، عزيز العظمة، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٦٤-الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧م.

٦٥-المـثقفون فـي الحضارة العربية (محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد)، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.

٦٦-المحـنة، بحـث في جلية الديني والسياسي في الإسلام، فهمي جدعان، دار الشروق، عمان، ١٩٨٩م.

٦٧-مفهـوم الـتاريخ، عبدالله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٧م.

٦٨-معجم الحيوان، أمين معلوف، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٣٢م.

٦٩-معجـم المصـطلحات الأدبـية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م.

٧٠-موسـوعة علـم النفس، أسعد رزق، مراجعة: عبدالله عبدالدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

٧١-موسوعة علم النفس والتحليل النفسي (انجليزي-عربي)، عبدالمنعم حفني، دار العودة، بيروت، ١٩٧٧م.

٧٢-النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م.

٧٣-النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبدالحكيم بلبع، مكتبة وهبه، القاهرة، ط٣، ١٩٧٥.

ب- البحوث والمقالات العربية والمترجمة :

٧٤-أحاديث ابن دريد، زكي مبارك، مجلة المقتطف، القاهرة، المجلد (٧٦)، الجزء (٥)، ١٩٣٠م.

٧٥-إصلاح خطأ قديم مرت عليه قرون في نشأة المقامات، زكي مبارك، مجلة المقتطف، المجلد (٧٦)، الجزء (٤)، ١٩٣٠م.

٧٦-بعض خصائص الكتابة التاريخية، وجيه كوثراني، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، السنة الأولى، العدد (٢)، ١٩٧٨م.

٧٧-تفسير الألفاظ العباسية، أحمد تيمور، مجلة المجمع العلمي، دمشق، المجلد (٢)، ١٩٢٢م.

٧٨-توالد السرد، سليفيا بافل، نهى أبو سديرة، مجلة فصول، القاهرة، المجلد (١٣)، العدد (١)، ١٩٩٤م.

٧٩-حول نشأة المقامات، مصطفى صادق الرافعي، مجلة المقتطف، القاهرة، المجلد (٧٧)، الجزء (٢)، ١٩٣٠م.

٨٠-حول نشأة المقامات، ردّ على ردّ، زكي مبارك، مجلة المقتطف، القاهرة، المجلد (٧٧)، الجزء (١)، ١٩٣٠م.

٨١-خطأ في إصلاح خطأ، حول نشأة المقامات، مصطفى صادق الرافعي، مجلة المقتطف، القاهرة، المجلد (٧٦)، الجزء (٥)، ١٩٣٠م.

٨٢-الخطـــاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال، سيزا قاسم (ضمن كتاب الأدب العربـــي، تعبـيره عـــن الوحدة والتنوع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.
٨٣-رحلـــة كتاب : نشوار المحاضرة، خلال نصف قرن ويزيد، شكري فيصل، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد (٤٨)، الجــزء (٢)، ١٩٧٣م.
٨٤-الــرؤيا فـــي الـــنص السردي العربي، نصر حامد أبو زيد، مجلة فصول، القاهرة، المجلد (١٣)، العدد (٣)، ١٩٩٤م.
٨٥-طاقـــة أزهار من كتاب النشوار، عبدالقادر المغربي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، المجلد (٤)، ١٩٢٤م.
٨٦-فصـــل مقامة، دائرة المعارف الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة، حسناء الطرابلسي بوزويته، مجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد (٤٢)، ١٩٩١م.
٨٧-القـــص فـــي أخبار الفرج بعد الشدة، للقاضي أبي علي المحسن التنوخي، البشـير الوسلاتي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، تونس العدد (٤١)، ١٩٩٧م.
٨٨-اللحظات الفاصلة في الأدب العربي، تصور جديد لعصور الأدبية، ريجيس بلاشـــير، (ضـــمن كتاب الاستشراق الفرنسي والأدب العربي)، ترجمة، أحمد درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
٨٩-المستجاد من فعلات الأجواد، صلاح جرار، المجلة الثقافية، عمـــان، العدد (٢٣)، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠م.
٩٠-مـــع كتاب الفرج بعد الشدة، إبراهيم السامرائي، مجلة مجمع اللغة العربية، عمان، العددان (٩-١٠)، ١٩٨٠م.
٩١-مقدمـــة لدراســـة المروي عليه، جيرالد برنس، ترجمة، علي عفيفي، مجلة فصول، القاهرة، المجلد (١٢)، العدد (٢)، ١٩٩٣م.
٩٢-مقدمة لقراءة بديع الزمان الهمذاني، خليل أبو رحمة، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد، ١٣ العدد (٢)، ١٩٩٥، جامعة اليرموك، إربد.

٩٣-مقــولات السرد الأدبي، تزفيتان تودوروف، ترجمة، الحسين سحبان وفؤاد صفا (ضمن كتاب طرائق تحليل السرد)، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢م.

٩٤-الــناس- الحكايات، ألف ليلة وليلة كما ينظر إليها التحليل البنيوي، تزفيتان تودوروف، ترجمة، موريس أبوناضر، مجلة مواقف، بيروت، العدد (١٦)، تموز- آب ١٩٧١م.

٩٥-نشــوار المحاضــرة وأخبار المذاكرة للقاضي أبي علي المحسّن التنوخي، تحقــيق : عبود الشالجي، تعريف ونقد، محمد عبدالغني حسن، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، المجلد (٣٨)، ١٩٧٦م.

٩٦-نشــوار المحاضرة للتنوخي كنموذج للحكاية العربية في القرون الوسطى، فلشتينســكي، (ضــمن كــتاب بحوث سوفييتية جديدة في الأدب العربي)، ترجمة، محمد الطيار، دار رادوغا، موسكو، .١٩٨٦

٩٧-نشــوار المحاضــرة وأخبار المذاكرة، مي يوسف، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك المجلد (١٧)، العدد (٢)، ١٩٩٩م.

٩٨-نظــرات فــي نشوار المحاضرة، إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد (٣١) الجزء (٤)، ١٩٨٠.

٩٩-هــل كتب التنوخي كتاباً في التاريخ، قاسم السامرائي، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد (٣١)، الجزء (٤)، ١٩٨٠.

١٠٠- وجهــة الــنظر فــي الــرواية، على مستوى المكان والزمان، بوريس أوســبنكي، تــرجمة، سعيد الغانمي، مجلة فصول، القاهرة، المجلد (١٥)، العدد (٤)، ١٩٩٧

رابعاً : الكتب المترجمة :

١٠١- الإنســان وقواه الخفية، كولن ولسن، ترجمة، سامي خشبة، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٧م.

١٠٢- بلـــدان الخلافة الشرقية، كي لسترنج، ترجمة، بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
١٠٣- تـــاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة، عبدالحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦٢م.
١٠٤- جمالـــيات المكـــان، غاســـتون باشـــلار، ترجمة، غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.
١٠٥- الحضـــارة الإســـلامية فـــي القـــرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة، عـــبدالهادي أبـــو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهـــرة، ط٣، ١٩٥٧م.
١٠٦- خطاب الحكاية، بحث في المنهج، جيرار جينيت، ترجمة، محمد معتصم وعبدالجلـــيل الأزدي وعمرحلـــي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
١٠٧- الحكايـــات والأساطير والأحلام، مدخل إلى فهم لغة منسية، اريش فروم، ترجمة، صلاح حاتم، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٩٠م.
١٠٨- دائرة المعارف الإسلامية، انتشارات جهان، تران-بوذرجمرى، د.ت.
١٠٩- الشـــعرية، تزفيتان تودوروف، ترجمة، شكري المبخوت ورجاء سلامة، دارتوبقال، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٠م.
١١٠- الفكـــر الإســـلامي، قـــراءة علمية، محمد أركون، ترجمة، هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
١١١- محـــاورات أفلاطـــون، المجموعة الكاملة، نقلها إلى العربية شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٤م.
١١٢- مدخل إلى الأدب العجائبي، تزفيتان تودوروف، ترجمة، الصديق بوعلام، مراجعة، محمد برادة، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٤م.
١١٣- المقامـــات، السرد والأنساق الثقافية، عبدالفتاح كيليطو، ترجمة عبدالكريم الشرقاوي، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٩٣م.

١١٤- مقامـــات بديـــع الزمان الهمذاني، وقصص البيكاريسك، جيمس مونرو، ترجمة خليل أبورحمة، إربد، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٩٥م.

١١٥- مورفولوجـــيا الحكايـــة الخرافية، فلاديمير بروب، ترجمة، أبوبكر أحمد باقادر، أحمد عبدالرحيم نصر، جدة، النادي الثقافي، ١٩٨٩م.

١١٦- نظـــرية المـــنهج الشكلي، نصوص الشكلانين الروس، إبراهيم الخطيب، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٢م.

خامساً: المراجع الأجنبية :

١١٧- Al-Hamadhani، Al-Hariri and The Maqmat Genre، A.F.L Beeston، in Abbasid Bell، letters (The Cambridge History of Arabic Literature) ، cambridge، 1990.

١١٨- Authorship and transmission in unaythored literature، The Akhbar attributed to al-Haytham Ibn-Adi، stefan Leder ، Orients، Vol : 31، 1981.

١١٩-The Genesis of the Maqamat Genre، A.F.L. Beeston، in Journal of Arabic Literature ، Vol : 11، 1971.

١٢٠-The Potice of Prose، Tezvetan Todorov،Cornell University Press ، 1977.

سادساً : الرسائل الجامعية :

١٢١-مجتمع القرن الرابع في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، وداد القاضي، رسالة مخطوطة، ١٩٦٩، الجامعة الأميركية.

١٢٢-المحسّن بن علي التنوخي، حياته ودراسة تحليلية لآثاره، سلوى عبدالفتاح عثمان، رسالة مخطوطة، ١٩٩٤، الجامعة الأردنية.